AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01063 8207

02-B859

5-2-02

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CAIRO

DT
107.8
S452
1939

سردار

اقبال علی شاہ

١٨

فؤاد الأول

نقله بتصرف

محمد عبد المجيد

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CAIRO

923.1
F95ن

٩٢٣
ع ش . ف

نظام الحكم

21268

الإهداء

إلى حضرة صاحب الجلالة الملك

فاروق الأول

مولاى

أخذتنى روعة هذه الصورة التى أرادها سرداقبال على شاه لوالدكم العظيم، وملأنى حظها من الحق الخالص والجمال الموفور إعجابا بها وافتتانا بدقتها، فآثرت ان انقلها الى اللغة العربية لتكون تحية صادقة فى مناسبة الذكرى الثالثة للراحل الكريم

وإنى ليسعدنى وقد فرغت منها أن أرفعها لمقامكم السامى لتكون رمزا على إجلال الشعب الوفى للفقيد العظيم

وأنى يا مولاى بجلالتكم الخادم المخلص الأمين

القاهرة فى ١٦ ابريل ١٩٤٩

محمد عبد الحميد

فهرس

صحيفة

المقدمة ... ... ز

كلمة ملكية سامية ١

الفصل الأول — شبل إسماعيل ٣

الفصل الثانى — إسكندرية والسودان ١٨

الفصل الثالث — عودة الأمير فؤاد إلى مصر ٣٦

الفصل الرابع — جهوده قبل الحرب ٤٦

الفصل الخامس — الحرب ٥٧

الفصل السادس — الحماية ٦٩

الفصل السابع — بداية الطريق ٨٢

الفصل الثامن — الجهود السياسية الأولى ٩٥

الفصل التاسع — جهاد ١١٠

الفصل العاشر — مواقف دقيقة ١٣٠

الفصل الحادى عشر — توطيد الملكية ١٣٧

الفصل الثانى عشر — سعد زغلول ١٤٤

الفصل الثالث عشر — الأوتوقراطية ١٥٥

الفصل الرابع عشر — هدوء سياسى ١٦٠

صحيفة

الفصل الخامس عشر — عود إلى السياسة ١٧٣
الفصل السادس عشر — الرحلات الأوروبية ١٨٠
الفصل السابع عشر — استمرار النضال ١٨٧
الفصل الثامن عشر — محنة المخدرات ١٩٦
الفصل التاسع عشر — استمرار النضال ٢٠٣
الفصل العشرون — الطور الأخير ٢١٨
الفصل الحادى والعشرون — مآثر ٢٢٧
الفصل الثانى والعشرون — جهود دينية ٢٣٧

مقدمة

ربما كان حتما أن توضع لكل كتاب مقدمة أو تمهيد ، ولست أحب لكتابى هذا إلا أن يستكمل هذا التصدير .

فأنا قد نقلته عن كتاب سردار إقبال على شاه الذى وضعه باللغة الإنجليزية فاضطررت إلى التصرف فيه بما لا يغير الحقيقة أو يمس التاريخ .

وأنا قد بدأت الكتاب مؤمناً بعظمة « فؤاد » ، وفرغت منه أشد إيمانا بعظمة عاهل مصر الكبير .

ولعل الأستاذ « عباس العقاد » قد بلغ الذروة يوم صور الملك فؤاداً هذه الصورة الموجزة الرائعة فى الفصل الذى عقده فى كتابه الخالد « سعد زغلول » ، والذى أراد أن يكون عنوانه « الملك فؤاد وسعد » :

« والملك فؤاد أقوى شخصية ظهرت على عرش مصر بعد جده محمد على الكبير . واسع الاطلاع عظيم الخبرة نافذ التفكير فى شئون السياسة ، تولى الملك وهو فى أوائل الشيخوخة ؛ فقضى ست سنوات أو سبعاً لا تبدو منه حركة ولا يشعر الناس له بسيطرة فى الحكومة أو فى الحياة الشعبية ، فأخطأ الكثيرون فهم هذا السكون أو هذا الانتظار ، وحسبوه ضعفاً وخمولا وقناعة بما وصل إليه من الملك بعد أن كان الوصول إليه فى رأيه ورأى الآخرين حلماً من الأحلام .

لكنه فى الحقيقة لم يكن ضعفاً ولا خمولا ، وإنما كان تدبيراً مقدراً وتأهباً مدخراً إلى حين ، لأن السنوات الست أو السبع الأول من حكمه كانت بين حرب عظمى يترقب نهايتها إلى أى حال تصير ، وبين صراع قائم على القضية

المصرية لا تؤمن فيه عاقبة المصادمة مع هذا الفريق أو ذاك ، قبل أن تنجلى الغاشية وتطمئن الأمور » .

فهل ترى معى إلى هذه الروعة فى التصوير تنفذ إليك من كل كلمة فتحمل لخيالك أطيافا من الماضى والحاضر ، وتدفع إلى نفسك إيمانا ، وتبعث فى أغوار قلبك نوراً .

ولهذه الصورة الموجزة الدقيقة أروع فى دقتها من سفر كامل وأحفل بالحق والكمال من كتاب برمته .

حسبى هى أضعها لتتصدر كتابى ، وأنا أومن أن ما فى الكتاب من حق كفيل أن يجلو هذه الصورة فيفصل دقائقها ويشع عليها نوراً يتسامى بروعتها .

وليس من ريب فى أنك مؤمن بعد ذلك أن فؤاداً كان عظيما ، وأن عظمته خالدة تزيدها الأيام قوة ورسوخا .

القاهرة فى ١٠ ابريل سنة ١٩٣٩ — محمد عبد الحميد

فؤاد

« ليس المهم أن تكون أميرا ، و إنما المهم أن تكون نافعا » .

« فى اللحظة التى يغذى الشعب فيها شعور الاحترام لأجداده وروح التقديس لعظمة أبطاله ، يدرك سر مستقبله لأنه يكون فى هـذه اللحظة بعينها قد بلغ ذروة المدنية » .

« ستكون مفاخر ماضينا وتراثنا الخالد خير عون لنا فى بعث وطننا من جديد ، وفى التقدم به نحو الكمال الإنسانى ، ذلك الكمال الذى ظل على تناحر الشعوب واختلاف الفلاسفة فى جميع الأقطار والأزمان ، منذ كان أرسطو حتى ليوتولستوى ، ظل حلم العصور الكثيرة المتعاقبة ، والمنارة اللامعة المغرية فى آفاق البشرية السامية » .

فؤاد الأول

الفصل الأول

شبل اسماعيل

امتاز صاحب الجلالة الملك أحمد فؤاد بن الخديو اسماعيل — أول ملك عصرى ولى حكم مصر — عن الإسكندر الأكبر فى أنه تبع وحى نفسه ، فقد وجد الإسكندر فى أرسطو مبعث إلهامه ، أما فؤاد فكانت لديه الرغبة فى النهوض بوطنه والتقدم به نحو المجد الذى يمكن أن يقارن بعظمة مصر الماضية ، غير أنه لم يتمكن من إدراك الكمال الإنسانى الذى تحدث عنه .

وليس فى التاريخ الحديث ملك أساء وزراؤه خدمته مثله ، بل ولم يحدث فى أوروبا الكثيرة الشغب أن ألفى أحد الملوك نفسه فى مثل مركزه الشائك ، ومن المؤكد أنه ليس بين الحكام الشرعيين الدستوريين من لقى مثل النضال الملح العنيف الذى ثار بينه و بين هؤلاء الذين وقفوا جهودهم فى الحياة على منافسة أرسطو فى تمثيل إرادة الشعب إن لم يكن فى تصوير أمانيه الخالية .

لقد واصل الملك فؤاد النضال منذ اللحظة التى تبوأ فيها عرشه حتى اللحظة التى أقعده فيها المرض ، فكان إذا خلص من معركة مع الانجليز اشتبك فى معركة عنيفة مع وزرائه . وكأنما كان حتما عليه أن يواجه ناحيتين ، السلطات البريطانية حانقة متجنية فى ناحية ، وفى الناحية الأخرى مجلس وزراء متبرم مثير ، ولم يكن الحظ فى الأوقات التى تخلو من مجلس الوزراء ليختلف فى كثير ، فما يكاد الملك يحس بالسلوى فيما أسموه « دكتاتورية القصر » حتى يبدو أنه يثير شعبه .

لقد كانت حياته متصلة الزوابع ، حفلت بالمكائد والسعايات حتى كانت هى عنصرها الأول .

وفى النهاية قضى مبكرا فى الثامنة والستين من عمره ، بعد حكم حافل دام حوالى العشرين عاما .

ولد الملك فؤاد فى قصر الجيزة فى السادس والعشرين من مارس ١٨٦٨ ، فكان أصغر أبناء الخديو اسماعيل ، وحفيد ابراهيم باشا وابن حفيد محمد على الكبير .

وكجميع أبناء اسماعيل ولد فى جو من الإسراف المفرط ، جو تغمره الدسائس فى كل ألوانها ، وما كاد يبين حتى وجد البلاط فى حرب مع الوزارة ، فكان يسمع كل يوم ضجيجا عن أمير أفنى سلطانه الشخصى فى النظام الدستورى ، فقد قضى الخديو اسماعيل أيامه فى تعنيف الذين يحيطون به وفى رفضه التسليم بقبول الآراء الدستورية .

كان اسماعيل فذا فى تنفيذ خطته ، فلما عاتبه الانجليز على موقفه من الوزارة قال متأففا : « فليحكم الوزراء ، ولهم آراؤهم ، أما أنا فلا أستطيع أن أقر أية ضريبة جديدة دون استشارة شعبى » ، وسرعان ما تراجعت الوزارة واسترد اسماعيل سلطانه على مجلس وزرائه ، وكان فى حضور الخديو اجتماعات مجلس الوزراء معنى الاحتفاظ بالمظهر الدستورى بينما كان الوزراء يخضعون له خضوعا مطلقا ، فإذا طرح مشروع يتعارض مع رغباته ، كانت النتيجة الحاسمة لرأيه الشخصى . ويكفى أن نقول إن الملك فؤادا قد ورث صلابة رأيه التى عرف بها عن والده .

وقد عرف اسماعيل بتوانيه عن دفع مرتبات ضباط جيشه ، فكان طبيعيا أن تتأخر المرتبات شهورا كثيرة مما دفع الكثيرين من الضباط وأسرهم إلى شفا الفاقة

ولولا الدستور للبثوا طويلا على حالهم هـذا . وقد اضطر اسماعيل إزاء إلحاح الانجليز المتصل ، أن يمنح وزراءه قسطا من الحرية ، وقد استغل الوزراء موقف الجيش لتوسيع نطاق سـلطانهم ، واتخذت الإجراءات لدفع مرتبات بعض الضباط وترضية الكثيرين منهم .

غير أن الوزارة أخطأت ، فبدلا من أن تسلك الطريق الطبيعى فى تنفيذ خطتها ، أثارت تقليدا قديما بجمعها الضباط فى استعراض لصرف مرتباتهم .

فاجتمع فى القاهرة ألفان وخمسمائة من الضباط لاستلام جانب من حقوقهم وتسليم سلاحهم ، وقد زاد عدد الساخطين من الضباط عن رجال الحرس ، فلما رأوا وزيرين فى عربتيهما ثاروا فى وجهيهما وأساؤا إليهما وحبسوهما فى وزارة المالية . فلما بلغ الخديو أن فريقا من الضباط الثائرين قد حاصر الوزارة ، لم تخنه شجاعته وسرعان ما وصل بعربته إلى المكان وأمر الثائرين أن ينفضوا ، فلما أبوا الإذعان استدعى حرسه ، ولعب فى المعركة التى نجمت عن ذلك دورا باهرا ، ويمكننا أن ندرك مقـدار ما تعرض له من الخطر إذا عرفنا أن كبير وزرائه أصيب بطعنة سيف وهو إلى جواره . وكان والد فؤاد فى هـذه اللحظة يقترب من نهاية حكمه ، إذ لم يكن فى خزائن الدولة عند ما ثار ضباط الجيش من المال ما يفى بمطالبهم .

ولما طلب اسماعيل إلى الثائرين أن ينفضوا أكد لهم أن مرتباتهم آتية لا ريب فيها . والواقع أن الضباط تسلموا مرتباتهم بعد جهد كبير . فقد طرقت أبواب بعض المصارف غير أنها اشترطت لتقديم المال أرباحا فادحة . ووضع مشروع لجمع الضرائب مقدما ، ولـكنه أهمل لعـدم موافقة الجانب البريطانى عليه ، وأخيرا قدم بيت روتشلد المعروف المال المطلوب وصرفت للضباط مرتباتهم ، فهدأ روعهم ورأى اسماعيل فى ذلك لنفسه نصرا مبينا ؛ فقد بين لرجال جيشه أن

الوزارة لم تستطع أن تدفع لهم مرتباتهم بينما استطاع هو بكلمة واحدة أن يأتيهم بالمال .

وعلى الرغم من أن البلاد كانت فى حالة من الإفلاس لا تستطع معها الوفاء بديونها الخارجية ، فإن اسماعيل لم يتوان عن التخلص من وزرائه واتخذ لنفسه بطانة من مستشارين ينزلون عند إرادته و يخضعون لسلطانه . كان رجل الساعة وكأنما تمثلت فيه شخصية الإمبراطور أوغسطس . ذكر للفلاحين أن المال قليل بحيث لا يفى بمطالب الدائنين من الأوروبيين فأثار بذلك سخطهم ، وكان كلما استخدم السوط فى استنزاف المال من جيوبهم يؤكد لهؤلاء المناكيد أن اليد التى تحرك « الكرباج » من وراء الستار إنما هى يد الدائنين الأجانب .

وكانت مصر تابعة لتركيا ، غير أن اسماعيل لم يحفل باستانبول وأعلن أن الخديو فوق الجميع .

فاشتد تذمر الشعب لكثرة ما استنزف من ماله ، وازداد عدد رجال الجيش الذين تأخرت مرتباتهم ، وخوت خزائن الدولة ولم يبق ثمة شك فى قرب الانفجار ، فتنبهت الدول الغربية للأمر وطلبت إلى اسماعيل « الانسحاب بما يحفظ له كرامته من منصب لم تهيئه للقيام به طبيعته ولا ماضيه » .

فلما فجأ اسماعيلَ طلبُ اعتزال الحكم ، بعث إلى السلطان هدايا مالية ضخمة وأبلغه أن الدول الغربية إنما تطمع فى اغتصاب حقوقه فى مصر لما يعوزها من النبل والإخلاص .

فاقتنع السلطان بهذه الأخبار وصفح عن تابعه الجموح ، وآمن بما ذكره له ، من أن كل ما أذيع حوله ، لم يزد على أنه محض افتراء ولدته رغبة هذه الدول فى إدراك مطامعها . فاعتزم أن يشد أزر اسماعيل ، فأبلغ الدول فى حزم أنه إذا دعت الضرورة إلى عزل الخديو ، فإنما يفضل أن يتولى هو بنفسه تلك المهمة .

اطمأن اسماعيل إذن إلى سلامة مركزه ، وزاد فى طمأنينته أن الوفاق لم يكن على أتمه فى أوروبا ، غير أن الدوتشى (اسماعيل) كان يبغى الزحف على روما ، وكانت إيطاليا شديدة الارتياب فى نوايا فرنسا وانجلترا ، وكانت ترغب أشد الرغبة فى مساعدة اسماعيل فتقدمت فى ثياب الصديقة للشعوب الضعيفة المتأخرة ، وكانت تطمع فى مصوع ، ذلك المنفذ المؤدى إلى الحبشه و إلى منابع النيل الأزرق .

على أن انجلترا وفرنسا لا ترضيان الهزيمة ، فطلب مندوبا الدولتين مقابلة اسماعيل فى قصره ، وأدركت جدة فؤاد أن هـذه المقابلة تحمل نذير شر يهدد حياة اسماعيل العزيز ، فركعت على ركبتيها وتوسلت إلى الخديو أن يرفض استقبالهما ، ولـكن اسماعيل استطاع أن يسخر من مخاوف والدته رغم ما اجتاح نفسه من غضب جامح ، واقتاد أمه الواهة حتى بلغ بها أبواب الجناح المخصص للسيدات ، وحاول التغلب على عواطفه حتى يستطيع السيطرة على ملامح وجهه ، ثم استقبل ممثلى الدولتين استقبالا وديا بارعا ، انتزعه من واسع خبرته ، ولـكنه ظهر للجميع أنه فقد فى هذه المقابلة الخطيرة نفسه ، وأنه لم يدرك مما كان يدور حوله غير القليل ، فلم يزد على أن قال ردا على الحديث العنيف الذى وجه إليه : « لن أعتزل الحكم » ، ثم ردد العبارة فى كلل و إعياء ، ولما أدرك ممثلا الدولتين عقم الموقف أذن لهما بالانسحاب .

لم ينم الخديو اسماعيل طول ليلته ، ولـكنه قضى الساعات يذرع طرقات قصره ، وقد ظل الخدم يرقبونه عن بعد وفى فزع إذ كان غضبه قد بلغ به أقسى حدته ، وكان يندفع بين حين وآخر إلى مكتبه فيملى على كاتم سر مثقل الجفنين ، فى عبارات موجزة مضطربة ، مرسوما جديدا يرمى به إلى قهر الدول الأوروبية ، وكان مدفوعا فى هذا بجشعه الطبيعى ولم يكن لديه ما يحمله على الشك فى الفوز

والغلبة فى هذه المرة وهو الذى أثار الغبار فى وجه انجلترا وفرنسا فى مرة ماضية ، لقد كان يزدرى السياسة الغربية ويثق بنفسه إلى أبعد مدى .

كان اسماعيل يملى مراسيمه يدفعه الغضب الجامح والرغبة الملحة فى الانتقام ، وقد سلك لذلك كل سبيل رأى فيها ما يقلق بال هؤلاء الغربيين البطيئى الإدراك ، غير أن هذه المشروعات جميعها كانت تختفى بمثل السرعة التى تظهر بها . وقد عرف من بقايا الأوراق الممزقة التى عثر عليها فيما بعد ، أن اسماعيل وضع فى تلك الليلة الحافلة بالجهد والعمل أشنع المشاريع وأبلغها حماقة وطيشا ، فكان بينها دون أن يكون أبرزها ، مشروع يرمى إلى إغراق الأراضى المحيطة بالإسكندرية بالمياه ، لينشأ عن ذلك ارتباك الدولتين ، وليخلق له متسعا من الوقت يستغله لصالحه .

وقد أتيح الظهور لمرسوم واحد بعد هذا الجهد العنيف الذى بذل فى غير طائل ، وهو يقضى برفع قوة الجيش إلى ١٥٠٫٠٠٠ رجل ، وكان يرمى به إلى إفهام الأوروبيين أن فى مقدوره أن يحارب ، وأنه ليس لعبة تتحرك وفق رغباتهم . ولكن أمرا واحدا استطاع دون غيره ، وسط تلك الليلة الهائلة أن يحد من ثورة اسماعيل وأن يرغمه على الإذعان ، ذلك هو خلو خزائن الدولة من المال خلوا تاما . ومهما يكن لون المشروعات التى وضعها والخطط التى رسمها ، ومهما يكن لون الآراء التى دارت بخياله ، فقد كان إفلاس البلاد المريع هو العقبة التى اعترضت سبيله وانحلت عندها كل العقد .

وبدت طلائع الحكمة مع أنوار الفجر الهادئة ، وأحس اسماعيل يد القدر تمتد إليه فى جد وقسوة ، فأمر أن تجمع المجوهرات الملكية وأن ترسل فى سرعة إلى اليخت الملكى الراسى بالإسكندرية .

واقتنعت استانبول وسط هذا الاضطراب بنوايا الدول فانحنت أمام العاصفة

السياسية ، ثم أعلن تنصيب خديو جديد ، وكان هذا الخديو هو «الأمير توفيق» أحد أبناء اسماعيل وأخو الأمير فؤاد الصغير .

وأدرك اسماعيل أن تلك هى الخاتمة دون ريب ، فبعث فى طلب توفيق ، وهناك شهد القصر منظرا بالغ التأثير فقد انهمرت الدموع من عينى الأبن والأب ، وغلبت اسماعيل عواطفه وهو يعلن إلى وزارئه أنه تنازل عن الملك ، فلقى فى إخراج عبارته صعوبة وعسرا .

وعند ما حلت اللحظة الرهيبة لتوقيع صك تنازله عن العرش خذلته أعصابه حتى لقد بذل فى الإمساك بالقلم جهدا غير يسير ، وكان بطبيعته لا يميل إلى الكتابة ، فإذا كتب بدا خطه أشبه ما يكون بما يكتبه تلاميذ المدارس ، حروف كبيرة مشوهة الرسم مضطربة التكوين ، ولم يعرف عنه أنه كتب خطابا كاملا على الإطلاق ، لذلك يشك كثيرا فيما إذا كان قد استطاع أن يتم جملة واحدة كاملة . أما توقيعه الذى ذيل به هذا الصك فقد حمل فى ثنايا حروفه رمز الأسى فشوهته الدموع المنهمرة من عينه الباكية ، وكان من العسير قراءة حروفه للرجفة التى أصابت يده .

ولم يكن والد فؤاد مثقفا الثقافة التى تدل عليها هذه الكلمة فى العصر الحاضر ، غير أنه كان رجلا رائع الشخصية ، قوى الرجولة ، يعتد بالقوة فلا يحفل بسواها ، ولم تكن أطماعه الشخصية هى السبب فى سقوطه ، وإنما ترجع هذه الأسباب إلى رغبته الملحة الملتهبة فى الظفرة بمصر ليقف بها فى مصاف البلاد الغربية فى ساحة المدنية .

وكان فى كرم ترحيبه بالغربيين ولينه فى معاملتهم ما أساء إليه أبلغ إساءة ، وهو إلى جانب هذا قد أدخل إلى البلاد لونا من التقدم الاجتماعى لم تكن قد تهيأت بعد لقبوله .

عند ما شيع اسماعيل حتى مقر اليخت فى الإسكندرية ، أعلن اعتزامه الرحيل إلى استانبول ، غير أنه عاد فعدل عن عزمه الأول وقرر أنه سيتجه إلى « أزمير » ليتخذ منها لنفسه مقرا . وقبل أن يغادر اليخت مرساه ، علم اسماعيل أن ملك إيطاليا قد أعد له فى ناپلى مقاما كريما جعله رهن إرادته ، فحدد هـذا النبأ اتجاهه فأقلع به اليخت فى اليوم الأخير من يونية سـنة ١٨٧٩ ميمما شطر إيطاليا وفى رفقته الأمير فؤاد وهو لمـا يزل فى العاشرة من عمره .

و إذ استقر باسماعيل المقام فى أوروبا ، ألفى لديه متسعا من الوقت للتفكير فى أخطائه ، فتمثلت لخياله ؛ فى جو ناپلى المليء بالحـكمة والرزانة ؛ هذه الأخطاء واضحة واستطاع أن يدرك أنه كانت تنقصه التجربة والدراية وهو يضع مشروعاته لترقية مصر .

ذكر زيارته لباريس فى سـنة ١٨٥٥ ، وهو ينفق المال فى غير حساب ، عند ما سافر إليها مع أخيه مصطفى فاستدعى انتباه سكان العاصمة الفرنسية ، وكان يشترى كل ما يروقه مهما يكن ثمنه ، دون أن يعترضه أحد ؛ فأتلفا المال رغبة فى إثارة الانتباه وتوجيه الأنظار إليهما .

اعتزم اسماعيل إذن أن ينأى بابنه فؤاد عن مثل هذا الجو الواهن ، وأن يكفل له لونا من الثقافة يهيئه لحياة قد لا تمنح كامل عطفها لابن حاكم مخلوع ، حاكم ترجع أسباب خلعه إلى عجزه عن القيام بأعبـاء الحـكم و إلى سوء إدارته لشئون ملكه . فأرسل الأمير إلى چنيف ليتلقى مبادىء دراسته فى معهد التوديكوم Tudicum Institute حتى إذا بلغ فؤاد الخامسة عشرة من عمره الحق بالأكاديمية الحربية فى « تورين » ثم واصل دراسته بعد ذلك فى « مدرسة المدفعية العملية والهندسة الحربية » فمنحه الملك عمانويل رتبة الملازم (لفتننت) ، وألحق بالفرقة الثالثة عشرة من مدفعية الميدان ، وكانت إحدى وحدات حامية روما ، وظل فى

خدمة الجيش الإيطالى حتى بلغ العشرين من عمره .

أحب الأمير فؤاد خلال هذه الأعوام ، الروح الإيطالية والثقافة الإيطالية ، وكانت علاقته بالبلاط الإيطالى على أتم ما يكون من الود والصفاء ، وليس من شك فى أن هذه الروح قد بقيت شديدة التأثير عليه طوال حياته .

وفى سنة ١٩٠٠ ، إختار سلطان تركيا ، الأمير فؤادا ملحقاً عسكريا للسفارة العثمانية فى ڤينا ، وقد استطاع الأمير أن يخلق لنفسه مكانا ممتازاً فى البلاط النمسوى المجرى ، ثم ظل فى مركزه عامين حتى كانت وفاة أخيه توفيق وقيام ابن أخيه الخديو الشاب عباس الثانى .

ورأى عباس أن يستعين بخبرة عمه ، فاستدعاه من ڤينا وأبقاه معه فى مصر ، وعينه ياوراً له مع منحه رتبة جنرال .

شهدت مصر إنقلابات خطيرة خلال الأربعة عشر عاما التى بدأت بولاية توفيق وسفر الأمير فؤاد .

وهنا أود أن أنحرف قليلا عن موضوعنا هذا لأذكر استطراداً لما نحن بصدده أننى كنت أقرأ منذ قريب مؤلف كاى وماليسون «تاريخ الثورة الهندية» فذكر لى رجل انجليزى فاضل ، واسع الإطلاع ملم بالشئون الخارجية تعليقا على هذه القراءة رأيه فى هذه العبارة : « لاأستطيع قراءة هذه الكتب الشرقية على الإطلاق ، فهى تصيبنى بالدوار ، إذ هى مجموعة من الشخصيات ضمت إلى بعضها فى غير عناية ، تميل إلى اللف والدوران فى عبث لاخير فيه ، تنتشر فيها الأسماء فوق الصفحات دون مناسبة أو روية ، وإن المرء ليحتاج إلى جهد كبير للخروج منها بنتيجة أو فائدة ، وما يكاد القارئ يطمئن إلى شخصية من شخصياتها يلمس فيها لذة ومتاعا ، حتى يرى نفسه وقد غرق فى لجة من الموضوعات الإنسانية ، فهؤلاء الذين يكتبون فى الموضوعات الشرقية ، لا يستطيعون إختيار شخصية

واحدة يدرسونها فيتعمقون فى دراستها ، بل هم يطلقون لأنفسهم العنان فيدفعون بالقارئ المسكين وسط فيض من الأسماء تتبلبل فيه أفكاره وخواطره » .

هالنى هذا النقد الجارح ، غير أننى أعترف فى نفس الوقت أنه عادل مصيب .

فإن الأسماء لتدب على صفحات تاريخ السرق دبيب النمل فى طريقه إلى مأواه ، وليس تاريخ مصر بالذى يختلف فى كثير أو قليل ، غير أننى سأبذل جهدى لأسلك به غير هذا السبيل فأقصر الأمر على المبرزين النابهين ، وسأجعل وكدى فى تسجيل ماحدث فى مصر فى غيبة الأمير فؤاد ، الإيجاز الذى يمس هذه الحقبة من الزمن فلا تقفه غير الأحداث البارزة الخطيرة ، ومن الواضح أن عنايتى بهذه الفترة ، إنما ترجع إلى رغبتى فى إتمام الصورة ورعاية انسجامها وتسلسلها . وليس دافعى إلى اختيار هذا السبيل هو رغبتى فى قوة الإيضاح والإيجاز وحدها وإنما تقوم إلى جانب ذلك رعايتى لكتابات قنصل انجليزى عظيم سابق ، فليس لهؤلاء الذين يطمعون فى دراسة تلك الفترة من الزمن فى أدق ألوانها وتفاصيلها إلا أن يرجعوا إلى المؤلف العظيم الخالد « مصر الحديثة » الذى وضعه لورد كرومر عن هذا الموضوع الشيق .

أما عند التحدث عن ملكية فؤاد فستدعو الضرورة إلى تكبير الصورة وتفصيل دقائقها ، غير أننى رغم ذلك لن أنسى فى هذا الموقف نقد ذلك الإنجليزى الفاضل ، وسأحاول ما استطعت أن أنجو من التيار .

وإذ بارح اسماعيل ميناء الإسكندرية فوق يخته ، ووضعت الدول الغربية « توفيقا » فوق العرش أخذت تعمل على توطيد مركزه ، وكان الذى يعنى فرنسا وبريطانيا العظمى دون سواه إنما هو النجاح المتصل ، وقد سبقتا الزمن وقدرتا لمثل هذا اليوم قدره ، يوم يدعى الشاب توفيق ليشغل مكان أبيه فاتصلتا بسلطان

تركيا فى شأن الأمير الذى يخلف اسماعيل ، وهو موضوع دقيق يستلزم التحدث فيه قسطاً من الحذر والعناية .

فالوضع الإسلامى الذى يستمد أسسه من أعماق التاريخ القديم ، لا يحتم أن يكون الوارث هو أكبر الأبناء ، وإنما يكون أكبر أفراد الأسرة سنا ، ولايزال هذا التشريع مبعثاً لكثير من الفتن والحروب الداخلية التى تنشب بين الأسرات ، وسبباً فى إراقة الدماء فى كثير من بلاد الشرق التى لا تزال تتقيد به حتى اليوم ، وإن تاريخ الكثير من البيوتات العريقة فى الشرق ليحمل أثراً من آثاره ، ولو رجع القارئ إلى « سفر الملوك » لقرأ فيه أن « ياهو » قتل أبناء « آحاب » السبعين للاستيلاء على العرش .

ولم تشأ الدول أن تتكرر مأساة التوراة ، وكانت ترغب أشد الرغبة فى أن يقرر السلطان إختيار أكبر الأبناء سنا ، فتمت للدول رغبتها وأصدر الباب العالى الفرمان المطلوب ، فكان هو الخطوة الأولى فى سبيل الاستقرار .

ورغم أن توفيقا كان خيرا من أبيه إلى حد بعيد ، إلا أنه لم يكن عظيما ، وكانت ضآلة حظه من الثقافة عقبة وقفت فى سبيله طوال حياته .

فلما إعتلى عرش والده ، أفزعه أن رأى البلاد وقد جردت من أموالها فدفعه هذا إلى المبالغة فى الحرص على إنفاق المال ، حتى لقد تطورت الفضيلة مع المبالغة فأصبحت رذيلة ، وكان هو بالقياس إلى مركزه حريصاً مقتراً فكانت له هيأة سلبية ، ولم يكن فى شخصيته ما يثير السحر أو يبعث على الإحترام ، وكان يؤدى مهام وظيفته فى جد بالغ ، أما إذا دعا الموقف إلى الإضطلاع بالمسئوليات فكان يفلت منها ويلقى بها على أكتاف غيره فى أسلوب يثير الحيرة والارتباك .

لم تكن تنقصه الشجاعة ، غير أنه لم يكن فى مثل عظمة أبيه وجرأته الرائعة .

ومع ذلك فقد وقعت فى هذه الفترة من تاريخ مصر أجل الأحداث خطراً ،

داخل حدود البلاد وفى السودان القريب ، ففيها تمرد الجيش المصرى ، وضربت الإسكندرية ، وقتل الجنرال غوردون فى الخرطوم .

وربما لم تكن هذه الأحداث لتعنينا فى دراستنا هـذه ، ولـكن حادثة واحدة لها علاقة بتمرد الجيش المصرى تبين لنا مدى تفكير الخديو الجديد .

فقد ورث توفيق الاضطراب فى صفوف ضباطه ، فلم تكد تنقضى منذ ولايته الحكم ثمانية عشر شهراً حتى تمرد الجيش ، فعزل وزير الحربية رغبة فى إرضاء الجيش الثائر ، ولـكن الجيش ثار مرة أخرى بعد ستة أشهر منتشياً بلذة هـذا الظفر ، ومندفعاً بما تجمع لديه من ضروب العسف الجديد ، وتهددت الإشاعات — إن عدلا أو تجنيا — حياة الضباط الذين اشتركوا فى العصيان السابق ؛ وتطايرت الإشاعات فى الدوائر العسكرية بأنهم لابد سيلقون حتفهم فى سكون ، والمؤكد أن جواسيس البوليس كانوا يلازمون على الدوام معسكرات الضباط ، وكان توفيق يؤكد فى كل مناسبة أنهم إنما يفعلون ذلك ليقف منهم على سير الحوادث .

ورأى توفيق لأسباب خاصة به ، أن تنقل إحدى الفرق المقيمة بالقاهرة فى ذلك الوقت إلى الاسكندرية ، فاعتقـد أحمد عرابى بك ، المحرك الحقيقى لرجال الجيش ، أن هذا الانتقال تمهيد للقضاء عليه ، فأغرى هذه الفرقة وغيرها من الفرق بالعصيان ، ثم إنه اجتمع فى خمسمائة وألفين من الرجال مزودين بثمانى عشرة قطعة من المدافع وسار بهم إلى ميدان عابدين ، غير أن الخديو لم يكن فى تلك الساعة هناك ، بل كان فى قصر الإسماعيلية الذى يبعد عن عابدين دون نصف الميل .

ولجأ توفيق فى هذا الموقف الحرج ، إلى رجل انجليزى كريم هو «سير أوكلند كولفن» الذى خدم طويلا فى الهند ، أما هو فقد غبلته طبيعته فتنصل

من المسئولية ورفض أن يعالج الموقف وحده وفق ما يمليه عليه رأيه الخاص .

« ماذا أفعل » ذلك هو السؤال الذى وجهه توفيق إلى سير أوكلند ، فذكر له فى رده أنه لا تزال لديه فى القاهرة فرقتان بقيتا على ولائهما له ونصح له أن يحشد رجالهما مع رجال حرسه ، ثم يسير فى طليعتهم حتى ميدان عابدين ، وهناك يقبض على عرابى بك .

فقال توفيق على الفور : « ولكن مدفعيتى وفرسانى مع عرابى ، ومن المحتمل أن يطلق النار » .

فذكر سير أوكلند أنه لا سبيل هناك للاختيار ، فإما أن يخاطر بنفسه أملا فى أن يقهر المعتصبين بشخصيته ، وإما أن تفلت الأمور من يده ، وتشهد مصر قيام خديو جديد .

ولم يكن بين مستشارى الخديو المصريين من يجرؤ على أن يصور له الموقف فى مثل هذا الوضوح أو تلك الصراحة ، وقد كان الموقف مما لا يحتمل جدلا ، بل يتطلب الإغضاء المطلق عن تلك المقدمات التى لا حد لها والتى يفرض العرف الشرقى ، ومقتضيات الاحترام التمهيد بها لكل أمر جدى خطير .

وكان الجيش المتمرد يملأ ساحة القصر ، فلم يدع ذلك مكاناً للمفاضلة بين العلاج الإيجابى والعلاج السلبى .

وأغرى سير أوكلند ، الخديو ، بقبول نصيحته ، فأعدت العربات وركب توفيق وسير أوكلند واتجها نحو ثكنات عابدين أولا حيث أدى الحرس التحية المعتادة ، ومن ثم تابعا المسير حتى القلعة حيث كانت المفاوضات قد بدأت تدور بين المتمردين والقوات المعسكرة هناك ، فخال حضور الخديو السريع المفاجىء دون إضافة قوة جديدة لقوات عرابى بك .

ولما اطمأن توفيق للموقف ، عاد إلى قصر عابدين فدخله من باب جانبى

دون أن تراه الفصائل التى احتلت الميدان ، ولـكنه لم يكد يطمئن إلى جناحه الخاص داخل قصره حتى زايلته بعض شجاعته الضئيلة . غير أن سير أوكلند أصر على أنه ليس هناك سوى منفذ واحد للخلاص من المأزق ، فوافق توفيق ثم خرج ومعه سير أوكلند ترافقهما على مسافة بعيدة فرقة قليلة العدد من الضباط المصريين المخلصين ، وسار فى ثبات وسط الساحة التى احتلها العصاة ، وكان فى وسطها عرابى بك وعدد من الضباط الحانقين .

فهمس توفيق قائلاً : « ماذا أفعل الآن ؟ » .

فأجابه سير أوكلند : « عند ما يتقدم عرابى بك مره أن يسلم سيفه ، ثم در حول الميدان ، وخاطب كل فصيلة على حدة ومرها بالتفرق » .

وكان عرابى ممتطياً صهوة جواده فتقـدم به نحو الخديو ، فأمره توفيق بالترجل فأطاع ، ثم تقدم ماشياً يتبعه عدد من الضباط وحرس هائل قد ثبتوا رماحهم ، ثم أدى التحية للخديو .

وهنا همس سير أوكلند فى حدة : « الآن » .

ولـكن توفيق أجابه : « ولـكننا بين أربعة نيران » .

فرد عليه على الفور : « تشجع » .

ولـكن توفيق التفت ناحية أحد ضباطه المصريين وتحدث إليه فى لهفة ، ويغلب على الظن أن نصيحته كانت سلبية .

ثم عاد فاتجه نحو سير أوكلند وسأله فى اضطراب ظاهر « ماذا أستطيع أن أفعل ؟ نحن محصورون بين أربعة نيران وسنقتل » .

فقال سير أوكلند فى حدة : « إعمل » .

فتشجع توفيق وآن له أن يبدى سلطانه ، فأمر عرابى بك أن يغمد سيفه ، فامتثل للأمر .

كان الموقف موفقاً حتى هذه اللحظة ، ولـكن ثبات توفيق انهار ، فبدلا من أن يصدر أمره فى حزم معلناً عرابى أن يسلم نفسه كما أشير عليه ، تقدم نحوه وقال فى ضعف « ما معنى هذا ؟ » .

أفلتت عندئذ الفرصة وانهار الموقف ، فقد فتح توفيق السبيل مختاراً لفيض خطابى ، إذ اندفع عرابى يقذف العبارات فى لهجة خطابية متدفقة .

فقال الخديو فى ألم لسير أوكلند : « أتسمع ما يقول ؟ » .

فأجابه الضابط الانجليزى بأنه ليس من الملائم أن يعالج الخديو الأمور على هذا النحو مع أمراء الفرق ، وأشار عليـه أن يعود إلى قصره ، فعاد ولـكنه اضطر فى المفاوضات التى أعقبت ذلك إلى أن يذعن لقوات المتمردين .

وكان الضعف الذى بدا به توفيق فى هذا الموقف الدقيق ، هو الأساس الذى بنيت عليه أغلب الصعاب التى صادفها فى حياته .

لقد عجم الجيشُ عود الخديو فألفاه هزيلا ، فخالفه الفوز فى طريقه حتى النهاية .

الفصل الثانى

إسكندرية والسودان

تكاد السجلات الرسمية للحوادث التى سبقت ضرب الإسكندرية تملأ مكتبة ضخمة واسعة ، بل الواقع أنها تملأها .

أخذت قوة عرابى بك فى الازدياد يوماً بعد يوم منذ انتصاره على الخديو ، وكذلك اتسع نفوذ الجيش وعظم سلطانه تحت قيادته حتى أصبح عرابى وزيراً للحربية ، فأنشأ فرقاً جديدة ، ورفع مرتبات جميع الطبقات والرتب ، ورقى مئات من الضباط ، دون رعاية لحالة الخزينة ، وأصبح الأهلون تحت رحمة رجال الجيش يلقون منهم العسف كلما عن لهم ذلك ، فهبطت أثمان الأطيان هبوطاً سريعاً لفقدان الاستقرار والطمأنينة ، فأحست الدول الغربية فيما وصلت إليه البلاد خطراً يتهدد مصالحها الكثيرة الواسعة ، فدرست أمر عزل توفيق ، وتنصيب حليم باشا مكانه ، غير أن شيئاً من هذا لم يتم .

وكان عرابى يعانى خلال ذلك مشكلة الضباط الأتراك فى الجيش المصرى ، فقد كان الضباط الذين رقاهم جميعهم من المصريين ، فأثار هذا سخط العناصر التركية حتى تأهبت للتمرد .

واكتشفت فى ذلك الحين مؤامرة ، أريد بها أن يضع أحد العبيد سم الزرنيخ فى اللبن الذى اعتاد عرابى بك أن يشربه كل ليلة ، فقبض على ثمانية وأربعين شخصاً بينهم وزير الحربية السابق ، واجتمعت فى الحال هيئة المحاكمة

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CAIRO

فأتمت مهمتها مسرعة وقضت بنفى أربعين منهم ، بينهم وزير الحربية السابق ، إلى أقصى حدود السودان القفر الموحش فى ذلك العهد .

وزاد الطين بلة والأمر تعقيداً أن تداخل سلطان تركيا بمذكرة أشار فيها إلى أن خديو مصر واحد من أتباعه ، وأن هذا الوزير الذى نفى هو أحد قواده ، وأنه لم يتوقع أن يعامل ضابط من كبار ضباطه بمثل هذا التعسف ، ثم طلب أن يرفع الأمر إلى إستانبول .

فأثار ذلك عرابى ، فصرح بأنه إذا ألغى الباب العالى أحكام هيئة المحاكمة فسيتجاهل هذا الإلغاء ويهمله ، فإذا أوفد نفراً من الضباط لبحث الموقف ، فسوف لا يسمح لهم بدخول البلاد ، فإن أصروا على تنفيذ مهمتهم منعهم بالقوة .

ورأى الخديو نفسه مضطراً ، إزاء هذه القوات المتعارضة ، أن يتقدم إلى الأمام خطوة ، فخفف أحكام المحكمة ، وكان حظ المنفيين من هذا التخفيف تمهيد العيش لهم فى المنفى إلى الحد الذى يحول بينهم و بين قسوة الحياة وشدتها فى السودان .

هاج ذلك عرابى بك وأسخطه ، فجهر بتهديد الخديو ، وتوعده وأسرته ، فبرز الخلاف بين القصر والوزارة سافراً وعميقاً ، وصرح عرابى علانية بأن توفيقاً ليس إبناً بارا بمصر ، لما يؤدى إليه الأسلوب الذى تبعه من انتقاص إستقلال وطنه ، وليس هناك شك مطلقاً فى أنه كان يعمل على عزل توفيق و إبعاد الأسرة الخديوية .

ورأى السلطان أن مصر تفلت من يده ، وأنها قد تخلع عن نفسها سيطرته فآن أن تتدخل استانبول إزاء هذا الاضطراب تدخلا مسلحا حاسما .

ولكن الدول الغربية لم تكن تود أن تعود مصر لتبعية الباب العالى ؛

فأسقط الاقتراح القائل بخلع الخديو ، وقد أيقنت لندن و باريس أنهما لو تبعتا هذا السبيل فى وقت مبكر لاجتنبتا الكثير من هذا الارتباك والتعقيد .

ورغبة فى معاونة الخديو رؤى أن يلتمس من الباب العالى وقف تدخله ، وأن توجه إلى الإسكندرية قوة بحرية انجليزية فرنسية . فلم يكن وقع هذا العمل الإنجليزى الفرنسى هينا فى الدوائر السياسية فى روما وڤينا وغيرها .

وأدرك الأمير فؤاد أثناء مقامه فى روما وڤينا ، أن بريطانيا وفرنسا تستغلان وطنه لمصالحهما الخاصة .

و بينما كانت التمهيدات تسير فى سبيلها لإرسال الأسطول إلى الإسكندرية كانت الحالة الداخلية فى مصر تزداد سوءا ؛ فاعتزم ممثلا انجلترا وفرنسا إبعاد عرابى وأبرز أعوانه من البلاد ، واتخذت لذلك الأهبة حتى يتم الأمر فى سرعة حاسمة .

ولكن ، ما أسرع انتشار الأخبار فى مصر ، فلم يكد يتم بحث الموضوع حتى عرف فى حى الموسكى وأضفت عليه الإشاعات حواشيها ، وسرعان ما دوت البلاد بأخبار متعددة ، فقيل إن جميع وزراء مصر الوطنيين سينفون ؛ وإن الجيش بأكمله سيحل ، وسيطلب إلى جميع الضباط العسكريين مغادرة البلاد ، ثم تسلم مصر بعد ذلك للقوات الأجنبية .

وإزاء هذا الحال قدم عرابى وأعوانه استقالاتهم ، فسلم الخديو ببعض الشروط ، إذ لم يكن ثمة مجال لمحاولة الاحتفاظ بالكبرياء ، فانتعش الأمل بانفراج الأزمة ، ولكن قيل للخديو ، أنه إذا لم يعد عرابى فإن حياته تصبح فى خطر ، و يضحى مركزه شديد القسوة بالغ الحرج ، فلم يكن الخديو إذن يستطيع أن يخطو خطوة دون أن يستهدف لنقمة الباب العالى ، أو بريطانيا العظمى أو فرنسا ؛ أو مواطنيه .

فكان الجيش متمردا تحت سيطرة عرابى ؛ وقد جمع الحزب العسكرى زمام الحكم فى يده فى القاهرة والإسكندرية والأقاليم .

وأبلغ الخديو مرة أخرى أنه لا بد سيقتل إذا لم يعد عرابى وأعوانه إلى الحكم ، ولكنه تردد ثم أبدى رغبته فى الترويح عن نفسه واستنشاق الهواء ، فألغى حرس القصر قد ضوعف عدده ، وأن لدى الضابط المكلف بالمراقبة تعليمات أصدرها إليه الحزب العسكرى بأن يظل الخديو داخل قصره ؛ فإذا حاول الخروج بالقوة أطلق عليه النار ، فأذعن الخديو وأعيد عرابى لمنصبه . ولم يكن موقف انجلترا وفرنسا من الخديو فى ذلك الحين مما يستدعى شكره لهما ، فقد أشارتا عليه بما تريدانه على القيام به ولكنهما لم تقدما له المعونة المادية الكافية ، ثم وجهتا جهديهما فى سبل أثارت الريبة فى نفس السلطان ، وفى وزارتى الخارجية فى روما وڤينا .

وأغرت بريطانيا وفرنسا الخديو بالتخلص من سيطرة الجيش وشجعتاه على أن يجعل موقفه فى هذا السبيل مجيدا ، ولكن عند ما حلت اللحظة الحاسمة وآن للمعركة أن تنشب ، لم تقدما له سيفا تقوى به يده ، بل قدمتا له قلما .

لقد كان الموقف إذن جليا واضحا ، فإذا لم تعد مصر للاضطراب والفوضى ، وجب أن يوضح السبيل لعرابى بقوة السلاح .

للاشارات والرموز فى حياة الشرق خطر أى خطر ، وقد أحس المصريون فى إعادة عرابى للحكم دليلا قاطعاً على انهيار القوات الغربية ، فبدلا من نفى عرابى وأعوانه طلب إخراج الأوروبيين جميعاً من البلاد ، وعادت أيام عباس ، فأخذ المصريون يسخرون من الإفرنجى إذا تقدم يطلب إليهم رد أمواله التى استدانوها منه ، وحل اليوم الرهيب الذى تغمر فيه الفوضى جميع ألوان الحياة .

وإذ ساد القلق إلى هذا الحد سارع الأوروبيون فهجروا داخلية البلاد ،

وطلب ممثلا بريطانيا فى القاهرة والإسكندرية حماية حياتيهما إذا قدر لهما أن ينجوا حتى تصلهما المعونة .

وأخذ الضباط المصريون يوقعون وثيقة لعزل توفيق ، فتوقفت حركة الأعمال ، وتكهرب الجو . وأخذ الفتيان يسيرون فى مظاهرات فى طرقات الإسكندرية ، وهم يصيحون « أيها الإخوان ، هلموا ، سارعوا فساعدونا على قتل الفرنجة » ، وأخذ الجمهور يبصق فى وجه كل أوربى يمر به .

وفى الحادى عشر من يونية ١٨٨٢ إندلعت الشرارة الأولى ، وهبت الفتنة فى ثلاثة أماكن فى الإسكندرية ، فأريقت دماء خمسين أوربيا ، قتلوا على أشنع الصور وأشدها قسوة ووحشية ، وجرح كثيرون غيرهم جراحا خطيرة ، ونجا آخرون بعد جهد ومشقة .

وقطعت المفاوضات شهرا غادر البلاد فى خلاله ١٤٫٠٠٠ أجنبى ، ووقف ٦٫٠٠٠ آخرون على الموانى يتطلعون فى لهفة نحو الأفق فى انتظار السفن التى تحملهم بعيداً عن أرض الفراعنة الثائرة المضطربة ، واستمرت المذابح وازداد عدد القتلى من الأجانب دون أن يحرك ذلك الأسطولَ الإنجليزى الذى كان راسياً على مقربة من الإسكندرية ، إذ سدت عنا كب السياسة وأتربتها فوهات مدافعه فعطلتها عن الإنطلاق .

وعرف أن الحزب العسكرى أو الوطنى كما أطلق عليه فى ذلك الحين ، يشيد عدداً من الطوابى على شاطئ الإسكندرية ليغرق أسطولا بدا أشبه ما يكون بقطع الزينة ، وبلغ النبأ الخديو ، فأمر أن يوقف العمل فنفذ الأمر ووقف البناء ، ولكن فى ساعات النهار المضئ ، أما فى الليل حيث ينتشر الظلام فكان العمل يستعيد سيره وتقدمه .

فمال صبر الإنجليز ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، ففى الساعة السابعة من

صباح ١١ يونية سنة ١٨٨٢ ، أطلقت كل من البارجتين إنفنسبيل Invincible وألكساندرا Alexandra قنبلة على الطوابى وقعتا فى نقطة قريبة من المستشفى ولما كانت هناك طواب أخرى فقد صدرت الأوامر للأسطول بمواصلة الضرب حتى يتم تدميرها نهائياً ، ولكن طوابى الشاطئ المصرى أجابت بإطلاق مدافعها ، غير أن هذه المدافع أخرست مع المساء ، وتقهقرت الحامية ثم ولت مدبرة بعد أن أضرمت النيران فى المدينة التى أعملت فيها يد النهب والتدمير ، وقد قتل فى هذه الفتنة أوروبيون آخرون .

ونزل البحارة الإنجليز إلى الأرض ، واستطاعت انجلترا أخيرا أن تدعى لنفسها مكانا فى المسألة المصرية .

وأثارت حوادث مصر ، الرأى العام البريطانى إلى حد بعيد ، وصرح مستر جلادستون فى مجلس العموم :

« إذا نحن لم نبذل أقصى جهودنا لتهدئة الحالة الداخلية الراهنة فى مصر ، واستبدال الإضطراب والفوضى بالسلام والإستقرار ، شعرنا بأننا لم نؤد واجبنا على وجهه الأكمل .... سنعنى باشتراك الدول .... فإذا أهملت الفرص فلم تستغل فى بذل الجهود مشتركة ، أخذت انجلترا هذه المهمة على عاتقها وحدها » و بينما كان مستر جلادستون يلقى هذا التصريح ، تقهقر عرابى بضعة أميال بعيداً عن الإسكندرية ، ثم أصدر بياناً أعلن فيه « أن حرباً دامية قد استعرت بين مصر وانجلترا » وسادت الفوضى فى الأقاليم ، وانتهبت عدة مدن ، وقتل عدد آخر من الأوروبين ، فأصدرت الحكومة البريطانية أوامرها ، فوفد على مصر من قبرص ومالطا ١٥,٠٠٠ من الرجال ، وخمسة آلاف آخرون من الهند ، وأقامت على رأس هذه القوات « لورد ولزلى » (Lord Wolseley) « ليؤيد سلطان الخديو »

ومن اليسير أن يصور الموقف فى عبارة أخرى فيقال إن انجلترا يئست من كثرة الجدل الذى تستدعيه المفاوضات مع الدول الأخرى ، وأملّها عبثه ، فانفردت بالعمل وسحقت الثوار .

أما فرنسا فرأت أن تؤدى بريطانيا ثمن رعايتها لمصالحها ، وأعلنت أنها لن تساهم فى أى تعاون عسكرى ما لم يكن لرد إعتداء مباشر ، فلم يبق ثمة مكان لاعتماد القوات البريطانية على مساعدة فرنسا ، واتخذت النمسا لنفسها مثل هذا الموقف .

ورفضت إيطاليا كذلك مساعدة القوات البريطانية ، وقد كانت تحترق غيرة مما يقع فى مصر ، وقد تبدو رغبة إيطاليا فى اعتزال الموقف فى مصر غريبة . وتلك أطماعها فى بسط نفوذها فى حوض البحر الأبيض المتوسط قوية لا تخفى ، عريضة لاتحد ، ولكن الواقع أنها لم تكن متأهبة من الناحيتين البحرية أو العسكرية إلى الحد الذى يمكنها من الإشتراك فى مشاحنات قد تطول . وكان عليها أن تصبر ثلاثين عاما فى انتظار فرصتها . عند ما يحين الوقت الذى تستطيع فيه الوقوف فى وجه فرنسا و بريطانيا العظمى .

أما الباب العالى فقد رغب فى أن يذكر بريطانيا العظمى بأن الجنود البريطانيين إنما ينزلون إلى أرض هى من أملاك تركيا ، فاقترح عزل توفيق وتولية حليم باشا مكانه ، وزعم أن تنفيذ هذا الإقتراح والإحتجاج ، قد يؤديان إلى منع إراقة الدماء ، ولكن الموقف كان قد تطور تطورا كبيرا ، فرفض مستر جلادستون ومجلس وزرائه الأخذ بهذا الإقتراح ، ولكنه رغبة فى الإحتفاظ بمعونة تركيا ، عرض على السلطان أن يبعث جنوده للمعاونة على تهدئة الحالة فى البلاد ، على أن يصدر بيانا يعد فيه عرابى متمردا .

واتخذت التدابير الضرورية لإيفاد خمسة آلاف جندى إلى مصر ، ولكن

السلطان لم يصدر البيان المطلوب ، ولم يوافق على الإتفاق العسكرى الذى يوضح الوضع الذى يؤدى الجنود جميعاً واجبهم وفقه وعلى مقتضاه .

وطالت المفاوضات حول هاتين النقطتين إلى حد دفع اللورد دوفرين إلى أن يذكر للسلطان أنه لن يسمح للجنود الأتراك بالنزول إلى البر إذا لم يصدر البيان ويوقع الإتفاق ، وصدرت الأوامر لأميرال الأسطول الإنجليزى الراسى فى الإسكندرية ، أن يواجه أية سفن حربية تركية تظهر على وجه الماء وأن يبلغ ربابنتها « فى أرق أسلوب » إن ظهور الجنود العثمانيين قريباً من الساحل المصرى لا بد أن يكون نتيجة خطأ غير مقصود ، أو على الأقل فى غير أوانه ، وكذلك كانت التعليمات التى صدرت إليه تقضى بأن يطلب إلى سفن النقل التركية ، «فى أرق أسلوب» كذلك أن تواصل سيرها حتى كريت «أو أى مكان آخر» وانتظار ما يصدره إليها أربابها من التعليمات الجديدة .

ولو دعت الضرورة إلى تنفيذ هذه الخطة ، لمثلث البحرية البريطانية فصلا طريفا حقا ، وقد حرم التاريخ كبار الفنانين منظراً رائعاً كان فى مقدورهم أن يصوروا فيه الأميرال البريطانى وهو يطلب إلى الأسطول التركى « فى أرق أسلوب » أن يتابع سيره إلى كريت « أو أى مكان آخر » إذ بينما المفاوضات سائرة فى طريقها كانت معركة التل الكبير قد انتهت ولم تعد الحاجة تتطلب معونة تركيا .

ووصل لورد ولزلى إلى الإسكندرية فى الثامن عشر من أغسطس ١٨٨٢ ، فاعتزم أن يتقدم إلى القاهرة عن طريق الإسماعيلية ، مخترقا قناة السويس ، ذلك الممر المائى العظيم ، الذى يجب أن يهدى السفن فيه رجالٌ إنقطعوا لهذا العمل فأتقنوه .

فاخترق لورد ولزلى القناة وسيطر عليها ، ولم يعر إحتجاجات المسيو داسپس

التفاتا ، فإذا كان الثالث عشر من سبتمبر التقى بجنود الثوار المصريين عند التل الكبير ، وكان عرابى فى الميدان ، غير أنه لم يحاول أن يقود ثواره ، كما فعل دوق بلازا توتو Duke of Plazatoto ، وانتهت المعركة بهزيمة الثوار هزيمة مطلقة ، فسلم عرابى وأعوانه بعد نهايتها مباشرة .

وقاد الماجور واتسن Major Watson من سلاح المهندسين الملكيين فرقتين من حرس الدراجون الرابع ، وقوة صغيرة من المشاة الراكبين ، واتجه نحو القاهرة ، وسرعان ما سقطت العاصمة دون إطلاق رصاصة واحدة فى أيدى هذه القوة الضئيلة من الفاتحين .

وشهد فؤاد وهو فى روما إحتلال الانجليز لوادى النيل ، كما شاهد التغييرات السريعة التى تمت .

كثيرا ما وجه اللوم لانجلترا لأنها لم تعلن الحماية على مصر فى ١٨٨٢ أو فى تلك المناسبات العديدة التى مرت بها بعد ذلك العام ، ولسوء الحظ أو لحسنه ، أعلنت بريطانيا ، أنها إنما دخلت مصر لصالح البلاد نفسها ، وأن جنودها ستجلو فى الوقت الذى تزول فيه الفوضى ، وتعود فيه الطمأنينة والإستقرار ، تلك هى الروح التى صحبت الإحتلال البريطانى .

وفى هذا الوقت ، كانت فى السودان شخصية أخرى فى مثل ضعف توفيق ، تحاول أن تحكم إقليما تعادل مساحته ضعف مساحة فرنسا وألمانيا ، فكان نفوذ صاحب هذه الشخصية سائدا على المساحة التى تحدها شمالا وادى حلفا وتمتد جنوبا حوالى الثلثمائة ميل حتى خط الإستواء ، أما من الشرق فتحدها مصوع ، ومن الغرب إقليم دارفور ، وهى مسافة تقرب من ثلاثمائة ميل كذلك .

وكان الخراب ينتشر مسرعا فى هذه البقاع الواسعة ، فكان الرى مهملا فاستحالت مساحات واسعة من الأرض الزراعية إلى صحارى ، ووقع الأهلون

تحت أيدى جباة الضرائب الغلاظ الأكباد ، وتغلغل تجار الرقيق الأعراب فى البلاد يحرقون ، ويقتلون ، وينهبون ، ثم يحملون بعد ذلك بضاعتهم من الآدميين المساكين .

ومن الحقائق الثابتة عند بعض المتكلمين بالعربية ، أن « المهدى » سيظهر يوما ما ، وعند ذلك يهبط عيسى « يسوع » من السماء فينضم إليه ، ثم يتحول العالم أجمع إلى الدين الإسلامى .

وكان السودان مزرعة خصبة للمهديين ، وقد حدث أن ادعى أحدهم المهدية فى عهد اسماعيل ونازعه ، ولكنه قتل هو وأتباعه ، وفى السنة السابقة للاحتلال البريطانى ، ادعى رجل اسمه محمد أحمد أنه المهدى ، ونادى بنفسه مهديا فى السودان ، وكان ابنا لأبوين فقيرين ، عدل بنفسه عن مطالب الرزق ومشاغل الحياة ، وعكف بكل جهوده على دراسة الدين فى الخرطوم ، فلما نجحت طريقته وتزعم السنين ، أعلن عزمه على إخضاع السودان أولا ثم يعقب بعد ذلك بمصر ، ومن ثم يوجه جهوده إلى جميع بقاع العالم ، وقد تقاطر السودانيون للانضواء تحت لوائه مدفوعين بكراهيتهم لكل ما هو مصرى ، فلما زحف الانجليز على القاهرة كانت الثورة قد اشتعلت فى أعالى النيل . والتحم السودانيون مع الجنود المصريين الذين وجهوا لتأديبهم مرة أو مرتين ، وكان النصر فى جانبهم فى المرتين . ولا سبيل إلى لوم الجنود المصريين على ما أصابهم من الهزيمة ، فلم تكن ميولهم نحو توفيق بالتى تشجعهم فى مهمتهم وهو الذى لم يف لهم بأجورهم ، وكان زعيمهم المرموق هو عرابى الذى دفع مرتباتهم وإن لم يكن لديه ما يمكنه من الوفاء لهم بكامل أطماعهم ، وكانت تنقصهم الخبرة والمران فى إصابة الهدف بالبنادق ، فكان متوسط النسبة طلقا واحدا من كل عشرين طلقا ، أما جهلهم بالحركات

العسكرية فكان مطلقا ، فلم يكن الجيش بأكمله ليستطيع أن يميز بين يمينه وشماله .

لذلك أوفدت إلى السودان فى عام ١٨٨٣ وهو العام التالى للاحتلال البريطانى بعثة عسكرية من الضباط البريطانيين كان بينهم الجنرال هكس General Hicks ، لتقوية الجيش المصرى ، غير أن الجنرال رفع فى نهاية السنة نفسها تقريرا ذكر فيه أن المرتبات لم تصرف لرجال الجيش لخلو خزينة الدولة من المال ، وأن هذا زعزع إخلاص الجنود والضباط جميعا فضلا عن أن الجيش لم يكن أداة صالحة للقتال لفقره إلى الخبرة والنظام .

وكان المهدى خلال ذلك يسير قدُما يحالفه النجاح فى تنفيذ خططه ، حتى عمت الثورة التى يتزعمها بقاعا واسعة كبيرة من السودان ، وظل الجنرال هكس يكرر الالتماس إلى الخديو توفيق فى القاهرة أن يزيد القوة التى تحت إمرته ، ولكن دون جدوى ، فلم يكن فى مقدور الخديو إجابة هذا الالتماس والعمل على تهيئة القوة الكافية لقمع هذه الثورة ، وظلت الحال تزداد سوءا حتى تقلص سلطان مصر فى السودان نهائيا ، ولما كانت الحكومة البريطانية ترغب أشد الرغبة فى ألا تزج بنفسها فى نزاع حربى مع السودان فقد وقفت بنفسها بعيدا فلم تقترب . ورغم ضعف القوة التى يرأسها الجنرال هكس ، فقد أمرته الحكومة المصرية أن يسير إليه ليواجهه فى إقليمه كردفان فيضع حدا لأمره ، فسير الجنرال فى الثامن من سبتمبر ١٨٨٣ حملته التى انتهت بفجيعة ، فقد كان الإقليم المفروض عليه اجتيازه مجهولا غاية الجهل ، ولم يكن معروفا عنه إلا أنه أشد أصقاع السودان جفافا ، ولقد أضله الأدلاء فى جوف الغابة الواقعة إلى جنوب الأبيض ، فأعيا الظمأ رجال الحملة حتى كاد يذهب بعقولهم ، والمحزن أنه قدر لهم أن يواجهوا وهم على هذا الحال هجوم جموع الدراويش المفاجئ ، وحسبك أن تعرف أن الحملة

أبيدت عن آخرها . وقد قاد الجنرال هكس رجاله الذين أضناهم الظمأ فبذلوا آخر أنفاسهم ، ثم قضى بينهم وهو يحارب .

ولعل من سخرية القضاء أنه كانت تقع على بعد ميل من موقع هذه المعركة ، بركة واسعة لم يعلم الجنود مكانها أو وجودها ، فلما فاجأ الدراويش رجال الحملة المصرية ، كانت قد انقضت عليهم مدة تزيد على الأربعة أيام منذ نفد ماؤهم ، وقضى منهم المئات عطشا .

وظلت الحال تزداد سوءا فى السودان ، فمنى المصريون بهزيمة منكرة فى « تمانيب » وسقطت « داره » ، كما وقع إقليم دارفور بأكمله فى قبضة المهدى ، ثم وقعت مأساة أخرى فى « التب » وأبيدت حامية « سنكات » .

فرأى الخديو أن يترك السودان للأقدار ، طالما أنه لا يستطيع السيطرة عليه ، فأقرت الحكومة البريطانية هذا الرأى ، وكان ذلك فى صدر سنة ١٨٨٤ وقد اعتزمت حكومة انجلترا أن توفد الجنرال غوردون إلى السودان ليوافيها بتقرير عن المركز الحربى هناك ، فعادت وعدلت وجهتها قبل أن يبرح غوردون وطنه ، وطلبت إليه أن يتولى مهمة إخلاء السودان ، فغادر هذا العلم النابه بلاده فى مهمة شديدة الخطورة .

وبينما كان رأى الحكومة البريطانية ، كما يذكر لورد كرومر ، إجتناب ما قد يجرها إلى الدخول فى أعمال حربية فى السودان ، يكلف قائد بريطانى نابه بالسفر إلى الخرطوم التى قيل منذ شهور أن جميع ألوان المعونة قد قطعت عنها ، وأنه من غير الممكن المحافظة عليها إذا هاجمتها قوات المهدى .

ودخل الجنرال غوردون السودان مؤمناً أنه يستطيع الفراغ من مهمة إخلاء هذا القطر فى شهرين أو ثلاثة شهور ، ولكننا نعرف أنه ذهب ليلقى حتفه ، أما هو فكان متفائلا ؛ حتى ذكر عن الخرطوم عقب وصوله إليها بيومين أنها

أشبه فى سلامتها بحديقة كنسنجتون ، Kensington Park ؛ وقد حمل معه منشورين يعلن أحدهما أن الحكومة المصرية قررت أن تسحب جنودها من السودان ، ويحمل الثانى نبأ تعيين الجنرال غوردون حاكما عاما ، وكان المظنون أن يعلن المنشور الأول للملأ عند ما تتقدم أعمال الإخلاء ، ولكن غوردون اعتقد أنه يستطيع أن يهيئ جوا أكثر صلاحية لانسحاب الجنود من البلاد إذا وثق الشعب من استقلاله ؛ فتبع رأى نفسه ، ومهما يكن نصيب هذا الرأى من الخطأ أو الصواب ، فإن إعتزام الحكومة المصرية الانسحاب من السودان كان معروفاً قبل أن يصل غوردون إلى الخرطوم فى الثامن عشر من نوفمبر سنة ١٨٨٤ .

وكانت نواياه أن يسلم البلاد إلى السلاطين المحليين ؛ ولكنه سرعان ما أدرك أنه ليس هناك من يستطيع أن يوكل إليه أمر الحكم ، فاعتزم أن يهيئ رجلا نابهاً ليخلق منه خصما للمهدى ؛ ثم استمسك بهذا الأمل فى إصرار حتى النهاية ، فإنه لم يكد يدخل السودان حتى تبدلت أعز أمانيه ، فلم يعد يرغب فى إخلاء البلاد ؛ وإنما بات يتمنى سحق المهدى ، رغم أنه أبلغ فى وضوح « أن يكون مفهوماً غاية الفهم ألا تبقى الجنود المصرية فى السودان رغبة فى توطيد دعائم الحكم الجديد » .

ولكنه أمر مرة ثانية بإخلاء السودان ، وكانت الحاميات المختلفة مبعثرة فى غير موضع واحد ؛ فكان حتما أن يترك بعضها حتى تجد لنفسها سبيل الخروج ؛ ولكن الجنرال غوروون أصدر أوامره محتما إخراج كل جندى فى البلاد مهما يكن لون الخطر الذى يحيط مركزه ، وربما كان مصيباً إلى أبعد مدى فى التزام هذه الرغبة ؛ وقد كتب فى التاسع عشر من نوفمبر سنة ١٨٨٤ يقول : « لن أبرح السودان حتى يستطيع أن يرحل كل من يرغب فى الانحدار

مع النيل .... فإن وفد إلىّ رسـول أو خطاب يكلفنى بالرحيل فان أذعن له ؛ وسأبقى فى مكانى حتى أسقط مع المدينـة مهما يكن فى ذلك من خطر » . ثم كتب فى أول اكتوبر يقول : « أعتقد أننى مضطر إلى إنقاذ الحاميات مهما يكن الثمن » .

وحدث قبل ذلك بزمن طويل ، أى فى السادس والعشرين من مايو أن سقطت بربر فى أيدى الدراويش ، فاستحال بذلك الارتداد عن الخرطوم عن طريق الأرض ، وبات مجرى النيل هو الوسيلة الوحيدة للمواصلات .

وقد أعقب انقطاع سـبل المواصلات بالجنرال غوردون عدةُ شهور من التردد المحزن ، فلم ينته العزم الى إيفاد المدد إلا فى آخر أغسطس ، وقد بذلت خلال ذلك محاولات ناجحة عديدة للاتصال بغوردون بوساطة الرسل ، فحملوا إليه تأكيدات الحـكومة البريطانيـة بأنها لا تستطيع أن تؤيد أية إجراءات عدائية ، كما طلب إليه أن يحاول الخلاص بنفسه وبمن تبعه من المصريين من الخرطوم ، وأن يسلك لذلك السبيل التى يراها موصلة للغرض ، ثم أبلغ فى الثامن عشر من أغسطس ، عند ما أعيدت المواصلات التلغرافيـة أن الحـكومة قد أعدت ما يكفل خلاصه ، غير أنه ذكر فى رسالة وردت منه بعد ذلك بعشرة أيام ، مؤرخة فى الثالث عشر من يوليو ؛ أن الأمور تسير على أحسن حال ، وأنه يستطيع أن يثبت فى مركزه أربعة أشهر .

وقد سئل غوردون فى كثير من الرسائل التى أرسلت إليه ، عن علة بقائه فى الخرطوم . ولـكنه لم يجب على هـذا السؤال ، حتى وصلت منه إلى القاهرة رسالة مؤرخة فى الحادى والثلاثين من يوليه يقول فيها : « تسألوننى أن أوضح علة بقائى فى الخرطوم ، وما أرمى إليه مع ثقتى برغبـة الحـكومة فى إخلاء

السودان ، وجواباً على ذلك أقول إننى أبقى فى الخرطوم ، لأن العرب قد احتجزونا ، وأنهم لن يسمحوا لنا بالخروج » .

ثم عاد غوردون فشكا فى برقية تالية موجهة إلى الخديو ، من أن الحكومة البريطانية لا توضح نواياها فى رسائلها ، وتكتفى بطلب بيانات ، فتضيع بذلك الوقت عبثاً . ثم قال : « من المستحيل ترك الخرطوم دون أن تقوم إحدى الجهات بتكوين حكومة منظمة فيها » .

وفى أوائل ابريل ألح لورد كرومر ، وكان فى القاهرة فى ذلك الوقت ، على الحكومة البريطانية ، أن تجهز حملة تسيرها لإنقاذ غوردون ، فأيده فى ذلك لورد ولزلى ، ودرس أمر تكوين القوة التى تستطيع إدراك هذا الغرض ، ولكن شهوراً كثيرة تصرمت دون أن يخطو الموضوع خطوة حاسمة .

وقد يقال إنصافاً للحكومة البريطانية ، أن الجنرال غوردون لم يأبه كثيراً للأوامر التى أبلغت إليه ، وأن كل ما عرف عن سير الأمور فى السودان لم يعد حد الإشاعات ؛ فلقد سقطت بربر مثلا فى أيدى الدراويش فى السادس والعشرين من مايو ، ولم يصل خبر هذا الحادث إلى القاهرة فى صفة قاطعة قبل السابع والعشرين من يونيو .

ولما أجاز البرلمان البريطانى مرسوماً باعتماد ٨٠٠ر٠٠٠ جنيه لحملة الإنقاذ ، لم تكن الحكومة البريطانية مقتنعة كل الاقتناع بالضرورة التى تدعو إلى إنفاق هذا المبلغ .

ثم أعلن التصريح التالى بعد ذلك : « لا تثق حكومة حضرة صاحبة الجلالة الملكة الآن ، بأنه من المستحيل على الجنرال غوردون إذا اتبع ما أرسل إليه من التعليمات ؛ أن يقوم بالانسحاب من الخرطوم ، سواء بالطرق السلمية ؛ أو عن طريق القوة باستخدام الحاميات المصرية ومن رغب فى الخروج من الأهلين » .

ومهما يكن من شيء ، فقد عين لورد ولزلى رسميا فى السادس والعشرين من أغسطس قائداً لحملة الإنقاذ ؛ فأعد ترتيباته التى عرقلها البيان الذى أذيع فى السابع عشر من سبتمبر وجاء فيه : « تود الحكومة أن تذكركم أنها لم تصل إلى قرار يؤدى إلى إرسال أى جانب من القوة التى تحت إمرتكم إلى أبعد من دنقلة ؛ وأنتم تدركون إلى أى مدى هى تتحاشى مسئولية أية حملة حربية لا تدعو إليها الضرورة المطلقة » .

ولكن لورد ولزلى لم يبلغ أن الغرض الأول للسير بحملته مصعداً فى وادى النيل إنما هو إعادة الجنرال غوردون ، إلا بعد انقطاع المواصلات عن غوردون بخمسة أشهر ، وحينذاك قيل له فى تأكيد قاطع ألّا يزج بنفسه فى أى عمل مثير مهما يكن لونه ؛ غير أنه أوعز إليه أن التقدم نحو الخرطوم ليس ممنوعاً على وجه الإطلاق حتى إذا دعت إليه اعتبارات حربية يتطلبها ارتداد غوردون عن المدينة ، غير أن الحكومة تود إلى أبعد حد تضييق نطاق الأعمال الحربية .

وكان الكولونيل ستيوارت هو الياور الأول للجنرال غوردون ، وقد رحل هذا الضابط الباسل عن الخرطوم على إحدى البواخر فى العاشر من سبتمبر فى فرقة يزيد عددها على الأربعين رجلا ، ليصف للساطات المسئولة حقيقة الموقف فى السودان ؛ فسارت السفينة فى سلام حتى بربر ، ولم يكد الكولونيل ستيوارت يبدى اغتباطه من أن أسوأ جزء من الرحلة قد انتهى حتى ارتطمت المركب فى صخرة أقعدتها عن المسير ، فاضطر ورجاله إلى الخروج إلى البر فقتل فى « المحلة » التى آوى إليها .

وفى ذلك الوقت كان الجنرال ولزلى يبذل غاية جهده ليثير العزيمة فى نفوس رجال القوة الذين تحت إمرته ؛ ولكن ، كان حتما عليه أن يجتاز بقاعاً صحراوية شاسعة ، كان الماء فيها عزيزاً غالياً إن لم يكن نادراً معدوماً ؛ أما هو فقد أعياه

الجهد حتى لم يعد يقو على السير فى طليعة رجاله وإصدار الأوامر لهم بالمسير ، وجاءت الأخبار من الخرطوم منبئة بأنها توشك أن تقع فريسة المجاعة ، فاستقر الرأى على تقسيم جنود لورد ولزلى إلى شطرين ، أحدهما يتبع النيل فى سيره ، ويتقدم الثانى عن طريق الصحراء .

وفى اليوم السابق لختام عام ١٨٨٤ وصلت من غوردون رسالة كتبها بخط يده وجاء فيها : « . . . القوت الذى لا يزال لدينا ضئيل ، لا يعد و بعض القمح والبسكويت . . . نرجو أن تصلوا سريعا » . أما القوة التى اتخذت طريق الصحراء بقيادة سير هربرت ستيوارت فقد بدأت سيرها فى ذلك اليوم بذاته ، وفى السادس عشر من يناير عسكرت على مسافة تقل عن الأربعة أميال من عيون « أبو كليا » التى كانت تحتلها قوات الدراويش ، وفى صباح اليوم التالى بعد هذ الاستجمام القصير تقدم الجنود إلى الساحة العتيقة حيث دارت معركة دموية عنيفة ، اشتبك فيها الجنود والضباط مع الدراويش فى قتال عدته السلاح الأبيض انتهى بهزيمة الدراويش الذين خلفوا وراءهم وسط الساحة ما يزيد على مائة وألف قتيل ، أما فرقة الجنود التى كانت مكونة من ستمائة وألف رجل فقد أصيب من رجالها مائة وسبعون بين قتيل وجريح .

واستأنف رجال سير هربرت المسير بعد أن ضمدوا جروحهم ، حتى إذا كانت أمسية اليوم الثامن عشر تراءى لهم النيل ، فلما اقتربوا من شاطئيه وكانا مغمورين بالدراويش التحم الفريقان فى معركة قتل فيها سير هربرت ستيوارت ، وفى صباح العشرين وصلت القوة إلى « جبيت » حيث كانت فى انتظارها أربع سفن بعث بها غوردون من الخرطوم ، فاتخذت الإجراءات فى الحال لإرسال جانب من القوة فى باخرتين ، غير أن الرحلة لم تبدأ قبل الرابع والعشرين وقد حملت الباخرتان الجنود البريطانيين والسودانيين ، وفى الخامس والعشرين ارتطمت إحدى الباخرتين بصخرة فتعطلت الرحلة أربعا وعشرين ساعة ، وقد

كانت الباخرتان هدفا لطلقات الرصاص المتواصل من جانبي النهر ، حتى إذا كان بعد ظهر السابع والعشرين سمع الجنود بوادر الإشاعات عن سقوط الخرطوم ، وقد جأر أحد الرجال على الشاطئ في سخرية بأن الجنود البريطانيين كانوا قليلين ، وأن الجنرال البريطاني قد قتل ، ولكن الجنود لم يصدقوا هذه الرواية ، واستمرت الباخرتان في طريقهما على أمل الوصول إلى الخرطوم في مساء الثامن والعشرين ، وأخيرا هيئت المناظير واستطاع النظارة أن يبصروا دار الحكومة ، دون أن يبدو للعلم المصري أثر ، وعند ما اقتربت السفينتان بدا لرجال القوة أن الدراويش قد احتلوا دار الحكومة وأن المباني المجاورة لها مخربة .

لقد تأخر المنقذون ، فقضى علم بريطاني نابه .

كان الرصاص يتساقط في الخرطوم ، وهؤلاء المدافعون يأكلون الكلاب والحمير وجلودها التي يسلخونها ، ومات الكثيرون جوعا ، وكان الآخرون أضعف من أن يقووا على دفن الجثث ، ولم يعد الناس يصدقون غوردون وهو يقول لهم أن الانجليز قادمون ، فبيضت الهمومُ شعره .

ولما عرف الدراويش أن السفينتين قادمتان ضاعفوا قوتهم ، ثم قاموا بهجوم عام انقضوا فيه على حامية المدينة التي ضعفت وزايلتها شجاعتها بينما كانت قوة الانقاذ تصلح العطب الذي أصاب إحدى السفينتين عند ارتطامها بالصخرة .

ووصل الدراويش إلى دار الحكومة ، فوقف الجنرال غوردون متشحا ببذلته البيضاء أمام مكتبه وازدرى أن يستخدم سيفه أو مسدسه ، بل لزم مكانه في هدوء و بسالة ، فاندفع الدراويش نحوه ورشقوه بالحراب ، وكان اسم قاتله الشيخ محمد النبوى ، ولقد لقي حتفه بعد ذلك في موقعة أم درمان .

فإذا كان هدف حملة النيل إنقاذ الضابط الباسل ، فإنها تكون قد تأخرت كثيراً .

الفصل الثالث

عودة الأمير فؤاد إلى مصر

روعت العالم النهاية المحزنة لحياة الجنرال غوردون ، والمخاطرات التى تعرضت لها حملة النيل ، غير أنها لم تكن فى الواقع سوى قصة فى تاريخ مصر والسودان الطويل ، على أنه كان لها فى النهاية أعمق الأثر .

وعند ما سقطت الخرطوم اعتزمت الحكومة البريطانية أن توجه إلى المهدى ضربة قاضية ، ولكنها عدلت فى النهاية عن هذا الرأى إذ أدركت أنه مخاطرة فى بلاد نائية ، لا يدرى أحد ما ذا يكون ختامها ، ثم عادت إلى مشروعها الأول الذى يقضى بالإخلاء ، وإن يكن الواقع أن هذا الإخلاء لم يتم عمليا ، فقد كان مجموع الحاميات المصرية ٥٥٫٠٠٠ رجل ، قتل منهم حوالى ١٢٫٠٠٠ وتخلف فى السودان ٣٠٫٠٠٠ ظلوا فى هذا المركز المحزن ، أما الذين عادوا من الجنود فكانوا أقل من ١١٫٠٠٠ جندى ، وقد ترك إلى جانب من تخلفوا حوالى خمسة آلاف من المدنيين المصريين بينهم نساء وأطفال .

ولو أن الإخلاء كان هدفا للسياسة البريطانية ، لما كانت هذه القصة مما يشرف التاريخ الإنجليزى .

وفى ٢٢ يونية سنة ١٨٨٥ أدى المهدى للدعوى البريطانية المصرية أجل الخدمات بوفاته فجأة ، فأوهن موتُه أتباعه ولم يكن لعبد الله التعايشى الذى ولى مركزه وأعلن نفسه خليفة ، مثل مقدرته ومكانته ، فقد أعلن أنه سيتولى تنفيذ رغبة المهدى الأساسية فيغزو مصر ، ولكنه واجه فى ديسمبر من السنة نفسها

قوة مشتركة من الإنجليز والمصريين فلقى أمامهم هزيمة منكرة ، فانزاحت جانبا فكرة غزو الدراويش لمصر .

زال سلطان مصر فى السودان نهائيا ، ولم تكن الحكومة البريطانية تتداخل إلى الحد الذى يضع البلاد تحت نفوذها ، وأدرك الأمير فؤاد وهو فى مقامه فى إيطاليا أن جانبا واسعا من أملاك أخيه يوضع فى يد الأقدار .

وغمرت البربرية الأصقاع المتطرفة ، أما الأماكن القريبة من السواحل فقد استولت عليها فى شراهة الدول الأوربية التى كان لها سبق الوصول ، ثم بدأ التهافت على إفريقيا على نحو إصطبغ بأشنع ما اصطبغ به الاندفاع نحو « كلونديك Klondyke » من مظاهر الجشع ، فالتهم الإيطاليون مثلا كسلا فى السودان الشرقى ، وفاتت الفرصة التى يمكن فيها إخلاؤها لتصير قطعة من السودان الإنجليزى المصرى ، وتم التنازل ليوحنا ملك الحبشة عن إقليم بوجوس الذى طالما اشتهاه لقاء ما يبذله من المعونة فى جلاء الحاميات المصرية المتاخمة لحدوده ، وطمعت الحكومة البريطانية فى « بربرا » على الساحل الصومالى فرفعت العلم الإنجليزى عليها « Union Jack » وهى منفذ من أهم المنافذ إلى البحر طالما رمقتها دول كثيرة بعيون شرهة ، ولكن السفن الحربية البريطانية كانت السابقة إليها ، وأذعنت هرر لعبد الله ، غير أن الأمير الجديد لم يستطع أن يحتفظ بها ، فقد هاجمه بعد حين قصير الملك الجليل أو غير الجليل منليك فاستردها منه ، وكذلك كانت زيلع موضع أطماع الكثيرين ، فأبلغت انجلترا الباب العالى الذى كانت زيلع ضمن ممتلكاته إسميا ، إن الضرورة تدعو إلى إيفاد قوة من الجند للمحافظة على النظام فيها ، غير أن الباب العالى كعادته لم يأبه للأمر ، فباتت زيلع بريطانية .

ولما كان الإيطاليون قد فرضوا أنفسهم منذ أعوام سابقة على خليج عصب ، ورغبوا اليوم ألاّ يكون الغنم لغيرهم دونهم ، فقد اندفعوا فى حدة إلى مصوع ، وهنا ثار سخط الباب العالى ، فأرسل وابلا من الاحتجاجات إلى وزارات الخارجية

الأوربية جميعها غير أن الدول العظمى كانت منهمكة فى تثبيت ممتلكاتها الخاصة إلى الحد الذى حال دون أن تأبه كثيرا لهذه الإحتجاجات ، وربما دفعتها لهذا الإهمال دواع أخرى .

واشترك الفرنسيون كذلك فى التهافت على هذه الغنيمة ، أما الشعب الوحيد الذى لم يربح شيئا فهو الشعب المصرى الذى كان يناضل فى سبيل الخروج وإخلاء البلاد ؛ وليس من شك فى أن سلطان تركيا هو الذى منى بفقدان أملاكه ؛ غير أن الواقع أن مصر هى التى احتملت الخسارة ؛ إذ كان سلطان الباب العالى على مصر فى ذلك الحين قد أمسى إسميا .

ولقد كان نصيب بريطانيا فى ذلك الحين ، أنها قصرت جهودها على حماية مصر نفسها ، غير أن الظروف قهرت لورد سالسبرى ، الذى خلف مستر جلادستون ؛ فأرغمته على أن يوسع دائرة الجهود البريطانية ، فاستقر العزم فى جد على تهدئة الحالة فى السودان فى حدوده التى تطوقه اليوم ، فواجهت الإنجليز والمصريين خلال جهادهم فى إخلاء السودان ثلاث معارك حربية ، فقد هزم الدراويش عند سواكن قبيل ختام سنة ١٨٨٨ ، ثم نشبت فى أغسطس من العام التالى معركة خطيرة أخرى عند « توسكى » كانت السبب فى إعادة الأمن والهدوء إلى وادى النيل ، إذ هدمت الهزيمة بأس الدراويش ، ومنى الدراويش بعد ذلك بهزيمة ثالثة فى صدر ١٨٩١ عند طوكر ، أدت إلى عودة الأحتلال لهذا الإقليم ، فعاد الجزء الأكبر من الشطر الشرقى فى السودان تحت نفوذ القاهرة . وقد كانت استعادة السودان أمراً لا مفر منه — لا لكى تعود مساحة واسعة عريضة لوليها — بل لما فى الأمر من مساس بالشرف البريطانى .

ورأت الحكومة البريطانية بعد ذلك مدفوعة بعزم ثابت وإيمان عميق أن عليها واجباً لا بد من تأديته ، فأخذت على عاتقها إنهاض مصر المحطمة ؛ فلما

تهيأت مصر وعادت الروح المعنوية لجيشها ؛ وبات المال كافياً فى خزائن البلاد أدت هذا الواجب ، فعينت ضابطاً بريطانيا برتبة لفتننت من فرقة المهندسين الملكيين سرداراً للجيش المصرى وقد سبق له أن درس مساحات واسعة فى مصر وفلسطين دراسة تخطيطية ؛ وكان شابا مليئاً بالحركة والنشاط ، بارعاً إلى أبعد مدى ؛ اشترك فى القتال الذى دار فى السودان . فكان هذا السردار هو سير هربرت كتشنر Sir Herbert Kitchener الذى قام بأعمال خطيرة فحالفه النجاح فى جميع خطواته ، لأنه لم يدع الأمر للفرص ؛ بل كان يدرس كل شىء بنفسه ، وقد جمع فى يديه وحده أكبر حظ من السلطة ، وتوفر على العناية بدقائق الشئون الحربية ؛ فكان مصيباً فى حذره الذى رعى به حملة الخرطوم مع الجنود المصريين ، غير أن رغبته فى الانفراد بالسلطة وحده ، وكراهيته لإشراك غيره معه كانت موضع النقد فيما بعد فى حملة أشد خطراً .

وفى ٦ يناير سنة ١٨٩٢ ، مات الخديو توفيق ، ولما يزل الخليفة المحطم شوكة فى جنب السودان ، فخلفه ابنه الشاب عباس حلمى الثانى وكان لا يزال فى الثامنة عشرة من عمره ؛ فاتجه بفكره نحو عمه فؤاد يلتمس عنده النصح والمعونة مدفوعاً بهزة المفاجأة وبالكراهية التى نمت فى قلبه فى صدر أيامه للورد كرومر ولأغلب ما يصطبغ بالصبغة الإنجليزية . وكان الأمير فؤاد عندئذ فى الرابعة والعشرين ؛ فلم يكن هناك تفاوت ملموس بين عمريهما ، إلا أن هذا التفاوت كان كافياً لأن يجعل البون شاسعاً بين إدراكيهما .

فدعا عباس الثانى الأمير فؤادا إلى مغادرة ڤينا ، وعرض عليه أن يوليه قيادة قسم من الجيش المصرى مع منحه رتبة اللواء ؛ فقبل فؤاد العرض وعاد إلى القاهرة .

وقد بين الفرمان الذى أعلن ولاية عباس الثانى خلفاً لتوفيق ، العلاقات

بينه و بين الباب العالى فى وضوح ، فذكر فى عبارات دقيقة صريحة أنه سيعهد بالإدارة المدنية والمالية فى مصر إلى عباس الثانى والذكور من ذريته .

ثم أكد أن المصريين جميعاً من رعايا الدولة العثمانية ؛ وحتم جباية الضرائب باسم السلطان ؛ فلم يدع هـذا مكاناً لوجود دولة مصرية ، أو جنسية مصرية قائمة بذاتها .

وقيل إنه ليس للخديو الحق فى عقد معاهدات سياسية مع الدول الأجنبية ؛ فإذا اجتمعت الدول الأوروبية فى مؤتمر مثل مصر فيه مندوب عثمانى .

وكانت مصر عند ما عاد إليها الأمير فؤاد فى وضع دستورى أشبه ما يكون بالوضع الذى تركها عليه عند ما غادرها ، فعلى الرغم من أن الجنود البريطانيين نزلوا إلى البلاد فإن إنجلترا لم تعلن ضم مصر إليها ، ولم تعدها بين ممتلكاتها ، بل كانت وعودها تقضى برفع هـذا الاحتلال عند ما تسـترد مصر مقدرتها المالية والسياسية .

وكانت حالة السودان قد تغيرت إلى مدى بعيد ؛ فضاعت منه مساحات واسعة ، وكان النضال الخطير فى سبيل استعادة السيطرة على الجزء الباقى لا يزال فى مرحلته الأخيرة ؛ إذ لم تنشب المعركة الحاسمة التى حطمت الدراويش نهائيا إلا فى سنة ١٨٩٨ . فقد جمع كتشنر قوة بلغ عددها حوالى ٢٢٫٠٠٠ رجل على مسافة أربعين ميلا جنوب الخرطوم ؛ وهناك تحت أسوار أم درمان . وفى ٢ سبتمبر احتدمت المعركة المرتقبـة بين قوة سير هربرت وقوة الدراويش . وكان هؤلاء قد جمعوا آلافاً من الأشداء يفوقون كثيراً فى عددهم قوة كتشنر . غير أنهم كانوا فقراء إلى البراعة الحربية الفنية ؛ فاندفعوا فى شدة يواجهون القوة الإنجليزية المصرية فحصدتهم مدافع مكسيم وطلقات البنادق السريعة التى أجاد استخدامها جنود كتشنر الذين دربهم فحذقوا الفن وبرعوا فيه .

وكان علم المهدية الأسود والأخضر وسط جموع الدراويش الذين كانوا يقذفون أنفسهم فى شجاعة نحو الصفوف المصرية البريطانية ، فقضى حول هذا العلم ألوف تتبعها ألوف فى جرأة طائشة ، فلا تكاد نيران الأسلحة الحديثة تنسف صفا حتى يحتل مكانه صف آخر ، فلما دارت الدائرة على الدراويش ، كان عدد القتلى من جيشهم البالغ ٥٠٫٠٠٠ جندى لا يقل عن ١١٫٠٠٠ قتيل و١٦٫٠٠٠ جريح . والواقع أن القتال لم يستغرق سوى مدة قصيرة لم تتجاوز بضع ساعات ، ولذلك تعد معركة أم درمان بين أقسى المعارك الدموية التى نشبت فى تاريخ العالم ، فقد كانت خسائر الدراويش فادحة لا تتناسب مطلقا مع ما منيت به قوات كتشنر ؛ إذ كان نصيب البريطانيين تسع ضباط واثنين وعشرين ومائة جندى بين قتيل وجريح ، ونصيب المصريين ، تسع ضباط وواحدا وأربعين جنديا ، ودخل الجنود أم درمان بعد ظهر ذلك اليوم بذاته ، ورفرف العلمان البريطانى والمصرى على معقل المهدية الأخير ، وبعد يومين أقيمت حفلة مماثلة فى الخرطوم ، ورغم مضى ثلاث عشرة سنة منذ وفاة غوردون ، فقد تلقت انجلترا نبأ الانتقام له فى حماسة رائعة ، وترحيب عميق .

وفى هذه الساعة الحرجة فر الخليفة ومعه عدد كبير من أتباعه ، فظل يتنقل مدة تزيد على العام فى مجاهل البلاد ، وفى أصقاع بعيدة يستحيل على القوات النظامية أن تصل إليها ، حتى بلغ النيل فى نوفمبر سنة ١٨٩٩ ، فبذل سير ريجنلد ونجت Sir Reginald Wingate الذى خلف كتشنر فى سردارية الجيش المصرى عدة محاولات بارعة مكنته من مفاجأته ، حيث قتل هو وأبرز أعوانه فصفا السودان وغمرته الطمأنينة .

وهنا طرأ على العلاقات الإنجليزية المصرية تغيير دقيق بارز ، فإذا كان قد قضى باحترام الأمر الواقع فى مصر ؛ فقد كان حتما على مصر وبريطانيا العظمى أن يرتبطا فى السودان فى شركة متساوية .

وكان من نتائج سوء الإدارة المصرية أن ضاع السودان ، بل لقد أذاعت هذه الإدارة الاضطراب والفوضى فى مصر نفسها ، فتدخلت بريطانيا ، وساعدت مصر فى جهادها العنيف فى سبيل برئها واستعادة استقرارها وتهيئتها لاسترداد السودان ، غير أن انجلترا احتملت أكبر قسط فى استعادته ، فلولا بريطانيا العظمى لما استطاعت مصر أن تتغلب على الدراويش ، بل لقد كان موقفها خطيراً إلى حد كان من العسير عليها معه أن تصدهم عن اجتياح أراضيها ذاتها ؛ وربما كان فى هذه الظروف ما يبرر ضم السودان باسم انجلترا ، غير أن حملة السودان كانت تسير باسم الخديو ، وقد احتملت الخزينة المصرية أوفر قسط من الثمن ، ولذلك استقر العزم على تحديد حقوق العرشين الشرعيـة فى السودان ، عرش ملكة انجلترا ، وعرش خديو مصر ، فعقدت إتفاقية ١٨٩٩ ، التى اكتسحت دعوى الباب العالى فى ملـكيته ، وأقرت بريطانيا على أنها أكبر مساهم فى هذه الشركة التى كان عليها أن تحكم هذه البلاد العريضة .

فقام بين المصريين من وجه مر النقد لهذه الإتفاقية ؛ فأعلن أن حملة السودان إنما أدت مهمتها باسم مصر ولصالحها وأن فى اشتراك انجلترا مع مصر فى السيطرة على السودان اغتصابا لحقوقها الشرعية ؛ وكان فى مصر نفسها إلى جانب ذلك اضطراب فكرى عميق ؛ فهذه انجلترا قد دخل جنودها القاهرة والإسكندرية ؛ ولـكن الحـكومة البريطانية لم تعلن ضم مصر إليها ، بل أعلنت أنهـا ستبذل كامل جهودها فى تنظيم البلاد ، فلما أيقن المصريون أن بلادهم لم تضم أدركوا أنه من العسير أن يلمسوا الفرق بين السياسة البريطانية الواقعيـة ، والسيطرة البريطانية التى استكملت جميع الأوضاع والمظاهر ، فقد قيل أن الخديو سيمنح حريتـه فى العمل كاملة ، فلما ألحت بريطانيا على الخديو ووزرائه أن يأخذوا بوجهة نظرها ، تحير المصريون فى محاولتهم التوفيق بين تصريحات انجلترا السياسية وسياستها العملية .

عاد الأمير فؤاد إلى مصر إذن فألفى القلق السياسى قد مزقها شطرين ، ووجد فى دائرة البلاط لونين فإما مع الخديو عباس الثانى ، و إما ضده ، وكان الخديو شابا متسرعا مندفعا يمقت السيادة البريطانية . فكانت السياسة الداخلية كثيرة التعقيد ، وكان حتما على من يستظل بظل عباس الثانى أن يعد مشاغبا فألفى الأمير فؤاد نفسه فى مركز شديد الصعوبة ، فقد تبع والده فى منفاه ، وناله رذاذ مما ألصق باسماعيل ؛ وتطلع الكثيرون من حاشية القصر إلى وجوده فى القاهرة بعين الريبة العميقة ، وكان عليه أن يصغى لحجج هذا الفريق مرة ، أو لتعنت ذلك الفريق مرة أخرى . وكان موضعه من ابن أخيه ككبير ياورانه مبعثا للضغينة والحسد ، بل وكثيرا ما كان مثيرا للغيظ مهيجا للحفيظة ، فكان على الدوام محفوفا بالمخاطر ، ولطالما فكر فى جد خلال ثلاثة أعوام من ١٨٩٢ حتى ١٨٩٥ — فى أن يسلك سبيل الحزم ؛ غير أنه اتضح أن نهج مثل هذا السبيل مما يحمله جهدا مضينا ، ولذلك قرر فجأة أن يخلى بين نفسه و بين سياسة مصر الملتوية الملتهبة ، فاستقال واعتزل وظائفه جميعها ، و بدا أمام العالم فردا عاديا .

وكثيرا ما وقف فؤاد موقف المعارضة من عباس الثانى ، غير أن أغلب هذه المواقف ظل خفيا لم يظهر ، فقد هيأت الظروف لفؤاد الرحلة إلى البلاد الأجنبية ، فوسعت هذه الرحلة مداركه ، وهذبت رأيه ورققت مزاجه ، فدعاه ابن أخيه إلى مغادرة أوروبا حيث اكتسب رضاء السلطان ، ليعود إلى البلاط الخديوى فيمده بصائب رأيه ، فقدم فؤاد نصحه ؛ غير أنه لم يؤخذ به مطلقا ؛ وقد كان يتوقع لمكانه ككبير الياوران ، ولرابطة القرابة التى تصله بالخديو ، أن يمنح لونا من السلطة ، ولكن الواقع أنه منح هذه السلطة اسما لا حقيقة ، فكثيرا ما كان يمنح القصر نصحه وتدبيره ، فيستمع إليه عباس ، ولكنه ينتهى إلى أمر يناقض ما بذل إليه من نصح . والواقع أن عباسا وفؤادا كانا حدثين ،

ولـكن أحدهما كان أصغر من الآخر ، ولم يكن فؤاد يرى فى ابن أخيه العنيد غير فتى مراهق ، فلما أعلن هذا الرأى نشبت بينهما المعركة الأخيرة ؛ وفى ثورة هذه المعركة الكلامية استقال فؤاد من منصبه ، فهدأ عباس و بذل غاية جهـده فى إقناع عمه بالعدول عن رأيه ، لأنه كان — رغم توتر علاقتهما — يؤمن بمـا يضفيه عليه وجود من له مثل خبرة فؤاد بالمزاج الأوروبى ، إلى جانبه ، غير أن الأمير فؤادا أصر على رغبته ولزم رأيه ، ثم ذكر لعباس أنه لا يقبل أن تعصف به الزوابع السياسية المتصلة التى تهب على القصر ، وأنه يفضل أن يوجه نشاطه نحو اتجاهات لا تثير ريبة ولا تبعث ظنا .

وليس من شك فى أن الأمير فؤادا كان مصيبا فى التزامه هـذا الموقف ، فلم يكن ثمة بارقة أمل فى أنه سيصير ملكا على مصر ، فكان فى بعـده عن السياسة ازدياد لسلامته وتقوية لمركزه . فظل بمعزل منذ هـذه اللحظة حتى عام ١٩١٧ ، عدا عام ١٩١١ إذا اعتبرنا هذا استثناء — الذى رافق فيه عباسا فى رحلته إلى إيطاليا . وكان طبيعيا أن يرافق فؤاد الخديو وأن يكون له خطره فى الرحلة لخبرته بهذه البلاد ، ولعلاقته الودية مع بيت ساڤوى ، ومع الـكثيرين من رجالات إيطاليا السياسيين ، فلما تقابل عباس مع الملك عمانويل فى ركونيچى Rocconigi استقبل فى حفاوة ممتازة ، إذ لم يكن عمانويل قد نسى الأمير فؤادا المصرى الشاب الذى خدم فى حاميـة روما برتبة لفتنت ، فاغتبط عباس بهذا الاستقبال كثيرا لأنه كان يعتمد — إلى حد بعيد — على مكانه من إيطاليا فى مناوشاته مع الحـكومة البريطانية ، وقد شجع الأمير فؤادا على أن يعمل على توطيد هذه العلاقات وتقويتها ، وحرص الأمير فؤاد من جانبه ، كذلك على صلته بالبلاط الإيطالى وركن إليها ، ولـكنه اختبرها بعد ذلك بعامين ، فتبين له أنها أهون مما زعم .

وحدث خلال سياحته مع ابن أخيه فى أوربا ، أن تقدم إلى عراف نابه ، له نبوءات كثيرة معروفة بارزة ، فأكد له العراف فى جد وحرارة ، أنه سيموت ملكا ، فلم يكن ثمة ما هو أغرب أو أبعد احتمالا من هذا النبأ ، ولكن العرافين يطبعون فى عقليات الشرقيين خيالات عجيبة ، وقد أثر هذا النبأ فى فؤاد واهتز له فلم ينسى أبدا عبارة العراف ، حتى بدا عام ١٩١٣ كأنما توشك النبوءة أن تتحقق . فقد برز خلال الحمى السياسية التى تلت الحر بين البلقانيتين المتتابعتين ، اسم الأمير فؤاد أحد أسباط محمد على الكبير ، منشئ الأسرة الخديوية وابن ألبانيا القلقة ، وكان الرأى يتجه إلى أن يقبل الأمير فؤاد عرش ألبانيا ، ورأى فؤاد الذى طالما درس الشئون الألبانية فارتاح إليها ، أن وحدة الأصل والدين التى تربطه بهذا البلد تؤهله لاعتلاء عرشه ، فأعلن أنه إذا دعى لألبانيا فلن يرفض تاجها ، غير أنه لم يذكر بين المرشحين الرسميين لهذا المركز السامى ؛ إذ اعتمد على الروابط التى تصله بهذا البلد ، وعلى تعضيد إيطاليا له ؛ واطمأن إلى أنها كفيلة بأن تصل به إلى غايته ، إلا أنها لم تكن فى مثل القوة التى زعمها لها فلم يفز فؤاد ببغيته ، وقد ظل بعد ذلك دون توفيق سنوات عديدة .

وبعد ذلك أخذ الأمير فؤاد الموفور النشاط ، يبدى ضروب نشاطه فى وجوه تتصل بتطور الحياة العقلية والعلمية فى مصر ؛ فأحب هذا اللون من النفوذ الذى أكسبته إياه جهوده ، غير أنه لم يكن ليستسيغ كثيرا هذا النهج الذى كان حتما أن تتبعه هذه المعاهد التى رعاها إذا ما أريد لها النجاح ، فاضمحلت تلك المنشئات وذوت ، غير أنه عرض فى هذا الجهاد مزاجه وأسلوبه ، فلما ماتت فجأة إحدى منشآته ، كان هناك من قال خاطئا إن أميرا فى مثل اندفاعه لا يمكن أن يبرز ليشغل مركزا ساميا .

الفصل الرابع

جهوده قبل الحرب

ذكر لورد ملنر فى كتابه الذى أخرجه عام ١٨٩٢ ؛ وهى نفس السنة التى عاد فيها الأمير فؤاد من منفاه ، فى معرض الحديث عن الثقافة المصرية العبارة التالية : « إذا تطلعت إلى مستقبل مصر القريب فإنى أعلق على استنارة طبقة الموظفين وتطور عقلياتهم ، أهمية تفوق تلك التى أعلقها على تطور الحياة النيابية فيها » .

فقد عاد الأمير فؤاد فألفى نظام التعليم فى البلاد على أسوأ حال من الفوضى إذ كان دينيا خالصاً يفتقر إلى الكثير من الجد والحرارة . كانت المقدرة على قراءة القرآن ثم تلاوته فى النهاية بعد حفظه هى الأساس الأول والأخير فيه . ولكن فؤاداً كان قد عرف الجامعات فى إيطاليا والنمسا ، ورأى أنه ليس لعلوم الغرب وفنونه سوى صدى ضعيف فى بلاده ؛ فالجميع يتحدثون عن التعليم دون أن يخطو أحدهم فى الأمر خطوة عملية ؛ فلم يكد يخلص نفسه من أعباء المناصب الرسمية ، حتى درس هذا الموضوع فأدرك أن التعليم يسير فى مصر فى حدود ضيقة شديدة الضيق ؛ فحاول أن يقنع مواطنيه أن ثمة بعيداً عن كتب الشريعة الدينية ينابيع صافية أخرى تبعث الحقيقة وتنفث من العلم فنوناً رائعة .

ورأى الأمير فؤاد أن أكثرية المصريين يكرهون إنفاق المال فى سبيل تعليم أبنائهم ؛ وأن غالبية الباشوات أجهل من أن يدركوا أن العلم سبيل النجاح وأنهم ينفرون من كل شىء أوروبى وينظرون إلى التعليم فى كثير من الشك

والريبة . فكان عليه أن يحطم الكثير من العقبات ؛ غير أنه كان يلزم الحذر عند البدء فى تنفيذ أى مشروع يعرض له ، وبالرغم من المعارضة الشديدة والمحاولات التى بذلت لعرقلة مشروعاته ؛ وجه الأمير فؤاد عام ١٩٠٦ نداء يفتتح به اكتتاباً لإنشاء جامعة مصريه . إلا أنه من غير الممكن أن يقال إن الاكتتاب لقى إقبالا حماسيا حاراً ، فقد مضى عامان حتى بلغ المال المجموع عشرين ألف جنيه . ومهما يكن فقد افتتحت الجامعة عام ١٩٠٨ واختير الأمير فؤاد ليكون الرئيس الأعلى لها .

واستطاع الأمير فؤاد بما له من العلاقات مع البلاد الأجنبية أن يكون مكتبة تضم حوالى خمسة عشر ألف مجلد ، يعد كل مجلد منها تحفة لها قيمتها . وقد بذل فى هذا العمل جهداً كبيراً تغلب فيه على الكثير من الصعاب . وأمكن إقناع نفر من أساتذة أرقى الجامعات الأوروبية بالحضور إلى الجامعة المصرية و إلقاء سلسلة من المحاضرات فيها . ولبت وزارتا التعليم فى فرنسا و إيطاليا رجاء الأمير فؤاد الشخصى ؛ ففتحت أبواب مدارسها الثانوية فى وجوه الطلاب المصريين الشبان الذين اختارتهم ورضيت عنهم جامعة القاهرة . وقد بذل من ماله الخاص الكثير من نفقات هذه الزيارات ، ويدلنا اعتماد الأمير فؤاد إلى هذا الحد على جيبه الخاص فى مد الجامعة التى خلقتها جهوده بحاجتها من المال ، على ضآلة المعونة المادية التى كان يقدمها المصريون أنفسهم .

ثم قامت إلى جانب ذلك عدة مدارس خاصة . روعى فى تقدير مصروفاتها أن تظل من القلة بحيث تجذب إليها التلاميذ ؛ غير أن هذا قد دعا بكل أسف إلى انحطاط مستوى التعليم فيها .

وليس من شك فى أن قلة النجاح التى لقيتها الجامعة فى أعوامها الأولى إنما ترجع إلى ضآلة المعونة المادية التى قدمتها الحكومة ، قبل أن ترجع إلى

ضآلة ما قدمه الأهلون أنفسهم وعلى الرغم من ضعف المقدرة المادية حاول الأمير فؤاد أن يقيم للجامعة بناية تتفق وغرضها ، على أن تمدها الدولة بما يكفل لها الحياة فى طفولتها .

ولا بد أن نلاحظ أن فرنسا و إيطاليا فتحتا أبواب مدارسهما الثانوية فى وجوه الطلاب المصريين ، بينما كانت هناك دولة أخرى ترغمها مصالحها على الإتصال بمصر لم تصطنع مثل هذه السياسة ، وليس من شك فى أن فرنسا و إيطاليا كانتا تكرهان وجود الإنجليز فى مصر ، لذلك رحبتا بالشباب المصرى الذى ستوجهه ثقافته بطبيعتها إلى اتجاه لا يتفق وصالح بريطانيا .

و إذ رأى الإنجليز تلك الحملة التى وجهت إليهم لتجريح موقفهم السلبى نحو التعليم فى مصر ، أعلنوا أن خطتهم السياسية العامة تحول بينهم و بين أية محاولة مباشرة ترمى إلى نشر الثقافة البريطانية ، وأنهم حتى لو فرض وسمحت لهم سياستهم بالعمل لحالت بينهم و بين تنفيذ غرضهم فى ذلك الحين ، عقبات مادية لم يكن من الممكن اجتيازها .

ومهما يكن حظ هذه الحجة من الوجاهة ، فالحقيقة أن الحكومة البريطانية كان فى استطاعتها أن تخلق لنفسها دعاية واسعة مجدية بما لها من الموارد الكثيرة الموفورة ، لو أنها أنشأت جامعة من مالها الخاص ، ولكان من الهين عليها إذن أن تتمكن من العقول المصرية ، ولكن الذين يعنون بآراء الآخرين ، إنما هم شعوب أخرى .

ولقد سمح جمود الإنجليز فى هذه الناحية للثقافتين الفرنسية والإيطالية أن تغزوا العقلية المصرية إلى مدى بعيد ، ولم تعد الجامعة المصرية فى ذلك الحين سوى مورد يغتذى منه الشباب المتوثب الذى سرعان ما أصبح صيداً للمتطرفين .

ولو تنبهت إنجلترا للأمر من قبل فأولته عنايتها ، لاختلفت مصر عما هى عليه اليوم اختلافاً بيناً .

وعند ما أحيلت عام ١٩١٣ إدارة المدارس الأولية و بعض المدارس الأخرى إلى مجالس المديريات ، استقال فؤاد من رياسة الجامعة ؛ ولقد كان من الأفضل لو أنه ظل فى إدارة مثل هذا المعهد الجامعى القوى إذ كان إدراكه لوجوه التعليم أكثر اتزاناً ممن خلفوه فى هذا المركز ، فكان يؤمن كثيرا بالناحية العملية . وكان من الهين أن تكفل جامعة القاهرة لبنيها ، تحت إشرافه ، لون التعليم الذى يتفق وحاجة بلاده . ولذلك تعانى مصر الآن نفس الكابوس الذى يجثم فوق صدر الهند ؛ فإن عددا هائلا من الطلاب يخرج كل عام ، وقد هيأه لون تعليمه ليشغل وظائف لا وجود لها ، بل وليس من الممكن أن توجد فى مجتمع عصرى فى مثل الكثرة التى تستنفد كل هذا الإيراد الموفور .

ولقد سمح الشرق ، وعلى الأخص مصر والهند ، للفكرة الجامعية أن ترتفع إلى قمة طريقها بينما هذا الشرق أو هذان القطران يحتاجان إلى لون فى مستوى المدرسة البريطانية العامة ، لون ليس بين البلاد من هى أقدر على تقديمه من بريطانيا العظمى . فالشرق يتطلب إنسانا عملياً ، كثير الإعتداد بالنفس يحمل شارة المدرسة القديمة فى انجلترا ، مهيأ لأن يسلك طريق الصناعة أو التجارة أو أية حرفة أخرى بعزيمة ثابتة و إيمان عميق يكفلان له الفوز والنجاح .

وقد جرت الجامعات على تخريج دفعها السنوية من الشبان الذين يتوهمون أن الحصول على الدرجة أو الشهادة معناه امتلاك العصى السحرية التى تفتح الباب إلى الوظيفة الحكومية ، حيث الأمن والدعة والطمأنينة ، فهؤلاء الشبان يعوزهم المران الفنى ، فهم لذلك أعجز من أن يخلقوا لأنفسهم عملا ما ، وفى مصر على وجه خاص يندر نسبياً طلب العامل ؛ فالذين يحصلون على عمل فى هذا

الميدان الضيق . إنما ينالون أجراً زهيداً لكثرة العمال وقلة العمل .

وكذلك بذل الأمير فؤاد فى هذه الفترة التى سبقت الحرب جهوداً موفقة فى إحياء الجمعية الجغرافية المصرية ، التى أسسها الخديو إسماعيل عام ١٨٧٥ « لدراسة أقاليم أواسط أفريقيا والأصقاع المحيطة بها والمعاونة على كشفها » وكانت مهمتها إنارة طريق البحث عن البقاع التى لم يتم كشفها أو التى كانت لا تزال سراً مجهولا ، وأن تعنى بالكشف وتساعد البعثات الكشفية فى أفريقيا ولم يكن غرض إسماعيل أن تكون مظهرا شكليا فحسب ، ولكن سرعان ما فترت عنايته بها . والواقع أن مصر كانت لا تعلم عن السودان إلا قليلا عندما اغتصبه الدراويش منها . ومهما يكن من شىء ؛ فقد كان الإحتفال بافتتاح هذه الجمعية فى عهد إسماعيل رائعا وعظيما ، وكان رئيسها الأول العالم النابه الدكتور شوينفورث Dr. Schweinforth ، وبين أعضائها الأوائل ستانلى Stanley وبورتون Burton ، ونوردنچولد Nordenskjold ، ودى لسپس De Lesseps وچس Gesse ، والأمير بورجيز Prince Borghese ومتشل Mitchell وكلهم أعلام فى تاريخ الكشف الأفريقى ، تشهد أسماؤهم بروعة إفتتاحها ، غير أن الجمعية لم تضف لجهودها الموفقة الخالدة التى بدأت بها عهدها غير القليل . وحقيقة أن الجمعية استردت بعض حماستها الأولى بعد تولية توفيق إلا أن عهد الأكتشافات الأفريقية العظيمة كان قد أدرك نهايته ، ولقد كان فى استطاعة الجمعية أن تقوم بأعمال نافعة جليلة فى السودان ، غير أنها أهملت مثل هذا الاتجاه إهمالا مطلقا ، حتى لقد ظلت مساحات واسعة منه دون خرائط تصورها ، ولم توضع للنيل سوى مصورات بسيطة ضئيلة النفع قليلة الجدوى . وحاول الأمير توفيق عقب إستعادة السودان أن يوقظ الجمعية للاضطلاع بمهمتها ؛ غير أن السودان كان فى حالة سيئة ، وكانت المعونة التى لقيها فاترة ، فاتجه نحو سبل

أخرى ، فماتت الجمعية موتا طبيعيا قبيل الحرب .

وعاد بعد ذلك فؤاد لهذا المعهد فعدل قانون الجمعية عام ١٩١٧ وجدد منهاجها حتى يتفق وحاجة العصر الحديث ، وأنشأ لها متحفا لعلم الأجناس البشرية ، وأمر الّا تعنى الجمعية بشئون الأصقاع المجهولة أو التى لم يتم كشفها فى أفريقيا القصوى ، وأن تقصر جهودها على دراسة وادى النيل فتضع له الخرائط المفصلة وتؤلف فى تاريخه ولهجات لغاته المؤلفات والكتب .

لذلك كانت جهود جمعيته هذه ومثيلاتها من الجمعيات الأخرى عاملا يصون لمصر كنوز فراعنتها ، ويرسم للتنقيب عنها حدودا منظمة ، ويفرض للبحث عنها ترخيصا معينا .

وفى سنة ١٩١٢ وجه الأمير فؤاد عنايته نحو الأسماك وصيدها ، فقد تبين أن مصر لا تعرف عن الأسماك شيئا فى حين أن لها سواحل طويلة ، بينما خطت الأمم الأخرى منذ منتصف القرن الماضى خطوات واسعة موفقة فى دراسة البحار والأحياء المائية ، فجاء معهد الأحياء المائية بالاسكندرية وليد جهوده ، وإذا استثنينا الأبحاث التى أجريت عام ١٩١٢ تحت رعاية المتحف البريطانى لدراسة الحفريات الچيولوچية ، فإننا لا نكاد نلمس أى مجهود جدى لدراسة مصايد الأسماك إلا تلك العناية الطفيفة التى وجهت نحو بحيرات الفيوم الواسعة التى استهلك السكانُ محصولها .

أما فى أوروبا وأمريكا ونيوزيلند واليابان فقد أنشئت وتنشأ محطات لدراسة الأحياء المائية فكان لها أبعد الأثر فى تحسين وسائل صيد الأسماك وتقدم الصناعات القائمة عليها ، بينما كانت مصر تنظر إلى هذا الموضوع بعين الجمود ، وأما هو فلم يجد صدى لصوته خلال أعوام طويلة ، غير أنه واصل الدعوة لرأيه ووضع الأسس الضرورية لتحقيقه ، فبذل فى استمساكه بمشروعه

جهدا كبيرا ؛ إذ لم يخط المشروع خطوة عملية إلا سنة ١٩١٥ بعد نشوب الحرب ، ولم يظهر المعهد فى عالم الوجود إلا عام ١٩١٧ .

فلما درس المشروع أول الأمر زعموا أن تحقيقه أمر مستحيل ، ولم يبرأ المشروع ممن صوره على أنه إحدى أمانى الأمير الخيالية ، ولم يستطع السواد الأعظم من الناس أن يدرك فائدته ، فابتسموا وهزوا أعطافهم ، وزعموا أن الأسماك هبة الطبيعة ، وقالوا إن معهدا كهذا مهما بلغ رنين الأسم الذى يطلق عليه لا يمكن أن ينجح . أما اليوم فإن المعهد قد سجل لنفسه خدمات جليلة ، والجهود قائمة على توسيع نطاق خدماته .

وكان « اتحاد ترقية مصر » إحدى منشآت الأمير فؤاد ، وقد نبتت فكرته فى رأسه عام ١٩٠٧ ، وكان غرضه العمل على اجتذات السياح للبلاد ، فقد أدرك الأمير فؤاد المدى الذى بلغ إليه اعتماد إيطاليا على حركة السياح فيها ، ولم يجد مبررا يحول دون استغلال بلاده لهذه الناحية ؛ وعلى الرغم من أن مصر تمتاز باعتدال مناخها ، ومكانها كمشتى ممتاز للطبقات الناعمة ، فإنها لم تستكمل استعدادها لاجتذاب السياح و إغرائهم بالبقاء فيها ، فإذا غضضنا الطرف عما فى القاهرة والإسكندرية من الفنادق ، ألفينا مصر فقيرة إلى مثل تلك الأنظمة البارعة والخبرة الفنية التى تحذقهما سويسرا فتستغلهما لراحة زوارها ، وقد قصد الأمير فؤاد بتكوينه « اتحاد ترقية مصر » إلى أن يخلق للبلاد مصدر دخل جديد ، فتولى رياسة هذا الاتحاد وسار به قدما نحو النجاح ، فنظم الاتحاد أعيادا ، واجتماعات رياضية ، وسباقا للسيارات ، كما نظم « أسبوع الطيران بهليوبوليس » المعروف الآن .

ولم يكد الأمير فؤاد يقلل من رعايته لهذا الاتحاد حتى أصابه الاضمحلال

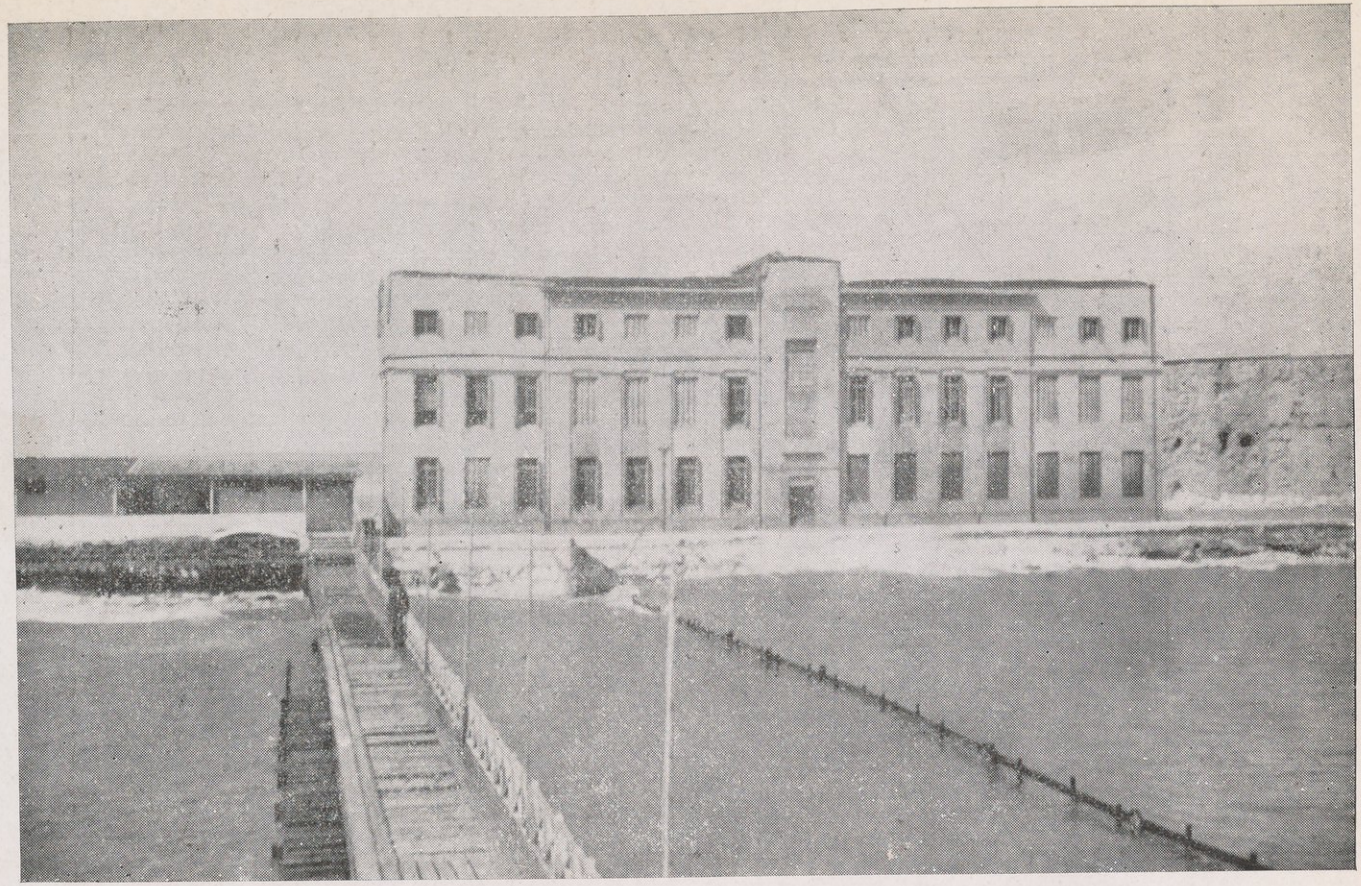

معهد الأحياء المائية باسكندرية

قبيل تبوئه عرش البلاد ببضع سنوات ، فلما تقلد زمام الأمور نفخ فيه روحا جديدة فأصبح اليوم معهدا حيا مثمراً .

وكان بين مشروعات الأمير فؤاد تأسيس معرض للمنتجات الأفريقية ، فحاول أن ينظم هذا المعرض بما عرف فيه من نشاط ، غير أن جهوده لم تتحقق ، وعندما عرضت له فكرة هذا المشروع أول الأمر كان يرى أن أفريقيا وقد غزتها المدنية الغربية يجب أن تجتذب إليها أنظار العالم . فأحب أن يشهد معرضاً يجمع منتجات القارة بأكملها ، فيتمثل فيه المدى الذى بلغته من النجاح وكان غرضه الحقيقى أن يعلن عن بلاده ، وأن يخلق فى النفوس أجمل الأثر عنها . ورأى أن مصر هى خير مكان يقام فيه هذا المعرض لموقعها الجغرافى ومناخها الممتاز ، وهذا يستتبع أن تكون القاهرة مقره الطبيعى ، وقد كان يزدرى الأقسام الأفريقية فى معارض البلاد الأخرى ، واثقا أنها إنما أريد بها وجه التسلية . وكان يبدو عليها النقص والاضطراب بحيث لا تحمل على احترامها من الناحية العلمية مهما روعى فى تكوينها من الجد والعناية ، إذ كانت تفتقر إلى الوحدة ويعوزها كمال الانسجام الذى يستحيل بدونه تكوين رأى سليم عن ماهية المعروضات وما تنطوى عليه من حقائق .

وقد تخيل الأمير فؤاد معرضا يكون لمصر فيه نصيب بارز ، وتمنى لو يرى لقناة السويس نماذج دقيقة التفصيل توضح مشاريعها الأولى ، وتاريخ هذا المجرى المائى العظيم ، وحفرها وتطورها ومستقبلها كطريق تجارى . وتصور مجموعة تضم مختلف نماذج الأجناس الإفريقية ، وقسما عظيما يبين الحاصلات الزراعية فى القارة بالتفصيل ، وإلى جانب هذا القسم الزراعى أقساما أخرى للرى تصور المشاريع الهندسية الكبرى التى تؤدى إلى توفير الماء وحسن توزيعه ، وأن يخصص للصناعة رغم تأخرها جناح يوضح دقائق أطوارها الكثيرة المختلفة

وأن تمثل فيه حيوانات إفريقيا المشهورة ، بعرض الجلود والعاج والريش وما إليها ، وأن يخصص فيه قسم للفنون يصور إزدهارها فى عهد الخلفاء الأوائل .

وقد وضع الأمير فؤاد مشروعا جذابا يغرى السائحين ببذل أموالهم مفتونين بسحر المعروضات المختلفة التى تشهد لمصر بمجدها الخالد .

ومن اليسير أن نرى مقدار ما بذله الأمير فؤاد من الجهد العنيف فى هـذا المشروع كما بذل فى مشروعاته الأخرى ، حتى لقد كاد يصل إلى غرضه فى تحقيق مشروعه هـذا ، لولا ما جد فى اللحظة الأخيرة من ظروف مفاجئة لم يكن فى وسعه ولا فى وسع مصر دفعها .

ولقد أبدت بعض الحكومات الأجنبية رغبتها فى تعضيد هذا المشروع كما شجعته بعض الهيئات المصرية ، واستطاعت مصر أن تفهم قيام المشروع على هذا الأساس الذى يرمى إلى إنشاء معرض يجتذب الكثيرين من مختلف السياح عامرة جيوبهم بالأموال ، فأثار هذا فى الناس حماسة واغتباطا .

وكان مقررا أن يفتتح هذا المعرض فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٤ ، غير أن أكثر الحكومات التى أبدت رغبتها فى الاشتراك فيه ، اضطرت قبل هذا التاريخ إلى الإعراض عنه للعناية بما جد لديها من أمور خطيرة مما دعا إلى إغفال أمر المعرض .

ولم تقف جهود الأمير فؤاد فى هذه الفترة عند حد ، فكانت له على الدوام أياد بيضاء فى تعضيد المشروعات الخيرية دون أن يبتغى من وراء ذلك مظهرا فطالما أنفق عليها بسخاء من ماله الخاص .

وفى عام ١٩٠٩ ترأس اللجنة المصرية التى قامت « لانقاذ منكوبى فاجعة إيطاليا » . وفى عام ١٩١٠ قبل رياسة « جمعية الأسعاف الأهلية » التى تأسست سنة ١٩٠٧ لأسعاف كل مصاب وسرعة نقله إلى المستشفى ؛ كما عاونت كثيرا فى

إنقاذ منكوبى الحوادث العامة ، وأسدت الكثير من معونتها للوقاية الصحية من الأوبئة .

ولم تكن الجمعية موفقة أول أمرها ، ولا يقع اللوم فى ذلك على عاتق الذين تطوعوا لخدمتها بل يقع على من تولوا إدارتها ، ومما يؤسف له أن وقع اختلاف فى الرأى فى إدارة الجمعية حتى سخر الناس منها فقالوا فى سخرية ، يجب أن يحل رجال إدارتها محل المتطوعين . وبعد بضع سنوات ، ركدت أعمال الجمعية لكثرة الاتهامات التى تبادلها الأعضاء ، ولكنها سرعان ما استردت حيويتها ونشاطها يوم تولى الأمير رياستها ؛ فأثبتت تحت رعاية فؤاد وجودها ووسعت نطاق أعمالها ، وأصبحت منشأة رئيسية فى كيان البلاد لها خطرها فى تخفيف الفواجع والأوباء .

وعند ما تولى الأمير فؤاد رياسة الجمعية لم تكن تملك شيئا فلم يكن لذلك لها أثر ظاهر ، ولكنها لم تلبث إلا قليلا حتى أصبح لها مركز فخم ومال موفور ، واستعدادات مناسبة تشمل عددا كبيرا من سيارات نقل المرضى والمصابين ، ومخازن واسعة غنية بالأدوية والعقاقير التى تصرف للمحتاجين بأقل الأسعار ، أما الفقراء المعوزون حقا فكانت تبذل لهم العناية وتصرف لهم الأدوية دون مقابل على الإطلاق .

وقد عمد فؤاد إلى ابتكار « نصيب[1] سنوى » لتزويد جمعيته بالمال فأنتج هذا المورد دخلا سنويا مقداره ٢٠٫٠٠٠ جنيه لا تزال الجمعية تحصل عليه حتى اليوم .

وفى عام ١٩٠٨ عند ما استطاع الأمير فواد أن يكسب شئون الجمعية النظام والاستقرار ، عالجت ألف مريض ، وقد زاد التعداد السنوى للحالات التى عاونت فيها الجمعية قبل وفاته على ٢٠٫٠٠٠ حالة .

---

(١) اليانصيب المعروف .

وتعتبر جمعية الأسعاف بين مشروعات الأمير فؤاد الناجحة التى تولى رعايتها قبل الحرب ، ويقوم نظام الخدمة فى الجمعية على أساس التطوع ، دن أن ينال المتطوعون أى أجر عن خدماتهم .

وقد اعتزم الأمير فؤاد أن يشرف على هذه الجمعية أثر حادث مؤلم وقع فى القاهرة أمام عينيه ، وقد راعه تعقيد الإجراءات التى كان لا بد من اتخاذها قبل أن تبذل أية محاولة لأسعاف المصاب الملقى عند قدميه . فلما استقصى الأمر تبين أنه فى حالة وقوع أية حادثة مهما تكن خطورتها فليس لإنسان أن يلمس المصاب حتى يصل رجال الشرطة وممثلو القضاء إلى مكانها وينتهوا من استكمال الأبحاث التى يتطلبها القانون .

ورقب فؤاد هذا الإهمال والتأخير بنفسه ، وقد قضى المصاب فى هذا الحادث قبل أن يتاح لأحد أن يعنى به ؛ فتابع الأمير أبحاثه ، فثبت لديه بعد اتصاله بالأطباء أنه كان من الممكن الابقاء على حياة الرجل لو أنه أسعف عقب الإصابة مباشرة ولو إسعافا غير فنى ، فلم يكن المصاب يتطلب سوى رجل يقف له النزيف الدموى . فأثار هذا الإهمال الذى أبداه المسئولون فى هذا الحادث عواطف الأمير فؤاد ، فتحدث إلى عباس فى الموضوع ، ولكن الخديو هز أعطافه الدقيقة التعبير وتساءل عما يمكن أن يعمل .

فوضع فؤاد عدة اقتراحات ولكنها لم تنفذ لأن نجاحها كان يتوقف على معونة الخزينة . وأخيرا طلب فؤاد إلى عباس أن يعدل نظام التحقيق فى الحوادث على أن يتولى هو تكوين هيئة لا تكلف الدولة مالا . فأقر عباس هذا الرأى . وشرع فؤاد فى العمل على تنظيم إدارة الجمعية ، فطلب المزيد من المتطوعين ، ومنح كلا منهم شهادة سرعان ما تبين أنها خير تزكية لحاملها عند أصدقاء الأمير إذا ما تقدم إليهم حاملوها يلتمسون إحدى الوظائف ، فتهافت عليه المتطوعون .

الفصل الخامس

الحـــــرب

كان مركز الأمير فؤاد قبل نشوب الحرب العظمى حرجاً ، فلما نشبت الحرب وتبين أن تركيا سوف تنحاز فى النهاية إلى جانب أعداء بريطانيا العظمى ازداد مركزه حرجاً . وكان فؤاد فى خدمة الباب العالى يوم عاد إلى مصر فألفى فيها حاكما تغلب عليه النزعة العثمانية القديمة .

فقد كان عباس الثانى عثمانيا أوتوقراطيا من كل قلبه يود أن تتركز فى شخصه مهام الأمور جميعها ، مدنية أو حربية أو دينية ، وربما كان من الخير لفؤاد أن يتغير نظام وراثة العرش ، وكان عباس الثانى رجعيا فى كثير من النواحى ولم يكن فى اتصاله بفؤاد يواجه رجلا ناريا متطرفاً فحسب ، بل رجلا يرى الكثيرون من المصريين أنه يكن للعرش آمالا أسمى مما يحملها له عباس .

وقد كان فؤاد أقرب فرعاً فى شجرة الوراثة من عباس وفقاً للقانون العثمانى القديم الذى يفضل أكبر أفراد الأسرة سناً على أكبر الأبناء . وربما لم يستطع عباس أن يعود إلى تلك العادة التركية العتيقة ، التى كانت تؤدى إلى قتل الأقارب الأدنين من العرش فى نذالة ، ولكنه حاول عقب إحدى المناوشات الكثيرة التى كانت تثور بينهما ، أن يفرض عليه رقابة شديدة ، والواقع أن الحب كان ضائعاً بين العم وابن أخيه ، وقد سمح عباس لعقله تحت تأثير رجعيته أن يستعيد ذكرى تلك الأيام التى كان السلاطين الأتراك يحتجزون فيها الذكور من أقاربهم فى القصر ، وفى جناح منه يطلقون عليه إسم

القفص احتياطاً لأنفسهم ضد الدسائس والتمرد .

ومهما يكن من شيء فقد أدرك الأمير فؤاد خطورة مركزه عقب أعوام ثلاثة قضاها كـكبير للياوران ، فترك فى حكمة تلك المسالك الوعرة التى قد تؤدى به إلى أن يقف من الخديو موقف الخصام الصريح ، ثم وجه كامل عنايته نحو شئون انتزعت منها السياسة فخاصت من أوشابها .

فلما نشبت الحرب العظمى كان يسيراً عليه أن يقول إنه كان حريصاً بعيد النظر ، فهو لم يفعل ما يثير عباساً الجامح ، ولم يسبب وجوده فى مصر عدة سنوات ارتباكا ما لبريطانيا .

وقفزت لخياله مرة أخرى نبوءة العراف وقد كان العالم عندئذ يترنح ، فبدا كأنما دوره يقترب .

وكان عباس فى تركيا فى زيارة محمد الخامس ، عند ما أعلنت ألمانيا الحرب وقد تبين أن البقاء مع هذا الرجل عسير على نفسه بعد أن حبب إليه العودة العاجلة إلى مصر عند نشوب الحرب عام ١٩١٤ ، حتى أن المحاولة الفاشـلة التى بذلت لاغتيال حياته لم تحل دون استمتاعه بمفاتن البسفور ، ولم تكن مصر بدورها شديدة الرغبة فى عودته إليها .

وظن عباس أن مركزه آمن غاية الأمن ، ذلك لأن إعلان الحرب بين ألمانيا والحلفاء تلاه إعلان رسمى عن حيدة تركيا .

ثم زعم أنه يقيم على أرض محايدة وأنه إذا كان غيابه عن مصر فى الأيام الأولى من أغسطس سنة ١٩١٤ يقلق بال إنجلترا ، فإنه فى إجازة صريحة وليس هناك ما يمكن أن يتهم به ، على أن عباساً كان يعلم دون ريب بوجود معاهدة سرية بين تركيا وألمانيا تفرض على الباب العالى أن يعاون الدول الوسطى . واعتقد أن القوة ستكون فى جانب أعداء الحلفاء فى الحرب التى ينتظر وقوعها .

ولذلك أيقن أنه لا بد أن يشرف على الموقف عن بعد حتى ينجلى تماماً .

لم يكن هناك فى تلك الأيام الأولى للحرب متسع من الوقت للمراوغة أو ارتقاب الحوادث ، وكان حتما أن تتخذ القرارات الحاسمة فى ساعات أو دقائق ، إذ كان العالم فى حرب ، والحرب تتطلب العمل ، وكانت بريطانيا العظمى تثق فى الشيخ الهرم محمد الخامس إلى حد ما ، وسرعان ما تبين مدى هذه الثقة ، فقد كانت فى انجلترا عند إعلان الحرب بعثة بحرية تركية تبتغى العودة بسفينتين حربيتين بنيتا لحساب تركيا ، ولم تكنا على أهبة الإقلاع فحسب بل كانت تركيا قد أدت ثمنهما فعلا ، فحجزتهما الحكومة البريطانية فى الحال ، وكان معنى هذا أن إعلان تركيا للحياد أمر مقبول ، ولكن احتجاز سفينتيها أدعى إلى الرضا والاغتباط .

وقد كان لبريطانيا كل الحق فى ريبتها نحو ما يسمى بحياد تركيا ، ذلك لأن سير . ل. مالت Sir L. Mallet كتب فى ٣٠ اكتوبر سنة ١٩١٣ من استانبول إلى سير إدوارد جراى Sir Edward Grey يقول له إن سفير ألمانيا فيها أنبأه بأن الجنرال ليمان ڤون ساندرس General Liman Von Sanders قادم إلى تركيا على رأس بعثة عسكرية لتنظيم المدارس الحربية من جديد ، وهذا الجنرال هو الذى قاد فيما بعد الحملة التركية على مصر ، وكتب مستر أوبرن Mr. O'Beirne بعد ذلك فى نوفمبر سنة ١٩١٣ من سنت بطرسبرج ، إلى سير إدوارد جراى ينبئه بأن وزير خارجية روسيا « قد راعه كل الارتياع استقدام تركيا لاثنين وأربعين ضابطاً ألمانيا لرياسة الجيش التركى ، وجنرالا ألمانيا لتولى قيادة هذا الجيش فى استانبول » وأضاف إلى هذا بأن الروسيين مستاؤون لذلك أشد الاستياء ، وأنهم رفعوا شكايتهم إلى الحكومة الألمانية

فى لهجة عنيفة ، فرد عليهم الوزير الألمانى بأن الأمور تسير فى مجراها الطبيعى وأنه لم يكن يظن أن الأمر يستحق الذكر » .

ولقد كان « استياء » عدو تركيا القديم لمجىء الضباط الألمان إليها فى أوائل أغسطس سنة ١٩١٤ كافياً لإقناع الخديو عباس بقرب اشتعال الحرب ، وبأن بقاءه فى استانبول لعب بالنار .

وكان السبب الذى حدا ببريطانيا العظمى إلى رفضها تسليم السفينتين التركيتين واضحاً فى رسالة بعث بها سير إدوارد جراى فى ٢ ديسمبر سنة ١٩١٣ إلى سير ل. مالت فى استانبول بين له فيها كيف تستطيع بعثة عسكرية ألمانية صغيرة أن تسيطر على المركز البحرى ، إذ قال :

« ... إن هذا الموقف ليختلف كل الاختلاف عن جميع المواقف السابقة التى اشترك فيها ضباط ألمان أو ضباط من أية جنسية أخرى .

« لأن ذلك يضع الهيئة السياسية بأكملها فى استانبول تحت سلطان الألمان .

« ويصبح مفتاح المضايق فى الواقع فى قبضة الألمان .

« وفى مقدور القائد الألمانى أن يتخذ من الاحتياطات ما يضعف شوكة السلطان ... » .

وكم كان لورد جراى صادقاً فى نبوءته ، فقد تحققت فى ١٦ أغسطس سنة ١٩١٤ عند ما أفلتت السفينتان الألمانيتان جويبن Goeben وبرسلو Breslau من رقابة الأسطول البريطانى ، ثم رستا على مقربة من استانبول .

فقيل إن هاتين السفينتين الحربيتين قد بيعتا إلى الحكومة التركية ، وكان لا بد من ضمهما إلى الأسطول العثمانى ، غير أن هذا العذر كان مكشوفاً ، لأن بحارتهما وضباطهما كانوا من الألمان ، فاحتج السفير البريطانى ، وقيل إن السلطان رمى إلى السفينتين مئات من الطرابيش التركية فاستبدل بها

البحارة الألمان قلانسهم غير أن مدافعهم ظلت تحمى الأستانة فاستولوا على مفتاح المضايق .

وعلى الرغم من ذلك بقى عباس هناك ، وأدرك فؤاد أن عباساً يطوح بمركزه ، فأى موقف تقفه الحكومة البريطانية ؟ فهل تخلع عباساً إذا نشبت الحرب مع تركيا وتضم مصر إليها ، أم تستبقى الحالة كما هى وتولى خديوياً جديداً ؟ وإذا كان لا بد من خديو جديد . فمن يكون ؟

وقضى فؤاد وقتئذ أياماً مضنية ، وكانت النجوم فى أفلاكها تنبئ بأن عرشاً سيخلو قريباً ، ووضعت مؤهلات فؤاد فى كفة الميزان ، فقد بذل جهوداً واسعة فى مشروعات لم يكتب لها دوام النجاح ، وزعموا أنه كان يبدأ مشاريعه دون أن يكون لديه من الجلد وثابت الشغف ما يكفل له مواصلة السير بها حتى الذروة ، ولكنه من ناحية أخرى كان قد طلق السياسة فلم يكن بين الأحزاب الكثيرة فى الدولة حزب واحد يستطيع أن يعتبره خصماً له ، وربما كان من مصلحة السياسة البريطانية أن تعين شخصية لينة لا لون لها ، ومثل هذه الشخصية تجدى كثيراً فى زمن الحرب .

وبدأ فؤاد يعتقد أن مرور الأيام يدنيه من غايته ، وليس من شك فى أن هناك آخرين شاطروه مثل هذا الاعتقاد ، فتضاعف حول شخصه احترام الذين يحيطون به ، وازداد عدد « أتباعه » زيادة ظاهرة .

وكانت بريطانيا العظمى تنزلق خلال ذلك مضطرة ولكن فى بطء إلى الاشتباك مع تركيا فى حرب ، وكان مركز مصر هو الدافع الأساسى لها ، وفى ذلك الحين كان حاكم مصر الشرعى فى الآستانة ، وكانت مصر نفسها إقليما عثمانياً وجزءاً من أمبراطورية السلطان المترامية الأطراف . ولكنها كانت تقع على طريق المواصلات الحيوى للأمبراطورية البريطانية ، ولما سمحت مصر

بإنشاء قناة السويس فى أراضيها تخلت عن صبغتها الفردية فأمست دولية ، وظلت على دوليتها لرغبة الأمبراطورية البريطانية ، التى كفلت لها قوتها وأدت بها حاجتها إلى أن تحتفظ بها خارج نطاق الأمبراطورية . وكانت مصر حلقة الاتصال ، وكان حتما أن يحدد مركزها إزاء الحرب العالمية التى كانت تنذر بالنشوب .

وعند ما سافر عباس إلى الآستانة خلف وراءه « حسين رشدى باشا » رئيساً للوزارة « وقائمقام خديو » وهو ينحدر عن إحدى الأسر الألبانية القديمة التى وفدت إلى مصر مع محمد على الكبير جد عباس الأعلى .

ولقد احتفظت أسرة رشدى باشا بطيب عنصرها ، فاعتز دولته بمجد أجداده ، وسرعان ما اصطدم مع عباس اصطداماً عنيفاً فى غير مناسبة واحدة حول إدارة ديوان الأوقاف .

فالشريعة الإسلامية وتقاليدها تمنح الحاكم الأعلى حق الولاية المطلقة على شئون الأوقاف ، غير أن رغبات عباس جاوزت حدودها . وكان رشدى باشا شخصية فذة فى مصر قبل الحرب . وكان أميناً نزيها ، لذلك لم يحظ من الخديو بكامل رضاه .

واسترعت هذه الفضائل إنتباه لورد كتشنر ، ومكنت له شخصيته من نفسه ، وقد كان ضئيل الجسم ، يهوى مجالس الطرب ، وكان لورد كتشنر يحبه حباً قويا ، وطالما اجتمعا الساعات يتحادثان وقوفا ، وقد التزم كتشنر الصمت دون أن يقاطع محدثه ، مطلا عليه من عليائه ، مصغياً إلى سحر هذا الطائر الغرد الذى لايبدى خلال أحاديثه العذبة سوى عبثه بشاربه المشهور . وكان كتشنر يوليه الكثير من ثقته ، ولم يذق رشدى باشا طعم النوم خلال الأسابيع الأولى للحرب العظمى ، وتضاءل فى جسمه الضامر ، فلم يخيب ثقة السردار فيه .

وقد تطلبت منه مقتضيات السياسة أن يوصى رسمياً عدة مرات بالرغبة فى عودة عباس العاجلة ، ولكنه وقد أيقن أن الحرب لابد مشتعلة بين بريطانيا العظمى وتركيا ، وجه نظر لورد كتشنر سراً إلى أن عباسا كثير الزلل ، وأن غيابه خير من حضوره .

وكان حتما عليه فى نفس الوقت أن يزن مركزه « كقائم مقام خديو » فقد ألقيت على كاهله مسئولية خطيرة دون أن يتلقى أية معونة من الخديو الغائب ، وواجهته معضلة لها أهميتها الدولية ، وهى مشكلة شديدة الخطورة لها ألوان مختلفة متباينة كأنما قد ركبت من مائة مشكلة مندمجة .

فكان لديه فى بلاده جيش احتلال بريطانى ، يعرض وجودُه مصر لخطر الهجوم عليها فى أية لحظة . فأصدر رشدى باشا للشعب المصرى بيانا أوضح لهم فيه هذا الموقف ، ثم أعلن عدة تدابير راجياً أن تؤدى إلى حيدة مصر ، وحرم على المصريين الدخول فى اتفاقات مع أبناء البلاد التى تحارب بريطانيا العظمى ، أو إقرار أية قروض تقدمها هذه البلاد .

ولم يكن رشدى باشا مدفوعا فيما اتخذه بمحض رغبته وحدها ، وإنما تلقى فى هذا بعض الضغط من دار الحماية ، وقد راعى فى ذلك جميع الظروف ، ولو أنه سلك غير هـذا السبيل لاستتبع امتناعه عن تحديد مركز مواطنيه دون ريب عملا سريعاً من جانب الحكومة البريطانية ، وليس هذا العمل سوى عزله من رياسة الوزارة ونيابته عن الخديو وضم مصر .

وقد كان لبريطانيا كل الحق فى خوفها حتى لايعتور الخطر طريق مواصلاتها إذ كان الشعور فى كثير من أنحاء مصر عند نشوب الحرب معاديا لبريطانيا إلى مدى بعيد ، وبدا أن الكثير من الأحزاب منقادة فى إتجاهها لنفوذ الساطان الواهن العقل الذى وضع على رؤوس البحارة الألمان الطربوش التركى التقليدى .

وكان هناك آخرون يرجون الفوز لتركيا وأنصارها ، ولـكنهم يتمنون فى نفس الوقت ألّا يكون لهذا الفوز عندهم أى أثر ، فـكان شعورهم نحو السلطان وديا إلى حد يتمنون له معه أن ينتصر على قوات أوروبا ، ولـكنهم مع ذلك يمقتون أشد المقت أن تعود مصر مرة أخرى تحت نير الأوتوقراطية العثمانية .

فـكان الموقف لذلك غريباً ولدته عقليات عجيبة ، ولـكنه يدل على أن الـكثير من عناصر البلاد معاد للحلفاء ، وعلى وجه خاص للدولة التى أهملت أن تضم مصر رغم توالى الأيام منذ ضرب الاسكندرية ، ولـكنها تدخلت فى شئونها فى شىء من العنف وعلى نحو يختلف كل الاختلاف مع الأسلوب الشرقى ، ولا يتفق وروح الشرق بأى حال . وكانت البلاد قد استردت استقرارها ، فـكان المال فى خزائنها ، وازداد الدخل زيادة كبيرة ، واستعيد السودان تحت إدارة ثنائية ، وشيدت على النيل سدود هائلة تضمن لمياهه أن تجرى فينساب الخير ، دون إنقطاع ، فلم يبق من الإفلاس غير ذكراه .

ولـكن بين الشرقيين كثيرون لايعجبهم الروح الغربى ، فهم إن لم ينظروا إليه فى شىء من الـكراهية ، رأوا فيه الـكثير مما لايتمشى وميولهم ، فهو يعمل على المساواة بين الطبقات ، بينما فى الشرق حتى الآن ، لايرافق السادة العامة ، فقد كانت الهوة بين الباشوات والفلاحين لا تزال عميقة ، و إن لم تعد للباشوات صبغتهم الأوتوقراطية التى كانت لهم من قبل ، وبدأ الفلاحون وقد ضمنوا لأنفسهم من حقولهم غلة مؤكدة يتذوقون لأول مرة ثمار الاستقلال ، وكثيرهم الذين كانوا ينظرون إلى هذا الحال شزراً ، وفى بلاد هذا لونها تندر حتما الفرصة التى تهيئ للصعود والارتفاع .

ولقد كانت هناك إلى جانب ذلك رغبة ليست بالعجيبة تميل إلى الانحياز للجانب الفائز . وفى الأسابيع القليلة الأولى للحرب كان الجيش الإنجليزى رائعاً

غير أنه كان ضئيل العدد فلم يصمد فى بلچيكا للقوات الحربية الألمانيـة الهائلة ، وارتد أمامها وكأنها لم تحفل به ، وكان حتما أن يجمع الجيش الضئيل العدد شمل نفسه ، وأن يلم قوته ويكر راجعاً يواجه خصمه . فغمرت مصر روايات هذا الارتداد البريطانى .

وسأل المصريون أنفسهم ، كيف تستطيع بلاد مثل إنجلترا بجيش قليل العدد أن تقاوم ألمانيا التى لابد سيقف إلى جانبها فى النهاية سلطان تركيا ، وحقيقة كانت الحروب البلقانية قد أنهكت الشعب التركى ، إلا أن تركيا كانت واسعة الأرجاء ولها موارد لا حد لها . ولـكن إنجلترا لم تكن — على الخريطة على الأقل — شيئاً تافها وضئيلا إلى أبعد مدى ؟

غير أنه كان بين المصريين من ذكر ضرب الاسكندرية ، وذكر أن لبريطانيا العظمى أسطولا ، فسأل هؤلاء أنفسهم ، أى نهج يسلـكه الألمان المغرورون إذا قدم الأسطول البريطانى ؟

وذهب غيرهم إلى أبعد من هذا المدى ، فرأوا الأسطول البريطانى يسيطر على البحار ، ولهذا أثره دون شك على ثروة البلاد ، ولن تسمح بريطانيا العظمى لمصر أن تمد أعداءها بالقطن يتخذونه لذخيرتهم ولا بالقمح فيتخذون منه غذاء ، وربما كان من حسن السياسة بعد كل هذا ، البقاء مع الجانب الذى تؤثر عداوته ، أو حسن الاتصال به فى التجارة أكبر تأثير .

وكانت محاصيل عام ١٩١٤ مهيأة لأسواق العالم ، غير أن الأسواق تبدلت ، وسيطرت السفن الحربية البريطانية على الطرق التجارية .

وامتلـكت بريطانيا الموقف فى شىء من الحذق بتعاقدها على شراء الأقطان المصرية جميعها لحسابها ، واتصلت دار الحماية مرة أخرى بالقائم مقام الخديو ، فلم يلبث الـكثيرون من المصريين والأتراك الذين كانوا ينشرون الدعاية ضد بريطانيا

أن رأوا أنفسهم فى طريقهم إلى مالطا ، نتيجة لهذا الاتصال . وقد رافقهم إلى المنفى بضع مئات من الأعداء . وبدأ المصريون يدركون فى بطء ، ولكن عن يقين أنه إذا كان هناك خير فى الحياد ، فإنما يكون هذا الخير فى جانب الدولة التى تستطيع عند الحاجة أن تضرب الضربة الحاسمة . وقد ارتكب عباس ببقائه فى الآستانة خطأ شنيعاً ، وكان تعاقب الأيام يزيد هذا الخطأ ظهوراً ، ويبعد احتمال عودته إلى منصب الخديوية .

وكانت تركيا تسعى إلى الحياد فى أسلوب عجيب ، فقد كانت تحشد جيشا فى سوريا على مقربة من قناة السويس والقوات البريطانية فى مصر ، لتظهر قوتها .

وفى ١٨ أغسطس سنة ١٩١٤ بعثت بريطانيا للحكومة التركية « المحايدة » بيانا تعهدت لها فيه « بأنها تضمن لها استقلالها أمام كل اعتداء أجنبى ، إذا هى لزمت الحياد الصريح خلال الحرب » .

غير أنه بدا سريعاً أن تركيا قد اعتزمت الاشتراك فى الحرب ، فقد كان الذهب الألمانى ينساب إلى الآستانة من برلين ، وكانت الأسلحة والجيوش الألمانية تنصب فى أملاك السلطان انصبابا . وبدأت القوات التركية فى سوريا تتحرك نحو غزة والعريش ، ووضعت الألغام لحماية الأسطول التركى من كل إعتداء ، وصدرت الأوامر للعرب بأن يتهيأوا للنضال .

وبدأ أكتوبر ثم انتهى ، وما يزال السلطان يعلن حيدته ، حتى تخلصت جويبن فجأة من مرساها فغادرت مياه البوسفور وأقلعت ، مستكملة للطرابيش الحمراء ، مخترقة البحر الأسود ترافقها السفينة التركية حميدية ، وهنا ضربت الموانى الروسية ، فانتهى بذلك الحياد المزيف .

وأصبح من المؤكد عند ذلك أن عباساً لا يمكن أن يعود إلى مصر ،

ولـكنه كان حتما أن تعلن الحـكومة البريطانيـة عن نواياها ، فازداد اعتقاد فؤاد بأن نبوءة اعتلائه العرش توشك أن تتحقق .

وفى الثانى من نوفمبر أعلنت بريطانيا الأحكام العرفية فى مصر ثم لطفت الإعلان بتصريح أوضح فى دقة الأسلوب الذى تنفذ به هـذه الأحكام العسكرية رغبة فى تخفيف وقع الصدمة ، وترضية لرشدى باشا الذى هدد بالاستقالة معلنا أنه سوف لا يستطيع أن يكبح جماح العناصر الدينية المتعصبة التى سـتداخلها الريبة إذا أرغمت مصر رسمياً على الاندماج فى صفوف هؤلاء الذين أعلنوا العداوة لتركيا .

وعلى الرغم من أن كلمة « الأحكام العرفية » تنطوى على القسوة وتبعث روح الاشمئزاز ، فقد فسرها التصريح للمصريين على أنها إنما تعنى فى الواقع تحويل مسئولية إدارة الشئون ، فترفعها عن كواهل السلطات المدنية ، لتضعها على عاتق السلطات العسكرية ، كما أوضح إلى جانب ذلك بعض النقط الأخرى التى كانت لها أهمية خاصة ، واحتوى على وعد أثبتت الظروف فيما بعـد أنه روعى لمدة تقل عن الأسبوع .

فأعلن أن بريطانيا العظمى قد أخذت على عاتقها وحدها مسئولية السـير فى الحرب ، وأن لشعب مصر أن يقف بعيداً يستمتع بموقف المتفرج ، وعليـه أن يمتنع عن تقديم أية مساعدة للأعداء ، وأكد أن بريطانيا ستحارب « دون أن تطلب إلى الشعب المصرى مساعدتها » .

ولم تكد تنقضى على هذا البيان أيام قلائل حتى دعت الضرورة إلى دعوة الجنود المصريين للمعاونة فى الدفاع عن منطقة قناة السويس .

وفى الخامس من نوفمبر عام ١٩١٤ أعلنت الحرب بين بريطانيا العظمى وتركيا ، غير أنه أتيح للأمور فى مصر أن تواصل سيرها ستة أسابيع أخرى ،

فلم تعلن بريطانيا العظمى حمايتها على مصر إلا فى ١٩ ديسمبر ، وفيه أعلنت رسمياً عزل عباس الثانى من منصب الخديوية .

وهنا أطلت فرصة الأمير فؤاد ثم اختفت .

والواقع أن الحكومة البريطانية لم تدرس فى جد كفايته لمنصب الخديوية فاختارت بدلا عنه أخاه حسيناً ، فرجعت باختيارها هذا إلى الوضع العثمانى الذى يولى الحكم أكبر الورثة الذكور سناً . ومهما يكن من شىء فقد كانت للأمير حسين مزايا تزكيه . فكانت له ضياع واسعة أدار شئونها على نحو أثار الإعجاب الحار فى نفوس البريطانيين والمصريين ، وكان إلى جانب ذلك محبوباً إلى مدى بعيد ، وكانت أيام الحرب تتطلب شخصية محبوبة ، فالجو مكفهر والرأى العام فى حاجة إلى قائد تتطلع إليه جميع العناصر فى ثقة واطمئنان ، وكانت إلى جانب ذلك قد مرت على حسين خلال حياته عدة حوادث أثبتت أمانته وشجاعته .

فتولى « الأمير حسين كامل » الحكم مع لقب « سلطان » .

الفصل السادس

الحمـــاية

قدر للأمير حسين أن يلبس رداء الملك ليفقد كامل محبة الناس له وإعجابهم به ، وليمسى بعد ذلك أبغض الناس فى بلاده .

فكان هناك من قال إنه باع مصر لبريطانيا بثمن بخس ، وإن الأمير فؤاداً كان خيراً منه لمواطنيه . غير أن فؤاداً لزم الصمت فى حكمة . وكان قد منى بعدم التوفيق فاعتكف بضعة أيام يستعرض موقفه ، على أنه ليس هناك شىء يستطيع أن يكبح روحه الوثابة الطموحة طويلا ، فسرعان ما ظهر ، فعاد مرة أخرى يأخذ قسطه الموفور فى حياة القاهرة .

وإنه لمن العسير أن نصور حدة الشعور المصرى الذى أثارته حوادث شهرى نوفمبر وديسمبر عام ١٩١٤ ، فى تفصيل .

فقد كان إعلان الحماية ، وعزل عباس الثانى ، وتولية « السلطان حسين » إلى جانب زوال سلطان العثمانيين زوالا نهائيا كافياً لقذف مصر فى معترك أخطر إشكال عرفه العالم ، فضجت مصر تطلب قطع المواثيق وتأكيد العهود ، إلا أن تجارب اثنين وثلاثين سنة مع الأحتلال البريطانى لم تدع فى نفوس المصريين ثقة كبيرة فى صدق انجلترا ، فلقيت الوعود التى قطعها باسم الحكومة البريطانية الجنرال مكسويل General Maxwell قائد القوات البريطانية فى مصر عند ذلك ، والسير ملن شيتهام Sir Milne Cheetham القائم بالأعمال فى دار الحماية البريطانية وقتئذ ، القليل من الحماس والكثير من الشك والارتياب ،

وربما كانت كلمة « تكذيب » هى أدق تعبير عما استقبلت به تلك الوعود .

والواقع أن المصريين أحسوا أن عزتهم قد جرحت ، وأن حقوقهم قد اغتصبت ، وكان لهم فى ذلك شىء من الحق . وكان من سوء حظ مصر أن استدعت السلطات العليا فى لندن ، لورد كتشنر ، وقد كان رجلا معقولا ومحبوباً وهو الذى حارب مع الجنود المصريين فى السودان ، فارتفع بهم من حضيض الفوضى إلى مرتبة كانوا فيها على خير ما تكون الجيوش كفاية ونظاماً . وهو رغم ميله إلى الأوتوقراطية يدرك اتجاهات الشرقيين ولون تفكيرهم ، ولذلك لم يكن من الممكن أن يرتكب مثل هذا الخطأ الشنيع فيمس إحساس المصريين فى وقت كانت بلاده منهمكة خلاله فى نضال عنيف من أجل وجودها .

وكان فى توجيه الضربة الأخيرة إلى تركيا ، وفى خطو مصر إلى الوراء سياسيا بدلا من تقدمها إلى الأمام ، ما أثار الإحساس بالخيبة المرة فى نفوس المصريين ، ولقد كان من اليسير فهم هذا الإحساس ، ولكن الغريب أن بريطانيا لم تكن محبوبة أبداً ، ورغم ذلك لم يثر إعلان الحماية شعور الشعب كثيراً ، غير أن المصريين كانوا قد جرحوا فى لون أو ألوان خادعة أخرى ، ولم يكن جرحها نظيفاً بل كان شبيهاً بالجرح الذى ينذر بالتعفن ، ولكن المأساة كانت تنحصر فى أن بريطانيا العظمى ، التى لا تتردد فى الجهر بالخطأ إذا ما تطلبت الظروف ذلك ، كانت منهمكة إلى مدى بعيد فى القيام بأعباء الواجب الهائل الذى كان عليها أن تقوم به فى القارة ، حتى أنها ظلت تجهل طويلا مدى الضربة التى وجهتها .

وفى لفتة عقلية عجيبة ، اختارت مصر لنفسها أن ترى فى انفراد بريطانيا العظمى بشئون الحرب دون مساعدتها العسكرية ، إحتقاراً لجيشها . وليس هناك من يعرف خيراً من المصرى أن مواطنيه أقرب ما يكونون إلى النظام

المدنى ، وأنهم ليسو عسكريين كالأتراك ، ولكن المصرى شديد الحساسية فى هذه الناحية ومن اليسير أن تجرح كبرياءه .

وكان استمرار الحرب يزيد فكرة امتهان قوات مصر العسكرية رسوخا ، وكان فى توافد آلاف الجنود البريطانيين إلى مصر ما بلغ بهذه الفكرة حدتها ، وبدا كأنما المصريين لا يصلحون إلا لفرق الأشغال العسكرية ، ولمعاونة الشرطة فى حالات الاضطراب المدنى ، دون أن يكون فى طوقهم القيام بالواجبات العسكرية الأخرى .

وإنى لأذكر مشهداً يبين فى وضوح إلى أى مدى بلغ الإيمان بكفاية المصريين فى ذلك الحين ، فقد حدثت بعض الاضطرابات بين سكان القاهرة الملكيين وثار الشعور فى حدة ضد بريطانيا ، وحدث أن رأيت جندياً استراليا فى لباس المستشفى الأزرق ، وقد وقف إلى أحد المنعطفات دون غرض ، فاقتربت منه ، ثم اقترحت عليه ، وهو لا يحمل سلاحا ، وفى موقف لا يستطيع معه أن يحمى نفسه إذا ما هوجم ، أنه خير له لو لجأ إلى أى مكان آخر أقل خطراً . فضحك فى مرح ثم قال :

« هذا صحيح ، نهرب . . . ، إن معى زميلين خلف المنعطف يحملان عصاتين ، أما أنا فأقف للإغراء ! » .

وقد حولت بريطانيا العظمى ، فى نضالها للاحتفاظ بمصر ، دلتا النيل إلى معسكر هائل حاشد ، فثبت من هذا أن مصر لا بد ستسلك طريق الحرب مهما تكن معونتها العسكرية قد احتقرت .

ففى فبراير سنة ١٩١٥ ، زيدت الحامية البريطانية الصغيرة بقوات من الهند ، واستراليا ، ونيوزيلند ، حتى تستطيع أن تواجه الهجوم التركى الذى

يهدد القناة ، والذى يقوده جمال باشا ، الذى كان يوغل فى الصحراء ، ومعه ١٤٫٠٠٠ رجل ، جنوب سوريا .

ووصل الأتراك إلى ضفة القناة فى كامل مدافعهم ، يحملون معهم قواربهم للعبور عليها ، وكانت مصر نفسها شديدة الاضطراب إذ اعتقدت أن الخديو المخلوع فى طريقه إليها ، وأن الذين عاونوا حسيناً سينالون جزاءهم .

و بعد قتال عنيف استطاع الأتراك خلاله أن يضعوا بعض قواربهم على سطح القناة ، منى الأعداء بهزيمة كانت خسارتهم فيها فادحة ، وشهدت القاهرة طلائع أسرى الحرب فى مئات الأتراك المهزومين ، وارتد جمال باشا نحو الشمال ، وانسابت إلى القاهرة والإسكندرية والقنطرة والإسماعيلية ، فرق جديدة من الجنود البريطانيين .

و إذا كان المصريون الرقيقو الحساسية قد نالهم شئ من المهانة فى معاملة الجنود البريطانيين لهم ، نشأ عن افتقار هؤلاء الجنود لعوامل الغبطة ، وعن أن غالبيتهم من الشباب الذين تنقصهم الخبرة والتجربة ، والذين لولا طاعتهم لإله الحرب لما غادروا مسقط رأسهم ، فإنهم لا يستطيعون أن يقولوا أنهم خسروا شيئاً من مالهم . إذ كان المصريون يربحون كما لم يربحوا من قبل ، والجنود يدفعون أموالهم عن طيب خاطر ، وكان فى إقامتهم فى الصحراء ما تجمعت به أموالهم ، حتى إذا هبطوا إلى القاهرة والإسكندرية ارتفعت الأسعار . فإن نحن تجاوزنا عن الثروات التى تخلفت عن الإتجار فى القمح والأقطان ، لألفينا إلى جانبها تلك الثروات التى تقل عنها والتى نشأت عن الإتجار فى السلع الصغيرة .

فقد حدث أن ذهب فى ذلك الحين جماعة من الضباط البريطانيين ، إلى مطعم صغير لا تلوح عليه سيماء الفخامة ، فدفع هؤلاء الضباط مائة قرش أى ما يوازى جنيهاً استرلينيا ، ثمناً لقطعة من اللحم ، ورغيف وقليل من البطاطس

وكانوا سعداء بتلك البطاطس لأنهم لم يذوقوها منذ شهور .

وكان هناك إلى جانب ذلك من حصل على السلع الدقيقة من القدس ونزاريت و بيت لحم ، وقد استمر سيل هـذه السلع دون انقطاع رغم وجود الجيش التركى بين القناة وأماكن الصناعة ، غير أنه لا الجنود الذين اشتروا هذه الهدايا ، ولا أقاربهم فى بريطانيا العظمى أو استراليا ، الذين تلقوها فى كثير من الغبطة والتقدير ، كانوا يعرفون أن خشب الزيتون الذى صنعت منه أكثر هذه الهدايا لم يكن صادراً عن جبل الزيتون لأنه كان عارياً ، ولقد علوت مراراً جبل الزيتون ، فشاهدت أشجار الزيتون تعلو التلال المحيطة به فى كثرة ، بينما لاحظت أن القمة التى اتخذت اسمها من هذه الأشجار قد خلت منها تماماً .

كانت مصر تثرى من وراء الحرب ، وكان هذا الإحساس بالمقدرة المالية مما أكد الشعور بأن بريطانيا العظمى إنما تهتم باكتساب الحرب ، وأنه ليس لديها متسع من الوقت تختص به مصر ، ولقد كان هذا صحيحاً ، ولـكن الواجب كان يقضى ببذل بعض الجهد لإخفاء هذه الحقيقة . فدفع هذا ، الشعب الحساس إلى البحث عن مواضع الخطأ ، وليس العثور عليها بالأمر العسير فى دنيا ألهبتها الحرب فبعثت الهوس فى كيانها .

ولم يزد الود عند ما عرف أن الفرق البريطانيـة كانت تقترع فيما بينها لتعرف الذين سيمنحون وسام النيل الأزرق من أفرادها بالاشتراك فى لعبـة « الشايب » التى قيل لى أنها لم تخرج عن أن تكون لعبة توزع فيها كمية كاملة من أوراق اللعب ، فمن أخذ منهم فى نصيبه « الجوكر » قيل إنه سيفوز بالنيل الأزرق . وكانوا يطلقون عليه كلمة Blue Boil بدلا من Blue Nile .

وقد احتفظ الأمير فؤاد بنفسه جهد الطاقة بعيداً عن الناحية الساسية من الحرب ، ولـكنه شغل نفسه بجمعية الهلال الأحمر المصرية ، وقد أنشئت هـذه

المؤسسة عام ١٩١٢ ، بعد نشوب حرب طرابلس ، وقد أريد لها من وراء تخفيف آلام الإنسانية أن توثق عرى الأخوة التى تربط بين أجزاء العالم الإسلامى .

وفى مارس سنة ١٩١٦ طلب الجنرال مكسويل قائد القوات البريطانية فى مصر فى ذلك الحين ، إلى الأمير فؤاد ، أن يحيى هـذه الجمعية التى قدر لها أن يغمرها النسيان عقب الحرب الطرابلسية ، والتى يبـدو أن واحداً من الناس لم يفكر فيها ، وهذه حرب أقسى عنفاً وأشد هولا تدور رحاها على أبواب مصر .

فتقبل الأمير فؤاد فى ترحيب تلبية النداء مقتنعاً بضرورة هـذا العمل ، ومندفعاً بالحماسة التى ألهبها فى نفسه الرجاء الذى وجهه إليـه قائد دولة من أهم الدول المحاربة ، وهو يؤمن أن مثل هذا العمل سوف يخفف من حدة انجلترا ، تلك الحدة التى لزمتها فى موقفها من مصر حتى ذلك الحين . فذكر الجمعية بمسئولياتها ، ثم تولى إدارتها فى كثير من اليقظة والبراعة ، فأدت الجمعية طوال الحرب أجل الخدمات وأسماها .

ولقد كان الأمير فؤاد هو القوة الدافعة التى تحرك الجمعية ، وكان فى ذلك الحين فى الثامنة والأربعين من عمره ، متين البنيان ، له شارب أسود معقوف إلى أعلى ، وقد بدا أخيراً كأنه قد بدأ طريقه نحو القمة ، وربما كان انهماكه أخيراً فى هذا العمل الجليل أثراً لشعوره بقرب إدراك غايته .

على أن أهم أعمال فؤاد وأجدرها بالحمد الصادق ، هو إنشاؤه وإدارته مستشفى واسع كبير فى القاهرة ، قد اكتمل استعداده على أحدث طراز فاحتوى على ثلاثمائة سرير ظلت على الدوام مشغولة طوال عامين ونصف العام ، على الأغلب ، بالجرحى من المسلمين العائدين من الدردنيل ، وسوريا وفلسطين . وكان العلاج فى هذا المستشفى من الناحيتين الطبية والجراحية ، وقد تولاه أطباء مصريون ، وممرضات أوربيات لهم جميعاً خير المؤهلات ، بالغاً من الكمال حدا

يضارع أساليب أرقى المستشفيات المماثلة .

وتولت جمعية الهلال الأحمر تسيير القطارات الطبية إلى القنطرة ، و بورسعيد والاسكندرية ، لنقل الجرحى إلى القاهرة مراعية فى ذلك أبلغ وسائل الراحة ، ورغبة من الأمير فؤاد فى الاستيثاق من أن الراحة مكفولة إلى أبعد حدودها كان دائم الرقابة والمرافقة لهذه القطارات ، وكثيراً ما عاون بنفسه فى حمل الجرحى والعناية بهم دون أن يتنبه أحد خارج نطاق المتصلين به فى العمل مباشرة إلى شخصيته ، وليس من شك فى أن ضحايا الحرب المساكين أنفسهم الذين تولى بذاته العناية بهم لم يفطنوا له .

ورأى الأمير فؤاد أن الرعاية الطبية والتمريض ليست وحدها هى الضرورية للجرحى ، بل أنهم متى بلغوا دور النقاهة وجب أن يزودوا بفضلة من المال لنفقاتهم الصغيرة ، فعمد إلى جيبه الخاص يبذل منه على أنه المصدر الأول لهذه النفقات ، على أن عناية الأمير فؤاد قد امتدت حتى شملت أدق الشئون فلم يهمل فى رعايته للجرحى ناحية من النواحى عدا صحته هو ، فكان ينفق فى الأشهر الأخيرة ساعات كثيرة كل يوم فى العمل .

و إلى جانب خدمات مستشفى القاهرة ، بذلت جمعية الهلال الأحمر تحت تأثير الأمير فؤاد الدافق ، معونتها للمؤسسات الطبية وغيرها فى فلسطين ، فكانت تمدها بالمال أحيانا و بالمواد الضرورية أحيانا أخرى ، كما بذلت للسلطات العسكرية البريطانية كامل معونتها فى العناية بالجرحى الأتراك .

ولما اضطر الأمير فؤاد إلى أن يقف جهوده الحارة فى الجمعية عقب اعتلائه العرش ، ظل ميله إليها حياً فعاشت الجمعية . ففى الحرب التى نشبت عقب الهدنة بين مصطفى كمال واليونانيين فى الأناضول عندما كان يظن أن الأتراك شعب محطم مهزوم استطاعت الجمعية أن تبعث لمقر الحرب ما يزيد على ١٨٫٠٠٠ جنيه

لشراء المواد والأدوات الطبية . وفى ذلك الوقت فكر الأمير فؤاد فى مشروع آخر لو أنه أنشىء قبل ذلك لقدر له الفشل ، غير أن فؤاداً كان سابقا فى كثير من النواحى لزمانه ، وكان فى نواح أخرى نهازاً للفرص ، فقد هاله ، وتلك ثقافته أوربية حرة ، أثر عودته إلى القاهرة بعد غيبته الطويلة عنها ، المركز الذى تشغله المرأة المصرية والقيود التى ترسف فيها ، وكان التعرض لمكانة المرأة المصرية فى أى أسلوب أمراً شديد الخطر ، وكان لفت الأنظار إلى ما تعانيه الطبقة العاملة من النسوة الفقيرات أمراً يبعث على الارتياب ، وكانت النسوة أنفسهن فى جهلهن المطلق ، يرين فى كل محاولة لتحسين حالتهن عكس ما يراد لهن ، وكان من الشجاعة الحقة أن يتطوع أمرؤ فيبين لهن لوناً جديداً ، أو شأناً حديثاً لم ينضج فهمه .

فحدث عام ١٩١٦ أن ذهب الأمير فؤاد إلى الاسكندرية فى شأن من شئون مستشفاه فهالته حالة بعض النسوة الفقيرات ، فسرعان ما ظهر « مصنع الأشغال النسوية » فى عالم الوجود ولما ينقضى على زيارته أسبوع واحد .

وكان الغرض من إنشاء هذا الملجأ كما قدره له فؤاد ، أن يكفل للنسوة العاملات ، وعلى وجه خاص هؤلاء اللاتى بلغن أقسى درجات الفقر ، دون نظر لجنسياتهن ما فى شرائع المهن والحرف من خير . وكان فؤاد يرمى بذلك إلى أن يهيئ لهؤلاء التعسات ما يكفل لهن عيشاً تمتنع معه بعض قسوة الفاقة ، وكان حتما أن ينتهى ذلك إلى نجاح آخر من الناحيتين الصناعية والفنية بإنتاج أشغال المرأة ، وعلى وجه خاص ، التطريز والليسيه ، وقد فرض أن تؤخذ الرسومات الضرورية لهذه الأشغال من الفن المصرى فى العصر اليونانى الرومانى ، ومن الفن القبطى ، والفن العربى .

وكان المشروع جديدا فى مصر ، وهى القطر الذى لم تبلغ فيه الأعمال التى

لها صبغة اجتماعية بين النساء ما بلغته من النجاح عند الشعوب الغربيـة ، وهى البلاد التى يبعث مركز الـكثيرات من نسائها على الإشفاق والعطف ، ولم تكن تكاليف المعيشة فيها أيسر من مثيلتها فى أوروبا الصناعيـة ، ولم يكن البذل الملاجئ فى ذلك الحين بحيث يثير المشاعر .

وقد زعموا أن المشروع سينتهى إلى الفشل السريع ، وأن مشروعات فؤاد ستزداد به واحداً مصيره الفشل ، ولـكن الحوادث أثبتت أن فؤاداً لم يحاول المستحيل ، فقد انقضى عام قبل أن يظهر شىء ملموس لـكثرة الصعوبات التى كان لا بد من التغلب عليها ، غير أن المشغل الذى بدأ عام ١٩١٦ بعشر نساء عاملات ، ما لبث أن رأى تحت رعايتـه ١٦٤ امرأة ، وقد بلغ الـكثير من الأشغال التى أخرجها هؤلاء النسوة حدا رائعاً من الجودة فلقيت إقبالا حارا فى شرائها ، وفى العام التالى ازداد عدد التلميذات والعاملات زيادة ظاهرة ، ولما رأى أن التطريز والليسيـه تـكاد تتأخر عن طراز ذلك العصر ، حول مجهود النسوة إلى الاشتغال بالملابس النسوية الداخلية الرقيقة . وقد لقى هـذا التغيير فى تلك الأشغال اليدوية الدقيقة حسن الاستعداد عند ما رأى الأمير فؤاد أن يوسع مشروعه حتى يشمل بنات الأسر الـكريمة التى أخنى عليها الدهر ، فقد سر هؤلاء النسوة أن وجدن هذا اللون من العمل الذى سبق لهن أن باشرن مثله فى بيوتهن . ويرجع النجاح الذى بلغـه المشغل إلى الحزم الذى كان يسوس به الأمير فؤاد العمل ، وإلى بعده عن كل معارضة . وقد بلغت قيمة الأشغال التى صنعتها هؤلاء النسوة فى أحد الأسواق التى أقيمت فى ذلك الحين ٤٠٠٠ جنيه .

ولنعد بعد ذلك إلى حديث السلطان حسين :

فنذكر أنه لما قبل العرش الذى أيأس قبوله فؤداً فى مرارة ، فقد المحبة الرائعة التى كانت له ، ولـكنه استطاع للخير الموفور الذى كان ينساب إلى

مصر أن يسترد الكثير من ذلك التقدير ، عند ما ظهر أنه فى قبوله للسيادة البريطانية ، إنما كان ولو بصفة مؤقتة ، يعمل لخير بلاده . ورغم معارضة المصريين فى مجموعهم لمعاونة بريطانيا طالما كانت هذه المعونة تفرض عليهم مغادرة حقولهم الموفورة الخير والتى تستنفد كامل جهودهم ، فقد بذل حسين جهوداً واسعة للتغلب على الكثير من العقبات التى اعترضت سبيله حتى يواصل تأييده لقضية بريطانيا والحلفاء .

وقد كان يؤمن أن الجيش البريطانى لابد منتصر فى النهاية ، ورضى أن ينتظر حتى تنتهى الحرب ، واثقاً أن الدور الذى لعبته مصر فى مساعدة الإمبراطورية البريطانية فى ساعات شدتها ، سوف يؤهلها لأن تخطو خطوات موفقة فى طريق تقدمها . وعلى الرغم مما أحاط مركزه من المصاعب الخطيرة ، ومما كان يلقاه من استخفاف بمكانته فى الكثير من الأحيان ، فقد كان من الحكمة بحيث آمن بأنه يعمل مع دولة مندمجة فى الحرب ، وأن ما كان يلقاه إنما جاء عن غير قصد أو تعمد ، وأنه إذا ما عرضه عند استعادة السلام فسيكون له وزنه فى القضية التى اعتزم أن يقدمها باسم مواطنيه .

وقد بدا كأنما بات حتما ، وهذا الانحلال يغمر العالم الإسلامى ، وهذه مصر هى حلقة الاتصال الحيوية فى الإمبراطورية البريطانية أن تبذل بعض المحاولات لتسوية مركز بريطانيا فى البلاد ، فدفع حسينا إيمانُه بعدالة بريطانيا ويقينه بأن الانضمام إليها يزيل الكثير من الصعاب التى ولدتها الحرب ، إلى أن يقترح إتخاذ هذه الخطوة . غير أنه لم يكن يعرض هذا الرأى ، وكان مايزال إلى حد ما فى مقتبل حياته حتى مرض ووافاه الموت فى التاسع من أكتوبر عام ١٩١٧ .

وعاد الأمير فؤاد مرة أخرى قريباً من العرش ، غير أنه بدا مرة أخرى كأنما القدر يكذب كلمات العراف الذى تنبأ له بأنه سيموت ملكا .

وكان لزاماً أن تبحث بريطانيا بسرعة عن خلف لحسين ، وتلك أعوام الحرب ترغم على البت فى كل أمر على عجل ، ولابد هنا أن نذكر أن مكان الأمير فؤاد من العرش لم يكن هو الأدنى ، فاتجهت الفكرة الأولى وفقاً لحق الوراثة إلى الأمير كمال الدين بن حسين .

وعلى الرغم من أن مصر لم تكن حليفة رسمية ، فإنها كانت مشتركة فى الحرب ، فقد كانت بعض فرقها العسكرية تقوم بحماية القناة ، و إلى جانب ذلك كان هناك العدد الهائل من فلاحيها الذين سيقوا إلى فرق الأشغال العسكرية ، وكلفوا بقوافل الجمال التى كانت مهمتها صيانة المواصلات بين قوات الإمبراطورية البريطانية المحاربة ، لذلك كان مركزها فريداً فى تاريخ الحرب ، فتطلبت قائداً يستطيع أن يفى للحلفاء بالمساعدات التى يقتضيها الموقف ، وأن يقود البلاد وسط تيه السياسة الذى غمر الحياة العامة .

ووضع الأمير كمال الدين فى كفة الميزان ، فظهر ما يقف رجحانها ، فهذا الرجل ذو الشخصية المرحة الذى يحتفظ لنفسه بحاشية واسعة من الأصدقاء ، كان أول من اعترف بأنه تعوزه المقدرة الضرورية لملء منصب خديو ، وكان من طبيعته التزام العزلة مما دفعه إلى اعتزال الحياة العامة ما سمح بذلك مركزه .

ولقد بوغت الأمير كمال الدين ، وحزت خطورة المرض الذى انتاب والده فى نفسه ، ونظر إلى احتمال وفاته فى استسلام المؤمن بالقدر ، غير أن احتمال دعوته لاحتلال مكان أبيه هالته إلى مدى بعيد ، وأحس بالفزع لذكرى المسئولية ، فسرعان ما أظهر رسالة نسبها لحسين يتبرأ فيها من كل حق فى وراثة العرش .

وكانت ثمة عقبات لا تزال تفصل الأمير فؤادا عن العرش ، فلم يكن له أولاد ، وكانت كراهيته للمرأة و بعده عن إتخاذ زوجة أخرى لنفسه أمراً معروفا ، وكان حسين قد أشار إلى أن ابن عمه الأمير يوسف كمال ذو حق جدير بالاحترام .

ففتح كتاب الأمير كمال الدين الذى رفض فيه العرش والذى كتبه وقدمه فى التاسع من أكتوبر ، الباب من جديد لبحث مسألة وراثة الملك من أساسها ، ولم تكن معرفة الشعب للأمير يوسف كمال بالمعرفة الوثيقة ، وكان الأمير فؤاد قد اكتسب إلى جانب نشاطه الموفور وخبرته الواسعة مقدرة رائعة كانت تعوزه فى سنواته الأولى ، ثم إنه كان حذراً حريصاً سلك بنفسه سبيلا صانها عن اضطراب سياسة بلاده . وقد بذل منذ نشوب الحرب وعلى وجه خاص منذ تقدم إليه اقتراح القائد العام البريطانى جهوداً هائلة موفقة فى إغاثة الجرحى المسلمين . وكانت مؤهلاته خيراً من مؤهلات الأمير يوسف كمال من جميع النواحى ، ثم إن الحكومة البريطانية قدرت مركزه فى حرارة وهى تثق أن نفوذه لدى المصريين أدنى مما كانت تتطلب ، فقد قضى صدر حياته فى أوروبا فأكسبته نشأته فى إيطاليا براعة فى إجادة اللغة الإيطالية وأضعفت عربيته ، بينما كان إلمامه بالإنجليزية بسيطا . فلما فوتح فى الأمر أبدى رغبته الحارة فيه ، فلما مات حسين فى اليوم التالى لرفض ابنه للعرش ، عرف فؤاد أنه اختير ليشغل مكان أخيه فلم يحاول أن يخفى إغتباطه ، وتلقى الجمهور النبأ فى شىء من الاغتباط تعوزه الحرارة فلم يقلق هذا بال فؤاد ، وهو لم يحفل كثيرا فى حياته برأى الجماهير لأيمانه بكثرة تقلبها وبساطة مداركها ، بينما كانت أبسط الكلمات ممن يقدر آراءهم تجرحه وتثير غضبه .

ولما استدعاه سير ريجنالد وينجت Sir Reginald Wingate وأنهى إليه قرار الحكومة البريطانية ، وكان فؤاد يعرف أنه وضع والأمير يوسف كمال فى كفتى ميزان ، وكانت ذكرى فشله السابق لا تزال ماثلة فى خياله ، ألفى أمامه بعض الصعوبة فى تأكيد رجحان كفته ، ولما ذكر أن جثمان أخيه لا يزال مسجى فى سرير الموت أعياه الجهد بين الشك والأمل . فلم يغمض له جفن ،

وقضى الساعات يذرع حجرات داره ينتظر فى قلق الأنباء التى قد تعلن فشله المرير دفعة أخرى ، أو تنهى إليه أمنية حياته .

فلما أعلن سير ريجنالد النبأ تأثر فؤاد تأثراً عميقاً ، ثم تحدث فى سرعة ليخفى انفعال نفسه ، فأعلن رغبته العاجلة فى زيارة ضريحى جده العظيم « محمد على » ووالده الخديو اسماعيل .

وكان أمره الأول الذى أصدره إذ تبوأ عرشه ، أن يهيأ قبره إلى جوار ضريح أبيه وذكر لمن يحيطون به أنه إنما يرمى بذلك إلى أن تكون أولى خطواته تضحيتُه نفسه فى سبيل وطنه وفى سبيل مواصلة الجهود التى بدأها جده محمد على ووالده إسماعيل .

الفصل السابع

بداية الطريق

كانت مصر سعيدة حقاً إذ ألفت لديها ، فى هذا الوقت العصيب الذى تجتاح العالم فيه تلك الأزمة الدولية ، رجلا فى مثل دهاء فؤاد ، فهو إن تكن له بعض الهفوات — وليس بين البشر من تنزه عن الزلل — فإنه دعى لقبول منصب كان حتما أن تواجه فيه المواهب الشخصية اختبارات قاسية دقيقة ، وأن تجتاز عنده الأعمال تيه التيارات السياسية المتعارضة ، فكان لا بد له من الإخفاق فى إرضاء الجميع إذ كان فرضاً عليه أن يسلك سبيلا وسطاً ، فإذا كان قد استطاع أن يقى سلوكه مما يشينه فإنما مرد ذلك إلى فطنته وحسن بصره بمركزه .

وكان من المستحيل على حاكم مصر أن يكتسب دائماً محبة الجمهور ، وتلك الحكومة البريطانية حذرة ، حريصة ، قلقة ، تقف خلفه من ناحية ، وهذه الجماعة الدولية قوية من ناحية أخرى ، وليس عجيباً إذن وذلك هو الموقف أن يكون قد قضى بعض الأوقات رهن قصره فى شبه عزلة فلم يبرحه ، والواقع أنه قضى عهده الطويل الحافل بالمواقف الدقيقة الخطيرة ، ثم مات فى النهاية فى فراشه هادئ النفس مطمئن الضمير ، وقد حزنت لفقده الملايين .

وقد اتخذ لنفسه كامل الاحتياطات فلم يعرضها فى غير ضرورة ، ولكنه إلى ذلك لم يكن ملكا هيابا يخشى ما قد يأتى به الغد .

فكان يؤمن بالقدر أعمق الإيمان ، ويثق فى مقدرة العرافين كل الثقة ،

فهناك من تنبأ له بأنه سيموت ملكا ، وقد تحققت هذه النبوءة ، وهناك من قرأ له كفه فذكر له أنه سوف يموت موتاً طبيعياً ويدفن بين مظاهر الإجلال والتكريم فى القبر الذى جهزه لنفسه إلى جوار ضريح أبيه ، فكان يبدى عن ابتسامته المرة إذا ما توسلوا إليه أن يتخذ بعض العناية الخاصة حول نفسه ، ولكن الخوف لم يدخل إلى قلبه أبداً .

وقد ثبت إيمان فؤاد بالنبوءات عند ما قيل له إن الحرف « ف » فأل خير له ولبيته ، وكان ذلك فى صدر أيامه عند ما كانت آماله فى اعتلاء العرش قاصرة عليه هو لم تتخطه لسواه . فلما ولدت له زوجته الأولى ابنة أصر على أن يبدأ إسمها بالحرف « ف » فسميت لذلك « الأميرة فوقيه » فلما آن لها أن تتزوج ، أصر مرة أخرى على أن تكون للحرف « ف » أفضليته ، وكان أن تزوجت الأميرة فوقيه من فخرى باشا وزير مصر المفوض فى باريس .

ولما تزوج مرة ثانية بعد ذلك بسنوات ثبت على رغبته فى التزام حرف الـ « ف » وقد عقد الزواج فى الرابع والعشرين من مايو سنة ١٩١٩ ، وفى الحادى عشر من فبراير سنة ١٩٢٠ ، ولد له وارث ذكر فأطلق عليه اسم الأمير « فاروق » .

ثم ولدت له بعد ذلك ثلاث بنات[1] أسمين : الأميرة فوزية والأميرة فايزة والأميرة فايقة .

وكذلك سعدت مصر إذ ألفت فى فؤاد حاكما ، كان عند دعوته لقيادة شئونها بعيداً عن الأغراض الشخصية ، لا يقيده أى لون من التعصب ، وقد استطاع فى سن الخمسين أن يكون لنفسه أسلوبه الخاص ، وإن كان بعض هذا الأسلوب قد تكون إلى حد ما قبل اعتلائه العرش .

---

(١) كان هذا قبل ولادة الأميرة العزيزة فتحية .

وهو قد نشأ نشأة قويمة ، وتلقى ثقافة عسكرية ، مكنته من أن يدرك وجوه النقص فى الناحية العسكرية من بلاده ، ومكنت فى نفسه حب النظام والواجب ، وحددت من عزمه فخلقت هذه الروح فى دوائر القصر لونا من التململ .

ولا يذهبن الخيال إلى أن رجلا فى الخمسين من عمره دعى فجأة وهو الأمير الضابط الذى يحيا فى حرية واسعة ، إلى اعتلاء العرش ، يستطيع فى سهولة أن يغير أسلوب حياته . وقد كانت سنواته السابقة حافلة بمختلف المشروعات التى بذل فيها فؤاد جهوداً شخصية هائلة أضنت رفاقه من المصريين الذين تخلفوا عنه فلم يسعفهم نشاطهم العقلى على اللحاق به . ثم إنه عاد من إيطاليا مزوداً برغبة عملية حازمة ، وعلى الرغم من أن الروح الإيطالية كانت أقرب إلى التراخى من هذه الروح البريطانية البالغة الجد ، فقد أوهنت روحه ، جو الصلف والتراخى الذى كان يغمر البلاط .

وقد ذهلت القاهرة إذ علمت أن السلطان فؤاداً يصر على الاستمساك بعاداته ، فهو يستيقظ فى الساعة الخامسة كل صباح ، غير أن هذا الإحساس الذى سرى فى دوائر القصر بالفزع خفت حدته عند ما تبين أن فؤاداً قد خفف من غلوائه ، ومهما يكن فقد كانت عادة الاستيقاظ الباكر بعيدة كل البعد عما كان مألوفاً فى البلاط فنشأت عنها أخطاء كثيرة وقع فيها هؤلاء الذين يحيطون به ، فلم تنس له تلك الدوائر خروجه على تقاليدها . والواقع أنه لما يبعث على الحيرة والارتباك أن تُستدعى إلى حضرة المليك فى الساعة العاشرة عقب إفطار عاجل فتجابَه بأسئلة عن مواضيع درسها صاحب العرش فأجاد دراستها منذ ساعات كثيرة .

وقد قال فؤاد مرة لأحد أصدقائى فى إحدى المناسبات : « إننى أستيقظ دائماً فى الساعة الخامسة » ثم افتر ثغره عن ابتسامة عريضة وقال : « ولكننى

تبينت أن من الخير ألا أغادر جناحى قبل فوات وقت طويل » .

ثم أومأ إلى من يحيطون به وهم رجال قصره الملكيين والعسكريين ، وقال وقد غمز بعينه غمزة لها معناها :

« من الخطأ أن نزعج هؤلاء الشبان » .

وإنى لأذكر حتى الآن تلك الابتسامات الباهتة التى استقبل بها رجال بطانته ذلك النقد اللاذع ، فقد كان عليهم أن يبدوا اغتباطهم ، ولكن الواقع أنهم لم يكونوا فى شىء من الغبطة وأبدوا خفية ما يدل فى وضوح على مبلغ تأثير هذا الاستيقاظ الباكر على أعصابهم وهم الذين يتمنون لو تركوا فى فراشهم حتى الضحى .

والواقع أن فؤاداً لزم تلك العادة حتى حانت منيته فلم يشذ عن الاستيقاظ فى الساعة الخامسة كل صباح إطلاقا ، وكان الشخص الوحيد الذى يلقاه فى هذه الساعة هو خادمه الخاص المثقل الأجفان والذى اعتاد أن يمزح معه ، وقد وقع نظر فؤاد على الرجل المنكود الحظ يوماً وهو يتثاءب فلم يدعه ينسى هذه الفعلة أبداً .

وقد قيل فى القصر ، إن الرجل لم يدخل بعد ذلك إلى حضرة المليك قبل أن يقذف وجهه بالماء البارد حتى يمحو كل أثر للنوم أو للكسل ، إلا أن هذا التثاؤب الوحيد ظل عالقاً بذاكرة فؤاد لم يبرحها .

وكان فؤاد يستحم ويرتدى ملابسه ويتناول إفطاراً بسيطاً كل البساطة ، على أنه كان يقوم على الدوام فى هذا الوقت ببعض التمرينات الرياضية الخفيفة عند منتصف الساعة السادسة ، فقد كان يميل إلى العناية بجسمه وقوامه ، ولو أن هذا الجسم كان لرجل آخر أقل نظاماً لبدا أشد بدانة مما كان عليه فؤاد ، ولكن فؤاداً كان يقلل من طعامه إلى أبعد مدى ، ولو أن تمريناته الرياضية

لم تكن من ذلك النوع الذى يقلل الوزن ، إلا أنه كان فى دوامها وانتظامها كل الخير له .

وكانت لدى فؤاد مكتبة كاملة تبحث فى فنون الرياضة البدنية ، كلها من خير ما وضع فى هـذا الفن ، فكان يولى الموضوع من الناحية النظرية كامل عنايته ، على أنه كان يمانع فى أن يتلوى أو يتثنى على مشهد من الآخرين ، لذلك لم يبدأ تمريناته يوماً ما قبل أن يكون قد استحم وارتدى كامل ملابسه ، فكانت هذه التمرينات إذن من طراز هين رقيق يتفق ورغبته ، وكان إلى ذلك يؤديها فى عزلة مطلقة أمام مرآة كبيرة ، وكان الشخص الوحيد الذى يبيح له شهودها هو خادمه الخاص ، إذ كان واجبـه أن يقف على استعداد يحمل قطعة من النسيج مبللة بمحلول قابض يمر بها فؤاد على وجهه عقب فراغه من هذه التمرينات .

وكانت لفؤاد هيئة خاصة من الموظفين يقفونه على أحدث أنبـاء الصحف العربية والأوروبية عند ظهورها مباشرة ، إذ كان يثق ثقة عميقة فى أن الصحافة خير وسيلة لتتبع سير الحوادث ، وقد بذل ما اطمأن معه إلى سلامة المصدر الذى يمده بالأخبار .

وإلى جانب هـذا المصدر الخاص ، كانت الوزارة ترفع لجلالته قصاصات وقطعاً مترجمة من الصحف والمجلات . وقد تبين فؤاد أن الأخبار التى تصل إليه عن مصدره الخاص ، خير من تلك التى تقدمها الأيدى الحكومية (المصلحية) .

وقد اضطر فؤاد أكثر من مرة إلى أن يلفت أحد الموظفين المبالغين فى حماستهم ، إلى أنه لا ضرورة تدعو إلى الالتواء بالترجمة رغبة فى تخفيف مرارة نقدها ، أو لمحو قطع فيها هجاء خاص بذىء لاذع تسجله بعض القصاصات المرفوعة إليه . وكان فؤاد يجد لذة ومتاعاً فى دراسة صحافة العالم فى الصباح الباكر كل

يوم ، إذ رأى فى هذا الاطلاع مصدراً سخيا بالمعلومات ، كان يدرس الكثير منها فى عناية و يسجلها فى مذكرات يحررها بخط يده . وكثيراً ما كانت رغبته فى إثارة بعض الوقائع الغريبة أو الآراء التى يتمنى الكثيرون أن يكون قد نسيها منذ بعيد ، مصدراً لارتباكات مرة بين أعضاء بطانته .

ولم يكن ارتياح فؤاد للصحافة « المتطرفة » بأقل من ميله إلى الصحافة الموالية ، وقد كانت دراسته الدقيقة للحوادث هى الدافع له على الوقوف فى مواقف الحزم فى كثير من المناسبات ، وهى التى مكنته من أن يكون مستقل الرأى إزاء الوزراء الذين كان فى نهجهم بعض العسر . وكذلك مكنت له من أن يراقب بعين حذرة أفراد أسرته الكثيرى العدد (ليس القصد طبعاً أطفاله) الذين ورث لهم بعض الريبة .

وكان فؤاد يجيد قراءة أوراق اللعب ، وطالما أنفق الكثير من وأقات فراغه وقد نثر أمامه تلك الأوراق محاولا معرفة المستقبل ، و بينما كان هو على يقين من أنه سيموت فى فراشه بدت له نبوءة جديدة تشير إلى أن ابنه سيفارقه ، فلم يأبه للأمر عندئذ ، غير أنه حدث أن سافر الأمير فاروق إلى انجلترا .

وكان فؤاد يتلقى إلى جانب الصحف والمجلات المصرية ، الكثير من المطبوعات الأجنبية التى كانت ترد تباعاً فيقرأها فى مواظبة ودون انقطاع ، وكانت له معاملات موصولة مع الكثير من المكتبات الشهيرة ، فكانت تصل إليه على الدوام الكتب الجديدة فى التاريخ والعلوم ، والأدب ، والفن لاطلاعه الشخصى ، وأغلب هذه الكتب كانت ترد فى طبعاتها الفاخرة .

وكانت ترد إليه باستمرار أكثر من إثنتى عشرة صحيفة يومية فرنسية ، وكذلك أكثر من عشرين مجلة وصحيفة مصورة ، أما عدد الصحف الإنجليزية فكان أقل من ذلك لصعوبة اللغة ، أما الصحف والمجلات الإيطالية فكانت

هى الغالبة فى العدد . وإلى جانب كل ذلك كان مشتركا فى ثلاث شركات مهمتها جمع قصاصات الصحف ، واحدة بريطانية ، والثانية فرنسية ، والأخيرة أميركية .

وكان فؤاد يجد لذة ومتاعا فى موضوع الخلافة ، وفيما قام به مصطفى كمال فى فصله السلطة الزمنية عن السلطة الدينية ، وكان كذلك يكثر من الأسئلة حول حركة المهراجات المشئومة فى الهند حيث اعتزم الكثيرون من المؤمنين ، وقد أثارتهم الشروط التى فرضها الحلفاء الظافرون على تركيا ، أن ينفضوا عن أقدامهم غبار بلاد كانت تحت السيادة البريطانية .

وقد أدركت فى ذلك الحين أن فؤاداً يرى أنه سوف يحتل مكان الخليفة وسلطان تركيا المخلوع فى عيون المسلمين ، وقد أيدت الحوادث التالية هذا الشعور .

غير أنه اصطدم فيما بعد مع ابن سعود حول هذه النقطة فى مناسبة سفر المحمل من مصر ، وكان الملك بن سعود لمركزه كوالى مكة المكرمة يكتسب لنفسه مسرعا فى عقول المسلمين تلك المكانة السامية التى كانت للخليفة فى استانبول ، فاعتزم فؤاد غيرة على مركزه أن يحتفظ بحقوقه القديمة ، فرأى أن تستمر عادة إيفاد جماعة من الجند ترافق الكسوة فى طريقها إلى الكعبة .

وكان فى ظهور الجنود المصريين فى تلك المملكة الشديدة التدين ، وعلى مقربة شديدة من مكة نفسها ما أثار بعض الخوف فى نفوس الوهابيين الذين ينفذون تعاليم الإسلام فى جد وصرامة ليست معروفة فى أى جهة أخرى ، ولكن فؤاداً أصر على حقه فى حراسة الكسوة ، فاستتبع ذلك شعور سيىء انتهى بالحوادث التى هزت المسلمين فى عنف فراحوا يتساءلون أكان ذلك مما تبيحه تعاليم القرآن ، وقد هوجم الحرس المصرى على مقربة من المدينة المقدسة ، وألقيت عليه الحجارة وتطور الموقف إلى حد دُعى عنده الجنود الوهابيون . فأصيب

الكثيرون من الجنود الوهابيين والجنود المصريين قبل أن يعود الهدوء إلى سابق حاله .

فتوترت لهذه النتيجة المؤلمة العلاقات بين مكة والقاهرة مدة من الزمن ، ولم يسافر المحمل عدة سنوات .

وقد بذلت قبل وفاة فؤاد عدة محاولات رغبة فى التوفيق انتهت بسفر وفد من مكة إلى القاهرة لهذا الغرض ، غير أن فؤاداً مات قبل أن يبلغ الوفد العاصمة المصرية .

وكان هناك موضوع آخر أبدى فؤاد نحوه عناية ظاهرة ، ذلك هو الإرهاب فى الهند ، وليس الإرهاب الصناعى مع الأسف بالغريب فى مصر ، فكان فؤاد شديد الرغبة فى أن يعرف كل شىء حول انتشار هذا المذهب وأثره فى الهند ، وعلى وجه خاص فى البنغال .

وقد بين له مخبروه مدى الصعوبات التى يصادفها رجال الشرطة فى مراقبة بومباى وكلكتا فى يقظة وحذر بالغين ، ثم السهولة النسبية التى ينقل بها الأشرار إلى الأصقاع المجاورة للهند البريطانية ، آلات الموت .

فكان يهز رأسه عند سماع أمثال تلك التقارير ، وطالما لاحظ أنه من السهل تهريب الأسلحة والذخائر عن طريق الحدود المصرية وعلى وجه خاص فى منطقة القناة ، وكم كان من المستحيل على الشرطة أن تقف ذلك الشر .

وقد ظهر بعد ذلك فى وضوح مدى الضرر الذى أصاب مصر من هذه الناحية عندما ثارت البلاد ، وكان لابد من بذل العناية الشديدة والحذر المتصل عدة أعوام قبل أن يصبح من الممكن إتخاذ خطوة حاسمة تجاه أساليب هؤلاء الذين يثرون من وراء تلك التجارة .

وقد أبدى فؤاد فى لقاء سمح به لصديق لى من رجال الطبقة العليا ، ناحية

رائعة من نواحى نفسه . وقد لاحظ الزائر أنه يتناول المسائل الحديثة فى شىء من الاضطراب إذا هى مسته فى صميم شئونه الخاصة ، وقد راعه على وجه خاص أن يستشهد الملك بعبارات جاءت فى مقال نشرته صحف الصباح نفسه .

وفى هذه الأثناء كان فؤاد شديد الشغف بالاطلاع ، فكان يقضى أوقاته فى الدرس والقراءة ، فلما سمع ملاحظة تشير إلى أن فى مواصلة القراءة والاطلاع الخارجى إلى جانب دراسة أوراق الدولة التى تستنفد عادة ساعات كثيرة كل يوم ، جهد كبير ومشقة ، ابتسم وقال :

« أستيقظ مبكراً فى الصباح لأننى أحب ذلك قبل كل شىء ، ولأنه يعنى بعد ذلك أننى أكتسب معرفة ، والمعلومات فى بلاد كبلادى ضرورية ، وبدونها لايساوى الحاكم شيئاً ، و . . . » .

ثم انطلق بالإيطاليـة :

" La massa ama gli uomini forti. La massa e donna."

تحب الجماهير الرجال الأقوياء ، والجمهور فى هذا كالمرأة .

وأظن أن هنا سر ثورة فؤاد ضـد قصور الحـكومة الدستورية وعجزها ، الذى أبدته بعض وزاراته ، وسر التجائه إلى « حكومات القصر » فى بعض الأحيان ، وهو الدكتاتورية من جميع نواحيها .

وقد كانت عادة فؤاد أن يبدأ التشريفات فى منتصف الحادية عشرة كل صباح ، ثم يواصل العمل فى هذه المهمة دون انقطاع على الإطلاق حتى الساعة الثانية بعد الظهر ، وليس لدى ما يحملنى على الإعتقاد بأن الود الذى كان يستقبل به هؤلاء الأجانب الذين يتشرفون بالمثول بين يديه فى هذه المناسبات كان وداً متكلفاً ، فقد كان رجلا هين اللقاء ، يغرى من لا تثقل عليه زيارته بالعودة إليها مرة أخرى ، وقد كان كثير الارتياب فى المتملقين المصانعين ، هؤلاء الذين كانوا

— إذا عمدنا إلى المجاز — يسقطون صرعى أمامه . وكانت نشأته تضطره إلى أن يلقى إلى الواحد منهم بهذا السؤال « والآن ماذا تريد ؟ » . غير أنه كان يدعه أدبا منه لعينيه تهتفان به .

وقد لزم فؤاد فى حياته نظاما يكاد يكون ثابتاً فكان يتناول غداءه وهو إكلة بسيطة غاية البساطة ، عقب الفراغ من استقبال زوار الصباح ، وكان يستقبل عقب الغداء وزراءه فينظر فى المسائل التى يتقدمون بها ، وكان يخصص بعد الظهر لإصدار المراسيم وتوقيع الأوامر .

فإذا حلت الثالثة والنصف ، كان فى دقات الساعة ما يعلن للوزراء فى جلاء أن الوقت المخصص للعمل الرسمى قد انتهى . وفى ذلك الوقت يعود فؤاد لاستقبال زواره الذين يبدو فى اجتماعه بهم أكثر حرية وهم عادة من طبقة أقل من طبقة الزوار الآخرين .

وكان فؤاد يؤمن بما يؤدى إليه المشى كل يوم من الخير ، فعلى الرغم من أن طرقات القاهرة كانت فى كثير من الأوقات مكانا خطراً للتنزه ، فإنه كان يواظب على رياضته ، وحدائق عابدين لا تحتوى على الكثير من ألوان الفتنة والإغراء رغم العناية التى تبذل نحوها ، لذلك كان فؤاد يتبرم إذا ما احتجزته الضرورة داخل أسوارها .

بينما كان قصر المنتزه أحب الأماكن إلى نفسه ، وهو يقع فى حى الرمل الصحى الهادئ فى الاسكندرية . فحديقته تنحدر فاتنة نحو البحر ، والبحر فى الاسكندرية رائع وجميل . ولم يكن فؤاد أبداً يشعر بمثل السعادة التى كانت تغمر قلبه كلما تمكن من التجوال فى هذه البقعة الرائعة وحيداً لا يصحبه أحد ، إلا أن يكون معه واحد أو أكثر من أطفاله .

وربما ظُنَّ أن فؤاداً لا بد تجهده رياضة المشى التى اختارها لنفسه بعد الظهر

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

وهو الذى اعتاد أن يبدأ يومه فى الصباح الباكر غير أن الواقع أنه كان يقضى الساعات فيما بين السادسة وموعد العشاء بين الكتب والأوراق ، وربما استدعى بعد العشاء كبار موظفى قصره ، والحقيقة أن فؤاداً كان قوى الجلد فى العمل فوق عرش مصر ، فكان فى حدة عزمه وفى مبادرته إلى وضع حل لكل مسألة تعرض له ، ما حمل الذين حوله جهداً مرهقا شاقا .

وكثيراً ما كانت تطول هذه الاجتماعات ، وتمتد حتى الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، فكانت مقدرته على مواصلة العمل طويلا مصدر قلق لهؤلاء الوزراء الذين يكلفون بالحصول على الموافقة الملكية على بعض المشروعات التى يرتاب فيها فؤاد ، والرجل التعب المكدود سريع الإذعان والتسليم ، بينما تدفع الظروف الأخرى إلى الصلابة والثبات ، وفى هذا يظهر السبب فى أن الكثيرين من الوزراء يجدون أنفسهم على خلاف مع أتباعهم .

ولم يكن مرد هذا الإذعان إلى البلاغة الملكية أو قوة الأقناع بقدر ما هو عجز جثمانى عن مواصلة الجهد أمام رجل قادر على أن يتجاهل نداء الساعة ودقاتها الملحة .

ولو لم تنهك هذه الساعات الطويلة التى كانت تنقضى فى العمل والدرس ، رجلا أفنى الكثير من سنواته الأولى حرا يمرح فى الهواء الطلق لأثار ذلك الإنتباه ، ولم يكن فؤاد حاكما يصدر عن وحى عواطفه بل أخذ نفسه بدراسة جميع المسائل التى تمس مركزه و بلاده بدافع من إخلاصه لواجبه .

وقد خلقت ثقافته العسكرية الأولى ، فى نفسه ميلا شديدا لجميع ضروب الرياضة ، ولما كانت سنه عند ما ارتفع إلى منصب السلطنة قد جاوزت به الطور الذى يتمكن عنده من المساهمة الفعلية فى فنونها ، فقد رأى ما وسعت الظروف ذلك ، أن يستمتع الآخرون بما فى ألوانها المنظمة من خير ، وكان يدرك كل

الإدراك اتجاه رعاياه الذى يميل إلى الحياة الوادعة المستقرة ، والذى يرغب عن العسكرية وينحرف عنها ، ولكنه اعتقد أن الأخذ بفنون الرياضة يبعث فى نفوس المصريين تلك الروح التى كانت تنقص جيشه . لذلك ظل يمنح الرياضة تشجيعه فى ألوان مختلفة ، فمرة يشمل برعايته الشخصية جمعياتها ، ومرة يشرف المباريات بنفسه ، وطوراً يتبرع لها بالجوائز من ماله الخاص ، وطوراً آخر يمنح الجمعيات الرياضية مساحات من الأرض تتخذ منها ملاعبها .

وكان فؤاد يحب سباق الخيل ، لذلك طالما شهد حفلاته فى ميدانى الجزيرة وهليوپوليس .

وقد أدخل خلال سنوات ملكه على جميع فنون الرياضة تطورات واسعة ، فلما مات لم تكن هناك مدرسة ينقصها فريقها الخاص للعبة كرة القدم ، وكان الجمهور قد أصبح شديد الشغف بشهود المباريات العامة ، فإن بدا هذا الشغف فى بعض الأحايين عنيفاً ، وإن اشترك النظارة فى اللعب أحياناً بنصيب بارز ، فلا بد أن نذكر أن المصريين كانوا حديثى عهد بنظام الفرق فى الألعاب الرياضية .

وقد احتلت كرة القدم ، بتشجيع فؤاد الشخصى ، من نفوس المصريين مكاناً ممتازاً ، وفى مقدور الفرق المصرية الآن أن تبدى من ضروب البراعة أمام فرق الجيش البريطانى فى مصر ، ألواناً رائعة . وكانت أعز رغبات فؤاد أن يشهد الألعاب الأولمبية قائمة فى الإسكندرية قبل وفاته ، غير أنه قضى قبل أن تتحقق هذه الرغبة ، وقد شرع تنفيذاً لرغبته فى إنشاء ملعب بالإسكندرية يحتوى عند الفراغ منه على ٢٥,٠٠٠ مقعد للنظارة .

وقد تردد فؤاد ، الذى اطلع على جميع التصميمات ، على مكان العمل مراراً ليتفقد مدى تقدمه ، وعند ما يتم ستتخذ له بوابة ضخمة من الحديد المطروق تفتح على ممر فى الملعب يؤدى مباشرة إلى الحجرات التى خصصها لنفسه ،

وسيكون هـذا القسم على طراز عهد النهضة ، بينما سيهيأ القسم الخاص بالملـكة نازلى على طراز لويس الرابع عشر .

وقد وضعت الترتيبات لإتمام الملعب وفق التصميمات التى أقرها فؤاد ، على أن يلتزم الطراز الكلاسيكى فى دقة ، مع تزويده بقسم خاص للسيدات ، ومكان للمتصارعين يتسع لثلاثة آلاف شخص .

وقد ساهم فؤاد فى تكاليف هذا الملعب بخمسة آلاف جنيه من ماله الخاص .

الفصل الثامن

الجهود السياسية الأولى

كان من سوء حظ الأمير فؤاد أنه استدعى ليخلف حسيناً فى منصب السلطنة فى وقت كانت فيه مصر بأكملها ترتاب أعمق الارتياب فى نوايا بريطانيا العظمى نحوها ، وكانت الغالبية العظمى من الشعب لا تدرك الصعاب التى تواجه القصر ، وكانت هذه الغالبية جزعة قلقة ، ضعيفة الإدراك .

وقد هلعت مصر إذ علمت باقتراح حسين ضمها لبريطانيا العظمى ، وقد أقدم على ذلك فى أمسية وفاته ، ولم تستطع البلاد أن تفهم الدوافع التى حفزته لاختيار هذا الاتجاه .

فلما خلفه الأمير فؤاد ، كان حتما أن يتسع مدى إدراك الصعاب التى تحوط الحاكم وإن يكن فى بطء ، واضطر فؤاد عاجلا أن يتخذ أقصى ضروب الحذق والشجاعة ، لا ليضم شتات الوطن و يقوى الصلة التى تربط بين الشعب والحكومة فحسب ، بل ليمحو جو الشك الذى كان يحوط هؤلاء الذين تصلهم بدار الحماية رابطة . فقد كان الذى لا يبدى العداء لبريطانيا العظمى عام ١٩١٧ يعد خائناً .

فى هذا الجو المقلق بدأ فؤاد أيام ملكه ، فرأى بريطانيا العظمى ومصر تتباعدان ، وكانت مصر وقد غمرها تيار وطنية حديث اليقظة والبزوغ ، تزيد الهوة اتساعاً على نحو تضاعف مع الزمن ، إذ انصرمت أيام الحرب العظمى المرعبة القاسية وغمرت العالم فى عام ١٩١٨ أشد النغمات التاريخية سخرية ، تلك التى أطلقوا عليها « السلام » وليس من الضرورى هنا أن نلتوى بالحديث لندخل

فى عقد المؤامرات السياسية التى شغلت السلطان خلال الثمانية شهور الأولى من عهده ، ويكفى أن نقول إن تبدل الوزراء حول معضلة الإصلاح التشريعى ، أظهرت للأمة أن هـذا الحاكم الجديد واسع المطامع ، وأنه يتوق إلى أن يجعل لنفسه نصيباً بارزاً ، والواقع أن الملك فؤاداً اعتزم ألاّ يكون رمزاً عاطلا ، فقد كان موفور النشاط ، واسع المقـدرة ، عرف فى دقة مدى العبء الذى احتمله ليضطلع بالمهمة بنفسه وليكون لسان الحال الرسمى عن الوزراء ، وكان يرى فى منصبه ، ما يسمو به فوق الجميع ، وأن مهمة الوزراء أن يقدموا المشورة ، وأن تقتصر مشورتهم على إبداء الرأى فلا تعدو ذلك لتكون أمراً .

ولم يكن فؤاد يعمل الساعات الطويلة ليستمتع بالتمكن من مهمته فحسب ، ولـكنه كان يرمى إلى السيطرة على الوزراء ، وقد سيطر على الـكثيرين منهم ، فإذا خانته هذه السيطرة عند بعض الوزراء يوماً ، تجاهلهم ، وعمد فى هذه الحالات إلى تلقى المشورة من رجال بطانته ، بدلا من هؤلاء الذين يمثلون الشعب من الوجهة القانونية » .

وعند ما أصبح الأمير فؤاد سلطانا عام ١٩١٧ ، كانت البـلاد تغلى ، وفى نهاية ١٩١٨ كان كل إنسان يبحث عن سبيل الأمان ، وكانت الأزمات كثيرة الحدوث كل يوم ، وانتظر الجميع فى فزع قرب الانفجار .

وكان عام ١٩١٨ أحفل الأعوام التى شهدتها مصر فى تاريخها الطويل بمبواعث الألم ، إذ تيقظت البلاد فيه سياسياً ، وبات كل إمرء حائراً لايدرى ماذا يكون المصير .

ولما طالت الحرب وبات حتما على بريطانيا العظمى أن تعمد إلى موارد مصر فتنال منها ، ازداد عدد الموظفين البريطانيين زيادة مزعجة ، وكان حتما أن تـكثر الرقع فى النظام العريض المعقد الذى لابد لدولة من الدول العظمى المشتركة فى

الحرب أن تبتنيه ، فقد شيدته على غير تصميم ثابت ، فكانت تضيف إليه وتبدل فيه وفق ما تقضى به الظروف ، وكانت الإضافات هى الغالبة فيه ، فانبطح البناء على وجه الأرض ، وتساءل المصريون عما إذا كان ممكناً أن يتحرر وطنهم من قسوة الكابوس .

وقد اكتسب زغلول باشا الذى قاد المعارضة فى الجمعية العمومية عام ١٩١٤ نفوذاً واسعاً فى نفوس المصريين ، إذ عنى خلال المرحلة الأخيرة من الحرب بالوعد الذى قطع لمصر لقاء ما ساهمت به .

وقد كان سعد زغلول ، مهما طعن فى ذلك خصومه ، وطنياً تقدم بمواطنيه خطوات ، وجاهد فى سبيل تغيير العلاقات التى تربط بين بريطانيا العظمى ومصر تقدماً بارزاً ، ونجحت رسالته بين المصريين المثقفين نجاحاً واسعاً .

وهو لم يكن يأبه كثيراً بالوسائل التى يتذرع بها لبلوغ أغراضه ، ولم يكن من الذين يرهبون القصر . فلما انتهت الحرب كان نفوذه من القوة بحيث لا يمكن الشك فيه ، وكان مقرباً إلى القلوب محبوباً ، ولم يكن يقيده مع القصر أو الوزارة قيد أو رباط ، بل الواقع أنه كان مقيداً ، إلى مدى بعيد ، فى اللوح الأسود عند السلطان .

فلم يفهم كل من سعد والسلطان صاحبه ، وفى عبارة أوسع ، كانا كلاهما يرميان لغرض واحد ، ولكنهما كانا متشابهين فى الخلق تشابهاً كبيراً ، فلم يقبل أحدهما أن يكون له شريك فى كفاحه ، وكان فؤاد يرى فى سعد قوة خارقة ويدرك أن سياسته قد تدفع الجماهير إلى استخدام وسائل العنف ، بينما كان سعد يرى فى فؤاد شخصية قوية جبارة بعيدة الإدراك .

وقد وضح مدى الانسجام الذى يمكن أن يعمل فى حدوده هذان الرجلان خلال الأيام الأخيرة للحرب ، ففى اليوم السابق لإعلان الهدنة فى الجبهة الغربية

(فقد أعلنت الهدنة مع تركيا قبل ذلك فعلا ، وأخذت مصر تفكر فى السلام)

ذهب سعد على رأس وفد إلى دار الحماية البريطانية ، وطلب مقابلة سير ريجنلد ونجت . فأغضبت هـذه الحركة غير الرسمية والتى لم تحمل تفويضاً ما ، فؤاداً ، لأنها قطعت عليـه سبيل المفاوضات التى كان يباشرها فى ذلك الحين بمعونة وزرائه مع الحـكومة البريطانية .

ولم يكد سعد يدخل دار الحماية حتى أعلن عن رغبته فى غير تردد ، وإذا هذه الرغبة هى طلب الاستقلال العاجل لمصر ، لا تقبل عنه بديلا ، فأخذ سير ريجنلد بهذه الزيارة ولم يجد ما يعترض به وهذا الوفد داخل جدران دار الحماية ، سوى أن يذكر أنه فى مركز لا يمكنه من إعلان نوايا الحـكومة البريطانية فى نفس اللحظة .

وبعد ذلك بأيام قلائل طلب حسين رشدى باشا رئيس الوزراء إلى وزارة الخارجية البريطانية بوساطة سير ريجنلد ونجت المندوب السامى أن تسمح له بالسفر إلى لندن مع زميله عدلى باشا لمفاوضة الحـكومة البريطانية فى شئون مصر . وكان هذا هو الأسلوب الذى انتهجه السلطان لإدراك نفس الغرض . ومهما يكن ، فقد كان الجواب على هذا الطلب أن الحـكومة البريطانية ترى أولا أن توضع القواعد التى يمكن الأتفاق على أساسها ، وأنها تفضل لذلك تأجيل المفاوضات .

فرفع رشدى باشا فى الحال استقالته من رياسة الوزارة ، ولم يدع كتاب الاستقالة مكاناً للشك فى حرارة التأييد الذى بذله فؤاد فى سعيه فى سبيل استقلال مصر .

فلما أخذ سعد الميدان والتف حوله أشد المتطرفين فى المعسكر الوطنى ، أثار ذلك سخط فؤاد ، وكانت مراجل البـلاد تغلى فى ذلك الحين وتجمع سخطها حول كلمة واحدة هى « الحماية » .

وكان حتما أن يواجه السلطان ، الذى سأنعته منذ الآن بالملك ، وهو لقبه الجديد ، موجة عنيفة من استنكار الشعب ، لأنه كان يعتقد أن خير السبل لقيادة مصر نحو هدفها السياسى ، هو ترقب الساعة التى تلائم الحكومة البريطانية فى أمر له مثل تلك الخطورة .

وسرعان ما شملت الفوضى والاضطرابات العنيفة جميع أنحاء البلاد .

وغزا سعد البلاد ، يعقد فيها الاجتماعات ويجمع التوقيعات التى تفوض للوفد تمثيل شعب مصر . وكان سير ريجلند وينجت يلح على هويت هول فى نفس الوقت لتقبل اقتراح رشدى باشا الذى يرمى إلى القيام بالمفاوضات فى لندن . وكان رشدى باشا قد رفع استقالته فى الثانى من ديسمبر سنة ١٩١٨ غير أنها لم تقبل حتى أول مارس سنة ١٩١٩ .

واعتزم فؤاد ألاّ يقف فى موقف يمكن سعدا من المطالبة برياسة الوزارة الخالية ، وكانت الحوادث تتوالى ، ولو أن سعداً سافر يوم تقدم بمطالبه إلى لندن ، لرحل إليها مبتهجا وقد حمل معه أصدق أمانى مواطنيه ، ولكنه سلك فى حملته التى حملها فى الأيام التالية سبيلا وضع القصر والوزارة فى مكان يبعث الحرج حتى لما تقرر فى النهاية أن يسافر رشدى باشا إلى لندن فى صدر سنة ١٩١٩ ، ألفى رئيس الوزراء نفسه فى مركز يدعو إلى الحيرة .

وسرعان ما تطور الموقف ، و بلغ نفوذ سعد على الجماهير حدا يقضى على كل زيارة بالفشل مهما هيئت لها الأسباب ، وبات من المؤكد أن يكون الرفض والازدراء نصيب كل ما يأتى به رشدى باشا .

وكان الملك شديد الاتصال بالموقف — ولم تدع الصحف شيئا للخيال — وقد استطاع أن يخفى عواطفه الشخصية وأن يقترح حلا وسطا ، وكان هذا منه دهاءا ، من المحتمل أن ينجح . وكان هذا الاقتراح يرمى إلى أن يصحب سعد

رئيس الوزراء فى سفره ، وهو الذى يمثل رأى الوطنيين المتطرفين .

ولم يكن الدافع لفؤاد فى تقديم هذا الإقتراح إعتقاده بأن وجود سعد بين المفاوضين يضمن لمصر نتيجة أكثر خيرا ، وإنما كان يصدر فى ذلك عن دهاء يخفيه .

ولـكنه لم يخف عن رجال حاشيته الأقربين ، أن من الخير لو واجه سعد صلابة انجلترا التى ولدها انهما كها فى شئون أجل خطرا من خلاص مصر السياسى .

وقد استمتع فؤاد بالمنظر الذى تخيله لسعد وهو يناضل الواقع فى لنـدن ، وقدر ما سيكون لمثل هذه الرحلة من الأثر التهذيبى فى نفوس جميع الوطنيين ، والمتطرفين منهم على وجه خاص .

وقد قال فى غضب : « دعهم يدركون كيف تسير هذه الشئون ، فربما ازداد عندئذ تقديرهم لما أديته » .

ولم يستطع فؤاد أن ينسى للزغلوليين حتى آخر أيامه قلة تقديرهم لجهوده ، وقد اعتقد أن هذا التجاهل يرجع إلى قصور فى معرفتهم وفهمهم ، كما يرجع إلى جهلهم بالصعاب التى كان يصادفها فى طريقه .

وكانت هذه الفكرة تثير غضبه على الدوام ، وقد اعتقد أنه أولى بشكر البلاد وأحق بحمدها ، ولم يستطع أن يفهم فى جلاء تلك الأسباب التى كانت تدفعهم إلى احتجاز محبة الشعب دونه .

فلما أشارت الحـكومة البريطانية إلى أنها لا تقر سفر السياسيين الوطنيين الذين ليسو بين ممثلى مصر إلى لندن ، وحيل بذلك بين سعد و بين السفر ، رأى الملك فؤاد خطته تنهار وتنتهى إلى غير نتيجة ، ولو أتيح لسعد أن يسافر فى ذلك الحين لما اعترضت فؤادا الـكثير من المشاكل التى صادفها فى طريقه

فيما بعد . ورأى رشـدى باشا أنه قد آن له أن يستقيل ، فرفع استقالته مزوداً بموافقة المليك المطلقة . وكانت هذه هى الوسيلة الوحيدة التى يعلن بها عدم رضائه عن خطة الحـكومة البريطانية .

واعتقد المصريون أن هويت هول قد أغفلت رغبات مصر الشرعية ، ووثقوا بأن النية مبيتة على محو فكرة الاستقلال فى الناحيتين النظرية والعملية ، فأثار هذا الاعتقاد حفيظتهم وانفجرت عواطفهم ، وأضرب الموظفون ، وسادت الفوضى ، وأريقت الدماء .

وأخفقت انجلترا فى السيطرة على الموقف فى مصر ، وأخذت تحنق على الوطنيين المصريين لتقدمهم بمطالب مستحيلة فى وقت شـديد الحرج ، واعتقدت أن مصر ليست بحيث تعترف بالفضل ، ثم أخذت تشير فى شدة إلى أن مصر قد أنقذت من الإشتراك فى حرب دامية بفضل الجيوش البريطانية ، وأنها أفادت فى حماية هذه الجيوش سنوات من الخصب والغنم الوفير .

والواقع أن وجهتا نظر البـلادين كانتا مختلفتين ، فكانت هويت هول ترى فى مصر طفلا كثير التدلل لا يحتمل ، دائم الصخب فى طلب أشـياء قد لا يكون فيها خير له . بينما كانت القاهرة ترى فى هويت هول سادة أخذتهم العظمة فهم لا يأبهون لشىء ، وهم ينظرون لمصر من وراء منظار ملون رافضين التطلع إلى الحقائق .

والواقع أن مصر لم تـكن بين الأمم المتحاربة إذا قصدنا المعنى الصحيح لهذه الـكلمة ، وهى لم تـكن كذلك حليفة من الناحية الرسمية ، فلما طلبت أن يؤذن لها فى الاشتراك فى مؤتمر السلام لشرح قضيتها أسوة بسوريا ، والعرب واليهود ، رفض طلبها فى شدة .

ولم يقبل واحد من المصريين خلال هـذه الفترة أن يضطلع بالمسئولية

الوزارية ، واضطر الملك فؤاد إلى تسيير الشئون بمعونة موظفى القصر . وكان معروفاً أن الملك يؤيد بلاده فى جهادها لنيل الاستقلال و إن لم يقر سعدا فى سبيله مما أثار نحوه لوناً من الحماسة يشوبه الفتور .

والواقع أنه لم يكن هناك ما يحمل فؤاداً على أن ينظر نحو سعد فى غير فتور ، فقد حدث أن حضر سعد إلى القصر بعد يومين من استقالة رشدى باشا (فى الثالث من مارس) والتمس الإذن بالمقابلة الملكية ، فأجيب إلى طلبه ، غير أن همس البلاط لم يستطع أن يخفى الأهمية التى تنطوى عليها هذه الزيارة ، ولم يدع سعد سبيلا للشك فى نفس فؤاد نحو ما قد يحدث لو أنه ألف وزارة وتولى الجهاد من أجل الاستقلال سالكا سبيل المفاوضات السياسية الملتوية الشائكة .

فكان فى ذلك اجتراء على العرش ليس ثمة ما يحجبه ، وضع الملك فى مركز شديد الحرج .

فعلى مسافة خلف ظهره تقف دولة ضيقت أهوالُ الحرب خلقها ، ومن المحتمل لو أنها أثيرت إلى مدى بعيد أن تعمد إلى نهج يقضى على آمال مصر عشرات الأعوام إن لم يكن إلى الأبد . بينما يقف أمامه جمهور من الرعاع المتطرفين شديدو الصخب يقودهم سعد وأعوانه ، وقد استمد هؤلاء حدتهم يوم رأوا حاكمهم يجابه فى قصره ثم يحذر مما قد يقع من شر إذا هو لم يسلك سبيلا بعينه . وكان هذا الشر دون ريب هو الثورة العامة التى تجتاح فى سبيلها كيان الدولة بأسره فتخلف وراءها بلاداً تسير على أسلوب يماثل نظام الولايات المتحدة .

وكانت واشنطن قد أمست فى ذلك الحين الكعبة الروحية المصريين والسوريين ومن هم على شاكلتهم ، وغدا الرئيس ولسن نبى السياسة العالمية .

وقد سلك الملك فؤاد فى تلك المقابلة الخطيرة سلوكا يحفه الوقار الشديد ، ولما غادر سعد القصر لم يكن قد عرف شيئاً ما عن نوايا المليك ، فقد كان فؤاد فى

هذه المناسبة جافاً ، شديد الإيجاز ولـكن فى أدب كثير . وقد احتاج إلى فسحة من الوقت يفكر خلالها فيما يسلكه نحو هذا الدور المسرحى .

ورأى سعد فى الصورة السلبية التى استقبل عليها نصراً رائعاً . فهو لم يلق ثورة أو جفاء ، ولم يلق القبض عليه ، فلا بد إذن أن يكون الملك قد اهتز وقدر لهذا الحديث خطره . فازدادت لهجته حدة وعنفاً ، وأفلتت اللحظة فلم يعد ثمة مجال للتفكير الهادئ المتزن .

فبات حتما من اتخاذ خطوة حاسمة مهما تكن النتيجة ، وقاية للبلاد من الوقوع فى حرب أهلية من المؤكد أنها تؤدى إلى هدم الاستقرار .

ولم يكن ثمـة أمام فؤاد ، إذا أراد اتقاء العاصفة ، غير سبيل واحدة كان لا بد له من سلوكها رغم اتجاه عواطفه ، فبدا لزاماً أن يفقد سـعد جناحيه ، غير أن هـذا لم يكن فى طوقه ، ولـكن كانت هناك انجلترا ومن المحتمل أن تقبل الاضطلاع بمثل تلك المسئولية .

وقد كان هذا فى مقدورها بل كان حتما عليها أن تقوم به .

فلم يكد سير ملن شيتهام Sir Milne Cheetham نائب المندوب السامى يعلم بما قام به سعد ، حتى بادر فأبلغ هويت هول حقيقة الأحوال ، ولـكى يقف سعداً عند حد حتى تصل أوامر هويت هول ، أبلغه القائد العام شخصيا أن القانون العسكرى لا يزال سارياً ، وأنه يشتمل على عقوبات رادعة لمن يثيرون القلاقل و يعكرون صفو الهدوء . فهز هـذا الإنذار سعداً ، ولـكنه على الرغم من ذلك أجاب على هـذا الهجوم فى اليوم التالى ، وفى هذه الأثناء تكلمت هويت هول ، فألقى القبض على سعد وثلاثة من أبرز رفاقه ، ثم وضعوا فى سكون فوق مدمرة بريطانية أقلعت بهم إلى مالطة .

وكان فؤاد بعيد النظر فأدرك ما قد يؤدى إليه عمل كهذا ، فكان حكيما

فى ابتعاده بنفسه عن الاضطلاع بمثل تلك المسئولية . فلو أنه أقدم على هذه الخطوة لهبت على القصر العواصف ، وعلى الرغم من هذه الحقيقة فقد زعموا له مخطئين ، نصيباً فى هذا النفى ، لذلك بدا من الحكمة أن يعتكف الملك أياماً فى قصره .

وفى اليوم التالى للاعتقال هجر الطلاب مدارسهم وساروا فى مظاهرات فى الشوارع ، وعند ما حل المساء أضرمت النار فى بعض الأبنية ، وأخذت عناصر الغوغاء تملأ كل مكان فتثير الرعب وتبعث الفزع ، ولما بزغ فجر اليوم العاشر من مارس كانت الجماهير الثائرة التى تجمعت فى كثرة هائلة تعمل يد السلب والنهب والحرق والتدمير فى العاصمة . فكان لزاماً أن يستدعى رجال الجيش فوقعت بين الجنود المسلحين والجماهير الثائرة مصادمات عديدة . وفى اليوم التالى هجر الموظفون مكاتبهم ليشتركوا فى إبداء سخطهم ، وامتنع المحامون عن الذهاب إلى المحاكم ، وتطايرت الاضطرابات إلى الأقاليم ، واستدعى جنود الجيش لرد الأعتداء على محطات السكك الحديدية فاضطروا إلى إطلاق النار فى ثلاثة مراكز .

ولكن لم يكد يمضى أسبوع كامل حتى كانت جميع قضبان السكك الحديدية فى البلاد بأكملها قد قطعت ، وهدمت الجسور وأتلفت أسلاك التلغراف ، فأمست القاهرة معزولة عن سائر بلاد القطر . أما الاسكندرية فقد سيطر عليها الرعاع وباتت البلاد بأسرها وقد اشتعلت فيها الفتنة . فقتل ضابطان بريطانيان وخمسة من الجنود ومفتش للسجون على أشنع صورة وحشية ، دون أن يقو رجال الجيش على المقاومة .

وقد قتل الضابطان البريطانيان والجنود فى القطار عند ديروط ، ثم تركت جثثهم حيث هى فلم تنقل من القطار ، وسرعان ما تطايرت أخبار هذه الجريمة الشنيعة تطاير اللهب ، فحيثما وقف القطار كانت تندفع نحوه جموع هائلة جامحة تناضل لتلقى على أشلاء القتلى نظرة ، وبات حتما أن تتضافر الجالية البريطانية

لتضمن الأمن لنفسها بل كثيراً ما اضطر أفرادها إلى النضال دفاعاً عن حياتهم .

ولو أن فؤاداً عمد إلى منازلة الوفديين بدلا من أن يدع المسئوليـة لتحملها كواهل أشد مقدرة على احتمال عبئها ، لما كان هناك شك فى أن يصبح هدفاً لثورة الغوغاء وحنقهم . ولو لم تعجل الحملات التأديبية البريطانيـة بالعمل لاستعادة النظام فى قطر عاثت فيه عناصر التدمير لكان فى اعتقال سعد ورفاقه فناء الدولة .

وكان الملك فؤاد فى قصره فى القاهرة يعرف الموقف على حقيقتـه ، وكان يقدر ما تنطوى عليه تلك الفترة من الاضطراب ، ولـكنه لم يشك أبداً فى أن الجنود البريطانيين سينجحون فى استعادة لون من الهدوء ، ولـكن ماذا تكون النتيجة ؟

لقد كان هو الذى اقترح أن يرافق سعد رئيس الوزراء فى سفره إلى لندن ، وكان هو الذى أبدى رضاءه عند ما قدم رئيس الوزراء فى النهاية استقالتـه . ولـكن ماذا تقول هو يت هول عند ما يعود الهدوء ؟

ولم تكن هو يت هول شديدة الرضاء ، وكانت تعتقد أن مصر لا تعترف بما هيأته لها من خير فى الماضى ، وليس ثمة ما هو أدعى لاستثارة شعور الاشمئزاز من نكران الجميل .

فهل تعلن أن مصر قد أثبتت عجزها المطلق عن إدارة شئونها ؟ أم تصرح بأن الملك قد حاد عن سبيله ؟

وكان لدى الملك فؤاد ما يكفى لأن يشغل فـكره فى ذلك الحين ، ولم تكن عنده وزارة يستطيع الركون إليها .

وشاء حسن الحظ أن يشغل تقلب الحوادث فى تلك الفترة ، هو يت هول إلى أبعد مدى ، حتى اضطرت إلى الانحراف عن المسئولية ، فاستدعت لورد

أللنبى Lord Allenby ، وكلفته بالذهاب إلى القاهرة حيث عينته مندوباً سامياً وقد زودت الفيلد مارشال بالسلطة المطلقة .

فجاء هذا التعيين متمشياً وحظ الملك فؤاد الموفق ، إذ كانت تجمعه واللورد أللنبى رابطة من المعرفة والود المتبادل ، وقد كان اللورد أللنبى فى الميدان رجلا قوى العزم ، يبتنى لنفسه الهدف ثم يعمل جاهداً لإدراكه ، أما إذا خلع رداءه العسكرى فيبدو رجلا دَيناً ينزع نحو الشفقة والعطف ، ويسعى للوفاق والوئام ، لا يميل إلى إثارة النزاع والخصام . وقد رأى الكثير من الحرب حتى باتت تزعجه ريحها وكان يؤمن بأن فى الحرب من الهول والمصائب ما لا سبيل إلى تعويضه ، فكان لذلك يزدرى هؤلاء الذين يهيئون الظروف التى تدفع إلى الحرب .

فلم يكد لورد أللنبى يصل إلى القاهرة حتى درس الملك فؤاد الموقف ، فالتمس اللورد من الملك أن يصدر بياناً يذكر فيه أنه وفقا للنهج النبيل الذى سلكه سلفه العظيم محمد على ، الذى ارتقى العرش فى أشد الأوقات قلقاً واضطراباً ، سيقف نفسه وجهوده لخير مصر ومجدها ، ثم يوصى مواطنيه فى حرارة وجد ، بالإقلاع عن دواعى الفتنة والهياج .

وفى اليوم التالى اجتمع الملك فؤاد والمندوب السامى مرة أخرى ، وفى هذا الأجتماع أعلن الملك رأيه الذى قرر فيه أن السبيل الوحيد لإدراك لون من الهدوء والاستقرار ، هو أن تمهد بريطانيا للدخول فى مفاوضات مع العناصر الثائرة .

فأصدر لورد أللنبى فى الحادى والثلاثين من مارس تصريحاً أعان فيه أن الوقت قد حان ، « ليقدم له المصريون المسئولون تقريراً يبينون فيه الخطوات التى يرونها ضرورية لاستعادة الهدوء والطمأنينة » .

على أن اللورد أللنبى كان قد عرف قبل أن يصدر تصريحه هذا مدى الخطوات التمهيدية التى كانت الضرورة تقضى باتخاذها لاستعادة ذلك الهدوء .

وقد طلب إليه الملك فى الحديث الودى الذى دار بينهما ، العمل على إطلاق سراح سعد ورفاقه ، إذ كان يعتقد أن تلك هى السبيل الوحيدة لاستعادة الطمأنينة العامة ، واستبقاء سامى مكانته ، وقد استطاع أن يقنع لورد أللنبى بهذا الرأى .

فظهر فى ٧ أبريل سنة ١٩١٩ بيان عليه توقيع المندوب السامى يعلن أن سعداً قد أطلق سراحه ، وأنه أصبح حراً له أن يغادر مالطة إلى أى مكان يريد .

فبدا هذا فى بريطانيا العظمى على أنه استسلام لعناصر الفتنة ، ولكن بريطانيا كانت بعيدة عن عواطف المصريين بعداً لا يمكنها من إدراك ميول الرأى العام . إذ الواقع أن هذه الحركة كانت من الحكمة والبراعة السياسية بحيث أعادت للبلاد الهدوء ، وعاد الموظفون إلى أعمالهم تدريجيا ، وتألفت وزارة جديدة تحت رياسة محمد سعيد باشا .

وقد اجتمع الملك فؤاد واللورد أللنبى بعد ذلك مرات أخرى للاتفاق على ما يجب اتخاذه حتى تعود الحالة إلى طبيعتها ، وفى هذه الاجتماعات تبين الملك أن الفيلد مارشال يتقبل الأقتراحات فى رضاء وحسن استعداد ، وكانت أولى خطوات فؤاد ، أن اقتنعت بريطانيا بالتخلى عن المحاكمات التى تتصل بحوادث الثورة لتتولاها المحاكم المدنية ، كما قبلت تخفيف الأحكام التى كانت قد أصدرتها المحاكم العسكرية .

وإن أى رجل من غير العسكريين ، والعسكريين المبرزين ، ليجد من المستحيل على نفسه أن يسلك نفس السبيل التى سلكها اللورد أللنبى . ولو كان فى دار الحماية فى ذلك الحين رجل من رجال السياسة لقيل ، وكان فى هذا القول كثير من الحق ، إن يد العنف قد ارتفعت ، وأنه لا بد لمصر أن تعرف أن العنف لا يجدى شيئاً .

ولو لقى اللورد أللنبى نصيباً أوفر من معونة هويت هول ، ولو لقيت خططه من التأييد خيراً مما نالت ، لتجنبت البلاد الكثير من المساوئ التى صادفتها بعد ذلك ، ولذوت حوادث عام ١٩١٩ وذهبت مع الظلام .

ولا بد أن نذكر أنه فى نفس الوقت الذى استسلمت فيه مصر للفوضى ، كانت تقوم فى الهند حركة مماثلة من الأضطرابات ، وقد عمدت السلطات البريطانية فى تلك البلاد بعد إذ استعيد السلام فبذلت أقصى جهودها لمحو ذكرى حوادث الشغب المشئومة ، وما نشأ عنها من أثر .

كانت الضرورة تدعو إلى مثل هذا الدرس فى مصر ، وسرعان ما عرف لورد أللنبى حقيقة الموقف ، فأدرك أن الوقت لم يعد يسمح بالمماطلة ، وأنه مهما تكن جسامة المهام التى تعانيها الحكومة البريطانية ، فلا بد من مواجهة المسألة المصرية ، والعمل فى إخلاص لإدراك حل لها .

أما الذى استطاع فى سرعة أن يوجه لورد اللنبى هذا الاتجاه فهو الملك فؤاد . على أن اللورد كان يعرف كل المعرفة كيف يوفق بين العمل والحزم ، فلما صدر البيان معلناً إطلاق سراح سعد زغلول ، بدا فى عودة الموظفين إلى مراكزهم لون من التردد والتهاون ، ولكن الفيلد مارشال كان يعرف كيف يلعب بالسوط متى دعت لذلك الضرورة . فأصدر بياناً ذكّر المصريين فيه بأن القانون العسكرى لا يزال يحتفظ بسطوته وبطشه ، ثم أضاف إلى ذلك فى شىء من الصرامة أن جميع الموظفين الذين لا يعودون إلى وظائفهم فى اليوم التالى سوف يعدون مستقيلين .

فعادوا جميعاً فى اليوم التالى إلى مكاتبهم ، وكذلك كان الشأن مع الطلبة ؛ فقد قيل لهؤلاء الشبان أنهم إذا لم يعودوا إلى دروسهم فستغلق مدارسهم . على

أن هذه الحوادث لم تكن سوى مناوشات صغيرة ، فقد كان اللورد ألنبى يعتقد أن الموقف الذى يستوجب كامل سطوته سوف يأتى بعد ذلك .

فكان لا بد من إقناع هويت هول بأن مصر تتطلب عملا ، وأنها ترجو أن يكون هذا العمل وديا خالصاً ، وقد رغب لو يكون هذا العمل عاجلا ، فبذل فى هذا السبيل كامل جهوده مؤمناً بأن غالبية المصريين يودون أن يكونوا على وفاق مع بريطانيا العظمى ، واعتقد أنه متى اتبع هذا العلاج فى مداواة الجرح السياسى ، فستكون النتيجة خيراً موفوراً محققاً .

الفصل التاسع

جهـــــاد

اتصل اشتعال الثورة المصرية طوال عام ١٩١٩ فلم تهدأ ولم تنطفئ ، وتبينت مصر التى وضعت فى الولايات المتحدة ثقتها والتى اعتمدت إلى مدى بعيد على مبدأ تقرير المصير ، تبينت لسوء حظها أن هـذه الجمهورية قد أخذت تتراجع ، وأنها بدأت تنكمش حول نفسها متملصة من القيام بدورها البارز فى الشئون الدولية التى قررها الرئيس ولسن .

وهنا قررت الحـكومة البريطانية بعـد تسويف طال أمده ، أن توفد إلى مصر لجنة للتحقيق ، ورأت أن يرأس هذه اللجنة اللورد مانر .

وهى اللجنة التى خلقت فى مصر عند ما وفدت إليها أزمة جديدة بدلا من أن تقنع المصريين بأن قضيتهم قيد البحث وموضع الدراسة .

ومهما يكن من شىء ، فقد كان اللورد أللنبى يحاول فى إبريل سنة ١٩١٩ أن يحمل الحـكومة البريطانية على أن تعلن انتهاءها من تأليف هذه اللجنة ، وقد عمد إلى هذه المحاولة مؤيداً برغبة جلالة الملك فؤاد الذى أشار عليه بسلوك هذا السبيل ، وقد كان يرغب أشد الرغبة فى تهدئة الشعو العام فى بلاده .

وقد أوضح الملك للورد أللنبى مدى الضرورة التى تحتم الإسراع فى العمل متى تم الفراغ من تأليف اللجنة ، وكان من اليسير أن يدرك أللنبى صدق هذا الرأى فلم يتردد فى مكاشفة الحـكومة البريطانية بالضرورة التى تدعو إلى وصول اللجنة فى أواسط مايو ، غير أن الحـكومة البريطانية أبلغته فى ردها أن اللورد

ملنر لا يستطيع «لأسباب مختلفة» أن يبرح انجلترا قبل شهر ديسمبر .

وليس من العسير أن يدرك الإنسان ذلك الهدوء السياسى الذى يسود الأقطار الشرقية خلال الصيف ، لذلك شاء الملك ، وشاء معه اللورد اللنبى ، أن تتهيأ اللجنة للعمل قبل أن تدبر شهور الكسل ، وتقبل شهور النشاط والحركة التى يبعثها جو مصر المنعش فى أواخر الصيف وفى الخريف ، واعتقد الملك فؤاد أنه يستطيع أن يضمن الهدوء والسكينة خلال شهرى يونية ويولية ، أما إذا جاء يولية فليس من ريب فى هبوب عاصفة الهياج العنيف إن لم تتخذ فى الأمر قرارات حاسمة ، وفى استطاعة العقل الشرقى أن يقدر معنى القرار ...

وكان الملك فؤاد صادقاً فى قراءة الحوادث ، فقد بدأت الاضطرابات فى مصر والإسكندرية فى أغسطس ، ثم ثارت فى القطر دعاية واسعة عنيفة ضد بريطانيا .

على أن الكثير من روح العداء نحو بريطانيا العظمى إنما يرجع إلى الخطة التى اتبعتها هى وفرنسا نحو تركيا . وقد استتبع هذا أن تغير الموقف حتى رأى الملك فؤاد واللورد اللنبى أنه خير للجنة وقد فاتتها فرصة سكون الصيف وهدوئه أن تبقى فى إنجلترا حتى تنتهى شروط الصلح بين إنجلترا وتركيا . وإذا كان التأخير صادراً من رياسة الوزارة البريطانية فإن أى تأخير بعد ذلك لا يقام له وزن ، على أن اللورد ملنر كان قد أبحر وقتئذ هو وإخوانه .

ونزلت اللجنة فى جو مشبع بالاضطراب . وكانت للجالية الإيطالية فى مصر أصبع قوية فى تشجيع هذه الحركة العنيفة . ويدل إحصاء الأجانب السابق للحرب العظمى ، على أن عدد الإيطاليين فى مصر بلغ ٣٤٫٩٢٦ مع أن البريطانيين قد بلغوا ١٠٫٦٥٣ . وقد كانت إيطاليا أكبر عامل فى إثارة الخواطر فى جميع دول أوربا المضطربة ، وكان اسم بنيتو موسولينى عندئذ آخذاً فى

الصعود وليس الإيطاليون بالشعب الذى يقصر جهوده السياسية داخل حدود بلاده . على أن إيطاليا لم تفهم بالطبع معنى إعلان الحماية على مصر . وكان هم الإيطاليين فى مصر بعث النظام الاشتراكى فيها كما يفعلون فى بلادهم ، وكان كل مصرى من الحزب المتطرف يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن تركيا التى نفضت عن نفسها غبار الأمبراطورية العثمانية ستساعد مصر فى تقرير مصيرها ، كما أنه توقع تأييداً كبيراً لحركته من إيطاليا .

وكان محمد سعيد باشا رئيس الوزراء وقتئذ يخشى ما يؤدى إليه قدوم اللجنة فى وقت عصيب كهذا ، ولذلك رجا جلالة الملك رجاء شديداً أن يؤجل قدومها فلما جاءت الأخبار تنبئ بقيام اللجنة رأى من الخير لنفسه أن يستقيل . وكان على حق فى هذا الذى رآه . لأنه كان أشد إدراكا لشعور الوطنيين المتطرفين من اللورد اللنبى ومن جلالة الملك . وذاع فى الناس أن اللجنة يجب أن تقاطع وأنه يجب ألاّ يلقاها أى مصرى . وكان رئيس الوزارة يعلم أن هذا الذى قيل لم يكن دعاية واهية ولا تهديداً واهناً . وجاء بعده رئيسان للوزارة رضى كل منهما فى جد أن يشكل الوزارة مدة بقاء لجنة ملنر فى مصر ، إلا أنهما عرضا حياتيهما للموت . حيث ألقيت عليهما القنابل ، ولكن كلا منهما نجا بأعجوبة ، وكان مجرد ظهورهما فى الشوارع كافياً لأحداث الشغب وإثارة الاضطراب فى كل مكان يظهران فيه .

ولم يكن الملك فؤاد قرير العين منشرح الصدر عند ما استقبل اللورد ملنر ورفاقه . وقد عدّهم ضيوفاً غير موفقين لأن عدم رضاء الشعب عنهم يؤثر فى مكانته .

ونزلت لجنة ملنر فى « سميراميس » وهناك كانت فى حصار حقيقى حيث لم يجرؤ واحد من أعضائها طوال عدة أسابيع على الخروج دون حرس كبير مسلح ، ولم يضمن أعضاء اللجنة السلامة داخل الفندق إلا بعد وضع حرس

مسلح عند كل باب ، ومدفع فى كل ركن ، وعيون فى كل موقع فوق سطح الفندق ليرهبوا من تحدثه نفسه بالأعتداء عليهم من سكان المبانى المجاورة .

وكان حتما أن يتخذ الملك فؤاد مثل هذه الأحتياطات فيزود حرس القصر بالسلاح . ولما ضاق صدر بعض أعضاء لجنة ملنر لاضطرارهم لقضاء وقتهم دون عمل ركنوا إلى السفر عائدين لبلادهم معرضين أنفسهم لخطر كبير . وقد تعقبهم الشعب الصاخب غير مرة ، فلم يأمنوا على أنفسهم إلا بعد أن التجأوا إلى السير فى الحارات الملتوية القذرة ، ولم يأمن أعضاء البعثة الملكية البريطانية على أنفسهم من اعتداء الغوغاء إلا فى حماية حرسهم الكبير .

وكان أعضاء اللجنة يرون أنفسهم أحياناً يحملون فى عربات مغلقة إلى اجتماعات سرية حيث يتبادلون الرأى مع أشخاص لا يعرفونهم فيدور الحديث بينهم همساً . فقد خاف الذين رضوا إبداء آرائهم إلى اللجنة أن يخرجوا إلى النور فلم يصب ملنر ورفاقه أية معونة فى الأيام الأولى من إقامتهم إلا خلسة وخفية .

وقبل أن تصل البعثة فكر ولاة الأمر فيما عساه أن يحدث لو أن أعضاء اللجنة لم يتخذوا لأنفسهم الحيطة اللازمة . فقبض على رئيس الوفد ووكيله وسكرتيره قبل وصول اللجنه بثلاثة أسابيع لكى يخلو الجو من قادة الوفد البارزين .

وكان الرد على ذلك أن اغتيل الكابتن كوهن من اتحاد العمال على مقربة من مستشفى شبرا ، وأطلقت النار على خمسة جنود بريطانيين بالقرب من إدارة السكة الحديدية فى القاهرة ، وبوغت ثلاثة من الضباط الإنجليز على مقربة من المخفر الرئيسى بالعباسية ، وأطلقت النار بعد أيام قلائل على ضابطين إنجليزيين آخرين عند محطة كوبرى الليمون .

ويقول بلاغ اللجنة إنها جاءت « لتبحث أسباب الأضطراب الأخير فى

مصر ، ولتضع تقريراً عن الحالة الراهنة فى القطر ، وعن النظام البرلمانى الذى يكفل تقدم الأمة وسعادتها فى ظل الحماية ، ويضمن للأمة التقدم فى حكم نفسها ، وحمايتها من المطامع الأجنبية » .

وربما كانت هـذه العبارات لتفعل فعلها فى مصر عام ١٩١٨ ، أما مصر فى آخر عام ١٩١٩ فلم تكن لتصغى لغير الاستقلال التام .

ولم يكن الوفديون وحدهم هم الذين يعضدون هذا النداء ، بل كانت مصر كلها من ورائه ، ومن هنا نلمس مدى المقاطعة التى قوبلت بها اللجنة .

وقد وجد لورد ملنر نفسه فى حيرة مطلقة وهو الوزير الذى لا تعوزه الخبرة الصادقة بمصر . وقد جرت له مع الملك فؤاد أحاديث كثيرة ، فرأى أن الملك يؤيد الاستقلال تأييداً صادقاً ، بينما هو فى نفس الوقت يستنكر الأعتداء على الأورو بيين ، وكان وزراؤه يتفقون معه فى هذا الرأى .

أما فى النقط التى أراد اللورد ملنر أن يتقيد بها ، فقـد وجد عندها الملك شديد الحرص شديد التحفظ يأبى أن يصرح برأى فيها . واتخذ الملك ومن حوله فى هذا الموقف خطة أملتها عليهم الضرورة القاسية . وفى هـذا الوقت ذاع الخبر بأن رئيس الوزارة نجا من الموت بأعجوبة ، ولم يدر أحد على من تسقط القنبلة الثانية .

وكان شعور مصر ثائراً ضد بريطانيا ، وكان على الملك فؤاد إذا أراد أن يحرص على عرشه أن يدقق فى كل كلمة يقولها . فبدا حتما ألا يتحدث بما يمكن أن يؤول بابتعاده ولو قيد شعرة عن مبدأ الاستقلال التام . ومهما كانت ميوله الشخصية ، فليس من شك فى أنه كان مخلصاً حينما أعلن أنه لا يرضى لنفسه ولا لشعبه بما هو دون الاستقلال . على أنه لم تكن له مندوحة عن الاستمساك بهذا الرأى لأنه فضلا عن إجماع الرأى العام فإن أعضاء أسرته قد انضموا إلى جانب

الرأى المتطرف . واشترك ستة من أمراء أسرته مع الشعب فى المطالبة بجلاء الأنجليز عن مصر .

وكانت هذه الفترة من أشد الأوقات العصيبة على الملك فؤاد ، وعلى وجه خاص عند ما تحقق أن هناك عيوناً تنبث فى كل مكان دون أن ينجو منها القصر . فكل كلمة تخرج عفواً دون حذر ، وكل إشارة مهما تكن براءتها توضع عند الواقفين بالمرصاد موضع التأويل والتخريج .

وكان مركز اللورد ملنر حرجاً أشد الحرج ، أوحى إليه أن لا بد له من إصدار بيان تستقر به النفوس ويرتاح له الرأى العام . ولكنه اضطر بعد أسبوعين من وصوله إلى القاهرة أن يلغى تصريحه الخاص بنظام الحكم تحت الحماية ، وأن يعلن عزمه على تحقيق أمانى الشعب المصرى مع رعاية المصالح البريطانية .

فكانت هذه أول هزيمة منيت بها بريطانيا العظمى . وسرعان ما أعلن اللورد ملنر ورفاقه أنه « لا يمكن أن يكون هناك صلح مرض تفرضه بريطانيا العظمى على مصر ، ومن الحكمة أن يكون هناك حل يشترك فيه الطرفان » .

ورضى الملك فؤاد رضاء تاما عن عقد معاهدة رسمية بين بريطانيا وبين بلاده ، ولكن الموقف تطور لسوء الحظ ، ولم يستطع الملك أن يتكلم بلسان شعبه على الرغم من اتفاقه مع وزارته ، إذ اتسعت سيطرة سعد وقوى نفوذ حزبه على الرأى العام ، فكان مصير كل اتفاق لا يشترك فيه زغلول باشا الفشل لا محالة . وأخيراً وافق الملك فؤاد على اقتراح اللورد ملنر بأن يبدأ المحادثات مع سعد زغلول . ولما كان سعد فى أوربا ، رجعت لجنة ملنر إلى لندن تحمل معلومات ضئيلة هى كل ما استطاعت أن تجمعه وأن تجعل منه أساس تقريرها .

ولكن سرعان ما وجدت اللجنة نفسها وسط لجة المساومة الشديدة الصخب وقد ظنت أول الأمر أنها اقتربت من النهاية ، ولكنها ألفت نفسها على النقيض

من ذلك مقيدة بقيود لم تفكر مطلقاً فى قبولها ، ولذلك اضطرت إزاء المساومة القاسية إلى أن تتحلل من القيود التى كانت قد أعلنتها فى ظروف حرجة لم يكن لها قبل بدفعها .

وفضلا عن ذلك فقد وجدت اللجنة فى سعد خصما واسع الحيلة قوى الحجة ثاقب الفكر . ولم تنجح اللجنة مطلقاً فى لقائه وجهاً لوجه ، والدخول معه فى مناقشة شخصية ، فكان تبادل الرأى يدور على الوسطاء ، أما فى الظروف النادرة التى كان يوافق فيها على أمر من الأمور ، فكان يتخذ من بُعده عن ميدان العمل مبرراً لأن يعلن حياده التام وتحفظه الذى لا يتزعزع .

و بينما كانت المفاوضات تدور فى أوربا كانت هناك فى القاهرة تيارات أخرى ؛ فقد بات محمد سعيد باشا الذى كان رئيساً للوزراء عند قدوم لجنة ملنر والذى استقال بسبب تهديد الوفديين له ، بات يحقد على سعد أشد الحقد ، ولم يكفه هذا ليشفى به ما فى نفسه فأخذ ينتقص كل ما يأتى به سعد ، ثم غير موقفه من الملك فانتمى إلى الحزب المعارض للقصر .

فلما وصل إلى القاهرة نبأ عما يدور فى لندن أخذ يحرض الكثيرين من الأمراء على الدخول فى ميدان السياسة و إصدار قرار يعلنون فيه أن اقتراحات لجنة ملنر لا تحتمل غير معنى واحد هو تقييد استقلال مصر .

فأوقع هذا القرار الملك فؤاداً فى أشد الحيرة ، وزاد فى غضبه أن تم هذا الأمر فى الخفاء ، ورأى جلالته فى تحالف الأمراء مع المتطرفين موقفاً لا مبرر له أملته عليهم مطامع الذين يتصيدون الفرص . وقد كان فؤاد ضعيف الثقة فى المتطرفين من المصريين ، فرأى فيما أقدم عليه أقاربه زللا لا يرتضيه . فقد كان فى هذا السلوك الذى سلكه الأمراء انتقاص لموقف الملك وغض من أسلوب

قيادته للحركة ، هـذا الأسلوب الحذر ، بينما الواقع أنه كان يبذل غاية جهده لرعايتها وتعهدها .

ومن اليسير أن ندرك موقف الملك فؤاد من لجنة ملنر فى وضوح ، إن نحن قرأنا تلك الرسالة التى بعث بها لورد اللنبى إلى جلالتـه فى ذلك الحين بعد مباحثات كثيرة دارت بينهما .

ومهما يكن من شىء فقد اعترفت الحـكومة البريطانيـة رسميا فى مارس سنة ١٩٢١ بأن « الحماية لا تصلح لأن تكون علاقة مرضية بين مصر وبريطانيا » ثم طلب اللورد أللنبى من جلالة الملك فؤاد أن يعين وفداً رسميا يتولى مهمة المفاوضة مع الحـكومة البريطانية للوصول إلى اتفاق يطمئن له الطرفان .

وقد قال اللورد فى هذه الرسالة :

« يا صاحب العظمة .

« إننى لم أدخر وسعاً فى تبليغ حكومة صاحب الجلالة ، الرأى الذى أبديتموه عظمتكم غير مرة ، والذى يرمى إلى أن تتخذ الحـكومة قراراً بشأن مقترحات لجنة ملنر التى تتمشى مع الأمانى التى لا يخفى عطف عظمتكم السامى عليها » وكان اتخاذ مثل هذا القرار فى تلك السـنين أمراً ضروريا فى هذا الموقف ، غير أن تردد الحـكومة البريطانية كان أبعد أثراً فى إفساد الموقف والتأثير على مكانة الملك من أية مكيدة تحاك فى بلاده ، وكان الملك يعرف يقظة شعبه وانتباهه للتطورات السياسية التى تدور فى زمنه . ويعرف أن هويت هول تغمر رأسها فى سجلات عهد الملكة فـكتوريا دون أن تدرك مدى تضجر الشعب من آثار العبء الذى يثقل كاهله ، ودون أن تلمح ازدراء المصريين لكل لجنـة تدعى العمل على تحريره ازدراء تاما ، ولم تستطع هويت هول أن ترى أن فى مصر

قوة حيوية ترفض ما تدعيه إنجلترا من ميلها إلى تعليم المصريين نظام الحكم .

ولما كانت هويت هول مطمئنة هادئة البال تعتمد فى اطمئنانها على وجود بعثة لها فى مصر ، فقد كانت تستمد وحيها من التقارير التى تزين جدرانها محاولة المراوغة والتسويف .

وكان على الملك فؤاد أن يسلك سبيلا وسطاً بين العقيدة الدكتورية البريطانية وإيمانها بقوة حقها ، وما تراه فرضاً يحتمه عليها واجبها الذى تزعمه لنفسها نحو الإصلاح ، وبين مجهودات الكثيرين من أفراد شعبه الذى ساءت قيادته ، والذى يسلك طريقاً مناقضاً لهذا الاتجاه على خط مستقيم .

فاعتزمت بريطانيا أن تبحث عن حل للمشاكل المصرية يتمشى مع المصالح الجوهرية البريطانية ، ويتفق مع استقلال مصر ، ولكنها تمهلت ، فلم تسارع إلى سلوك هذا السبيل .

فضاعت فرصة تحقيق الوفاق ، بينما أتيح لسعد أن يوسع نطاق نشاطه ، وأن يسترعى انتباه الجماهير ، وكان ذلك فى عام ١٩٢٠ ، ثم ضاع عام كامل قبل أن تزور لجنة ملنر القاهرة ، وقد أشارت عليها هويت هول أن تستمر فى عملها رغم ما تلقاه من عنت . على أن هويت هول قد ارتكبت فى هذا الموقف خطأ فاحشاً ، فبدلا من أن تحتفظ بالنقط التى تمس المصالح البريطانية الحيوية ، سمحت للورد ملنر أن يبرح إنجلترا على أسس تقضى على المشروع بأكمله .

ولو أن الحكومة البريطانية أعلنت عام ١٩٣١ أن إنجلترا اعتزمت الأحتفاظ ببعض النقط ، مع تقييد استقلال مصر داخل هذا النطاق ، لكان من المحتمل أن تقبل مصر هذا الوضع ، ولقام دستورها الجديد فى جو هادئ لا يعكر صفاءه قتام .

أتمت لجنة ملنر عملها عام ١٩٢٠ ، ولكنها لم تقدم تقريرها إلى اللورد أللنبى قبل عام ١٩٢١ ، وقد طلبت فيه إلى الحكومة البريطانية أن تسمح بإيفاد هيئة رسمية من القاهرة لتتبادل الرأى معها قبل البت برأى فى الرغبات المعروضة عليها ، وكانت لجنة ملنر تعمل تحت إشراف وزير بريطانيا ، وقد قطعت فى المفاوضات شوطا واسعاً ، على أن المصريين لم يفتهم إهمال الحكومة البريطانية الإشارة إلى قبولها هذه الرغبات أثناء المحادثات .

ولما كان جلالة الملك يقظاً يدرك خطورة الموقف ، ويعلم مدى تأثير ذلك الإهمال ، فقد تحدث إلى اللورد أللنبى ، فأسرع هذا بدوره ، وأنبأ المستر لويد چورچ بحقيقة الأمر . ولكن مستر لويد چورچ الذى انفرد باستخفافه بالعقلية الشرقية ، فى فلسطين ، وتركيا ، ومصر ، والهند ، ركن إلى الإهمال ، ولم يخط فى الأمر خطوة ، فضاعت بذلك فرصة أخرى كان يمكن أن تستخدم فى إدراك حل موفق .

والمستر لويد چورچ هو الذى أثار فى الهند اضطرابا ، ثم أوعز إلى اليونان أن تخوض غمار حرب جديدة مع أنقرة رغبة فى مضايقة تركيا ، وهو الذى كان قصوره التام عن إدراك حقيقة الموقف ممهداً لنشوب ثورة عنيفة أخرى فى مصر ، ثورة لم يستطع الملك فؤاد أن يتخذ حيالها أمراً ، وكان سعد معبود الشعب المقدس ، لا يفلت من تحدثه نفسه بانتقاده أهون النقد من سخط الشعب ونقمته . وقد شهدت مصر مغتبطة فى تلك الفترة فناء جيل عتيق كأنما ذهب به فيضان النيل ، وقيام جيل جديد هو ذخيرة مصر الثائرة المعتزة بنفسها ، مصر التى يقودها سعد ، واشنطن الجديد .

ومهما يكن من أمر فإن جلالة الملك لم يدر ماذا تكون نهاية الاضطراب الذى يصطخب فى جو مصر فتشتعل به رؤوس المصريين ، وكان حتما أن يرقب

عالما مرتبكا أشد الأرتباك ، جرته إلى هذا الأرتباك نعم « السلام » ، عالما يعمل على تنظيم نفسه والعودة إلى حالة تغيرت تغيراً واسعاً خلال الحرب ، فكان لذلك يرى حيثما نظر ، قلقاً واضطرابا .

وكان يعلم فى يقين ماذا يدور فى إيطاليا حول صديقه الملك عما نويل مما تهدد عرشه . كما انتهى إلى جلالته نبأ الخطباء والكتاب الذين أخذوا يفندون فى الولايات المتحدة جميع المبادئ السامية التى جهد بها الرئيس ولسن . وكان يعنيه إلى أبعد مدى أن يرقب ما قد ينفرج عنه الموقف فى إنجلترا .

ولم يدرك أحد كما أدرك الملك فؤاد أن الشعب البريطانى لم يكن على استعداد مطلقاً للسير رغم موافقته الأخيرة على مقترحات لجنة ملنر . ولما كان الشعب البريطانى يستمد معلوماته من مصادر حكومية ، لذلك كان حتما ألاّ يرى فى مصر طوال هذه السنوات العديدة تابعة للأمبراطورية البريطانية المقدسة فحسب ، بل كان عليه أن يعدها جزءاً من الإمبراطورية لا يتجزأ .

ومما زاد الموقف حرجاً أن اللورد ملنر ما كاد يقدم تقريره إلى الحكومة البريطانية حتى استقال ، ولم يكن هناك فى قصر سنت ستيفنز من له إلمام بالمعلومات الضرورية حتى يدافع عن اقترحاته الثائرة نوعاً ما ، أو حتى يوضح للبرلمان الحائر سلسلة الظروف المعقدة التى رسم التقرير حلها .

أما الملك فكان وجوده فى وطنه وسط أمته ، وإدراكه لما يقع تحت حسه مبرراً لاغتباطه بعض الأغتباط .

وكان فى مصر وقتئذ كثيرون يدعون لأنفسهم حق السبق فى الانضمام للوفد المسافر لانجلترا لمفاوضة الحكومة البريطانية ، فكان هناك أعضاء الوزارة القائمة ، ثم الجمعية التشريعية ، ثم سعد زغلول .

وكان على الملك فؤاد أن يختار للوفد المسافر إلى إنجلترا رجالا يتوفر لهم

شرف الخلق ، وتسمو بهم مراكزهم بين أبناء الوطن ، ولم يكن من اليسير أن تتوفر هاتان الصفتان فى الكثيرين ، لذلك قضى ساعات مضنية فى اختيار الأسماء ، على أن جلالته تبين أن اختيار الوفد لا يقل تعقيداً عن المفاوضات نفسها .

وما كاد الملك فؤاد يعلن أسماء الشخصيات التى وقع الأختيار عليها ليتكون منها الوفد ، حتى حدث ما هدم الخطة المرسومة ، فقد اختير مظلوم باشا رئيساً لهيئة المفاوضات ولكن لم يكد يعلن نبأ هذا الأختيار حتى قدم مظلوم استقالته فكان لا بد بعد ذلك من وضع خطط أخرى . فشكلت وزارة جديدة رأسها عدلى يكن باشا ، وكانت له أبرز شخية بين عنصر الأحرار ، فأيدته إنجلترا فى ارتياح كبير ، فخلق تكوين الوزارة على هذا الوجه أزمة جديدة ، فقد أصدر سعد عند ما أحس خطر قيام حر دستورى فى هذا المنصب السامى ، بياناً طالب فيه بأن تكون للوفد الأكثرية فى هيئة المفاوضات فنشأت بذلك عقبة جديدة إذ لم يكن محتملا أن تذعن لمثل هذا الشرط وزارة حرة ، ولم يكن منتظراً أن تقره الحكومة البريطانية .

على أن هذه لم تكن خاتمة الصعوبات التى واجهها الملك فؤاد ، فإن جلالته لم ير فى عدلى باشا صديقاً للقصر ولم ير فى قيامه على رأس الوزارة انسجاماً مطمئناً .

وعاد سعد مسرعاً من أوروبا ، فلم يكد يطأ أرض الوطن حتى حمل على عدلى باشا حملة قاسية عنيفة ، رامياً من وراء ذلك إلى أن يثبت لنفسه ولأنصاره مكاناً فى الوفد الرسمى .

وقد شهد فى هذه اللحظات ثمرة جهوده ، وبات على قيد خطوة من تلك الذروة التى طالما تطلع إليها ، وكان حتما أن يغريه المجد فيتحرق شوقاً إلى تلك

القمة يرجو أن يقف على ذروتها ، غير أنه ألفى فى مكان القيادة «حراً دستورياً» يستأثر دونه بالمجد وتنقاد إليه الأمور .

وإذ بدأ سعد جهوده عند عودته لأرض الوطن أعلن رأيه فقال : «لا بأس عندى فى أن أتحد وعدلى باشا فى العمل على أن تكون لى الرياسة» . «إن الوفد يرى أهمية كبرى لرآسة المفوضين . لأن الوفد هو المسئول أمام الأمة عن المفاوضات ونتيجتها ويجب حتما أن تكون بيده إدارتها» .

فكان من اليسير أن يدرك المرء إلى أى النواحى يتجه سعد ، على أن التقارير التى كانت تصل إلى القصر عن جهوده السياسية لم تكن بحيث تبعث الأمل الباسم ، فكان فى هذا الموقف لون من الخطورة لو أتيح له أن يتطور لدفع بذلك الجيل إلى نهايات غريبة ، وكان سعد يتطلع فى هذا السبيل إلى عبقرية مصطفى كمال التى بزغت فى تركيا .

وأخذت الثورة تضطرم اضطراماً قاسياً وعنيفاً ، وكان فى جو مصر ما ينفخ فيها فيزيدها استعاراً . فلم يدع الملك فؤاد الموقف للأهواء تتلاعب به بل بذل فى سبيل التوفيق بين سعد ورئيس الوزراء جهوداً جبارة كلفته ساعات مليئة بالجهد والمشقة ، غير أنه اضطر فى النهاية للتخلى عن متابعة جهوده ثم أبلغ عدلى باشا أنه سيكوّن وفداً من خاصة رفاقه السياسيين وأجل هذا القرار إلى منتصف مايو سنة ١٩٢١ وقد خشى خاتمة هذا السبيل . وليس من شك فى أن فؤاداً كان حاذقاً بعيد النظر ، يدرك اتجاه الرأى العام فى سرعة وبراعة ، وهو لذلك قد تردد طويلا فى أن ينهج نهجاً يثير الوفديين .

وقد أيدت الأيام حذق جلالته ، ففى ١٨ مايو احتشد الشعب وسارت جموعه متجهة نحو القصر تود أن تعلن سخطها على الوزارة ، فلقى رجال الشرطة فى ردها وتفريقها مشقة وعسراً ، غير أن صيحات الشعب الناقم بلغت أسماع

الملك وهو يمشى فى حجرة مكتبه مدوية كالرعد القاصف ، فأطل جلالته من وراء إحدى النوافذ ليرى منظر الجماهير المحتشدة الصاخبة ، وكان عدلى باشا إلى جوار جلالته فى تلك الساعة ، فلم يكد يشهد ذلك المنظر حتى قال :

« الجميع عندى سواء ، وإنى لأبذل كامل جهدى لصالح شعبى فى نبل وشرف ، ولست أعتقد أن فى مقدور رجل واحد من الشعب أن يضطلع بالزعامة الحقة لما جبل عليه المصريون منذ نشأتهم ، وأنا أشتغل كل ساعات النهار ، وأبذل من الجهد فوق ما يبذله أى فلاح من شعبى ، ورغم ذلك أرى هذه الجموع الصاخبة » .

وفى اليوم التالى وقعت بعض الحوادث فى القاهرة ، ثم أظهر أهل الإسكندرية سخطهم على الحكومة فى ٢٠ مايو فأحرقوا مركزين من مراكز البوليس ، فلم تشأ القاهرة أن يسبقها فى هذا الميدان غيرها فهبت فى ثورة من ثوراتها المشهورة التى شهدت فواجع كثيرة دامية . وفى ٢٢ مايو رأى أهل الأسكندرية أن الأوربيين هم المسئولون دون الحكومة عن اضطراب الحالة السياسية فى مصر ، فهاجموا ثلاثين أوروبياً وقتلوا منهم أربعة عشر رجلا ، فلم تر السلطات الحربية البريطانية بدأ إزاء هذه الحالة ، من الاستيلاء على أهم مرافق المدينة وهى العاصمة الثانية لبلاد كادت تصل إلى نهاية الطريق لإدراك استقلالها .

فلما استقرت السكينة واستتب النظام ، سافر عدلى باشا ورجال وفده إلى لندن حيث بدأت المفاوضات التى استمرت حتى نهاية عام ١٩٢١ . على أن الملك فؤاداً لم يكن راضياً عن سفر عدلى باشا ، ولكنه استطاع أن يكتسب عطف جلالته ورضاءه عن سفره بعد مقابلته لجلالته مرات متواليـة ، واتصال الحديث بينهما اتصالا ودياً وجهه رئيس الوزراء إلى حيث يستثير رضاء مليكه .

وقد أدرك الملك فؤاد أن سعداً سيبدى فى هذه الفترة جفاءه ، وسيستغل غياب خصمه إلى أبعد مدى تسمح به الظروف ، وقد علم ما سيأتى به الغد بعد أن صرح الجانب البريطانى بأن سياسة الحكومة الإنجليزية تقضى بالبعد عن التدخل ، وأدرك الملك ما ينطوى عليه هذا التصريح ، وأيقن أنه سيشهد بعد سفر عدلى باشا حملة يشعل نارها سعد ، ويؤجج لهيبها تدفعه شهوة من نفسه ، وقد أيقن بفشل عدلى باشا فى مهمته ، وارتاح إلى ماصرح به الإنجليز من رغبتهم فى الوقوف على هامش الميدان فلا يتدخلون فى شئون البلاد ، وبدا لسعد أن الفرصة مواتية فحمل على الحكومة حملات عنيفة قاسية ، واتهم عدلى باشا فى غير رحمة ، وتهجم على الحكومة البريطانية فى غير لين أو رهبة .

وتتابعت الحوادث مسرعة حتى شهر ديسمبر ، وكان الملك يتتبعها فى يقظة كاملة .

وأخيراً فشلت المفاوضات فى لندن ، فعاد عدلى باشا إلى أرض الوطن ، ثم قدم استقالته من منصبه . واعتقد سعد أن ساعة انتصارة آتية دون ريب ، ورأى أن يعزز موقفه ومكانته ، فأعلن أنه سيخطب الشعب فى اجتماع عام يعقد فى القاهرة . وهنا بدا للإنجليز أنهم أمام تبعات خطيرة وأن ثمة نتائج لا مفر من وقوعها ، فلم يترددوا فى التحلل من تصريحهم السابق ، وبات حتماً أن يخرجوا من عزلتهم فينفذوا إلى أعماق الموقف يسيطرون عليه قبل أن يفلت الزمام من أيديهم ، فكتب مستشار الداخلية فى الثانى والعشرين من ديسمبر لسعد خطاباً يحظر عليه فيه أن يخطب الناس أو أن يشهد الأجتماعات العمومية فأبى سعد أن يذعن لهذه الرغبة إباءً صريحاً قاطعاً ، فسارعت السلطات البريطانية إلى القبض على الزعيم ، ثم بعثت به إلى السويس التى بدأ منها رحلته إلى منفاه .

وليس من ريب فى أن هذه الخطوة التى اتخذتها الحكومة البريطانية

كانت تحمل معنى الانتقام السريع . فأثار هذا السلوك ثائرة البلاد ، فهاجم القاهريون فى نفس المساء جنديين بريطانيين ، وأصبحت مدن القطر جميعها تلتهب بالثورة الجامحة العنيفة ، فقضى الكثيرون قتلا ولم تكد تنصرم الأيام متتابعة حتى كان الثائرون يقتلون الأوروبيين فى الطرقات .

وهنا نفى سعد إلى سيشل .

وواجه الملك فؤاد مشكلة بذل فى سبيل حلها جهداً كبيراً ، فقد كان عليه أن يكوّن وزارة ، فوقع اختيار جلالته على عبد الخالق ثروت باشا ، أحد أعضاء وزارة عدلى باشا ونائبه أثناء غيابه فى مفاوضات لندن ، إلا أنه كان حتما أن يصادف هذا الأختيار بعض العقبات ، فقد كان عدلى باشا أبرز شخصية بين الأحرار الدستوريين ، وكان لزاما أن يشغل هذا المنصب السامى فى مثل تلك الأزمة رجل نابه من الأحرار الدستوريين ، ولم يكن من اليسير أن يرتاح عدلى باشا بعد إذ قطع هذا الشوط العريض فى السير نحو الهدف الذى ترمى إليه البلاد ، إلى أن يستأثر غيرُه بالمجد يقطف جناه يوم تتحقق الأمانى وتستقر الأمور بين بريطانيا ومصر .

فوضع عدلى باشا العقبات فى سبيل ثروت لعلها تعرقل طريقه ، وظل فؤاد يرقب الموقف فى هذا الجو المضطرب حتى تجاوزت الأيام عدة الشهرين ، دون أن تعاونه فى تسيير دفة البلاد وزارة ، فاعتمد على مشورة رجال القصر طوال هذه الفترة ، وفى النهاية استقر الأختيار على ثروت باشا ، فألف وزارته التى رأسها .

وهنا كانت العلاقة الشخصية بين الملك فؤاد واللورد أللنبى على خير ما تكون العلاقات من الود والصفاء ، فاستغل جلالته هذه الصداقة ، وتحدث إلى اللورد ملحا فى ضرورة وضع حد لهذه الحالة القلقة المضطربة التى قد

تعرض مركزه للخطر ، والتى قد تدفع ببلاده إلى الفتنة وترمى بها إلى حرب داخلية . ثم لفت جلالته نظر اللورد أللنبى إلى أن الاتفاق على التفاصيل هيِّن ميسور ما دام هناك وعد بالاستقلال ، ثم طلب إلى فخامته أن يُعلن هذا الأستقلال فى أقرب فرصة ممكنة .

فكتب لورد أللنبى فى ١٢ يناير سنة ١٩٢٢ إلى وزيره فى لندن يعرض عليه مشروع خطاب وضعه ، ويستأذنه فى أن يبعث بهذا الخطاب إلى جلالة الملك فؤاد ، وقد انطوى هذا الخطاب على تصريح يعلن أن « حكومة صاحب الجلالة البريطانية على استعداد لإلغاء الحماية دون انتظار وضع قواعد المعاهدة مع اعترافها باستقلال مصر الملكية » ثم التمس منه أن يبت فى موضوع هذا الكتاب فى غير تردد أو تسويف ، غير أن الحكومة البريطانية لم تمنح الأمر حاجته من خالص العناية ، فتقضت ستة أسابيع قبل أن يصل إلى اللورد أللنبى من الحكومة ما ينهى إليه أنها تعنى برأيه « أكبر العناية » ، وأيقن اللورد أن حكومته إنما ترمى من وراء هذا التعبير إلى نفس المعنى الذى اصطلح عليه البحارة .

فلم يتردد لورد أللنبى فى الإجابة فكتب لحكومته : « إذا لم تأبه حكومة صاحب الجلالة لنصحى ، فإنها تفقد بذلك كل أمل فى اكتساب صداقة مصر فى العصر الحاضر » .

ثم بعث مع هذه الإجابة استقالته ولكنها لم تقبل ، فغادر مصر إلى لندن ليقنع حكومتها بما لديه من الحجج .

ولم يكد اللورد أللنبى يبرح مصر ويفتقد فيه فؤاد الناصح الأمين ، حتى قتل أحد البريطانيين فى القاهرة ، وتلاه فى غير إبطاء اغتيال بعض المدنيين من الأوربيين . ولكن غيبة اللورد أللنبى لم تطل ، فقد عاد مسرعا ثم نشر إثر عودته فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ التصريح التالى :

« بما أن حكومة جلالة الملك بناء على ما أبدته من رغبة تريد أن تعترف بمصر دولة مستقلة ، و بما أن العلاقات التى تربط حكومة جلالة الملك بمصر ذات أهمية حيوية للأمبراطورية البريطانية ، لذلك تعلن المبادئ الآتية :

١ — تنتهى الحماية البريطانيـة على مصر ، وتصبح مصر دولة مستقلة ذات سيادة .

٢ — حالما تسن حكومة جلالته قانوناً للتعويضات يطبق على جميع سكان القطر المصرى ، تقف الأحكام العرفية التى أعلنت فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ .

٣ — تحتفظ حكومة صاحب الجلالة بالنقط الآتية ريثما يحين الوقت الذى يتيسر فيه إجراء مناقشة ، وإبرام تسوية ودية بين الجانبين ، ويعقد فيه اتفاق بين حكومة جلالته والحـكومة المصرية وهى :

(ا) حماية مواصلات الإمبراطورية البريطانية فى مصر .

(ب) حماية مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبى مباشر أو غير مباشر .

(حـ) حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .

(ء) السودان .

وإلى أن يتم الأتفاق على هذه النقط تبقى الحالة الراهنة على ما هى عليه .

وبذلك تحققت جميع الرغبات التى أبداها اللورد أللنبى بعـد استشارته للملك فؤاد .

وقد كسب الملك فؤاد من ناحيته امتيازات عظيمة ، فبات فى مقدوره أن يقول لشعبه إن نجاح المفاوضات فى النهاية راجع لشخصيته وتأثيره ، والواقع أن حسن التفاهم الأكيد الذى كان سائداً بينه و بين اللورد أللنبى هو الذى هيأ السبيل لهذا النجاح ، ولولا ذلك لفشلت كل وسيلة أخرى .

ولا ريب فى أن هذا كان نصراً رائعاً لجلالته ، وليس فى استطاعة سعد وأنصاره

من الوفديين أن يبخسوا هذه السياسة حقها من الحكمة والبراعة والسداد .

ولو كان فؤاد ممن يميلون أهون الميل إلى اكتساب إعجاب الجماهير لحوّل مجد هذه النهاية الرائعة لصالحه الشخصى . ولكن رجلا مثله غاص فى أعماق التيارات المتناقضة فى مضطرب السياسة المصرية ، وشهد الحرب العنيفة القاسية التى توقد السياسةُ نارها ، ورأى أمراء أسرته ينتهزون الفرصة التى يرومون أن تستفيد منها ذواتهم ، رجلا هـذا لونه لا يسعه إلا أن يبتسم فى سخرية مرة ، وأن يلتزم هذه الابتسامة العميقة طوال حياته .

على أن السياسـة قد استطاعت أن تصور فؤاداً فى صورة ليست له ، فباعدت بينها و بين الحقيقة الخالصة . وهو الذى أرادت له الأقدار أن يضطلع بمثل المهمة الخطيرة التى احتمل عبئها ، وقد شاءت له السياسـة التى كان يسير دفتها أن يبعد عن الميدان حزباً ليعقبه حزب آخر ، بينما يسود جو مصر السياسى إيمان عميق بأن الذى يُخلع يمسى عدوا لدوداً لمن يحل فى مكانه و يشغل موضعه .

ومهما يكن من شىء فقد أصدر « عظمة سلطان مصر » فى الخامس عشر من مارس سنة ١٩٢٢ مرسوماً أعلن فيه أن مصر أصبحت « دولة مستقلة ذات سيادة » وأن عظمته قد اتخذ لنفسه لقب « جلالة ملك مصر » .

فأطلقت المدافع من القلعة التاريخية المشرفة على العاصمة منذ القدم واحداً ومائة طلقة تحية للنظام الجديد ، ثم أطلقت المدافع فى عواصم الأقاليم وفى السودان لنفس الغرض .

على أن إعلان هذا المرسوم و إطلاق تلك المدافع لم يثر أى لون من ألوان الحماس الشعبى المألوف ، فقد استقبل الجمهور هذا التغيير فى شىء من الشغب ، وهو لون من اللهو تدرب عليه فأتقنه وحذق فنونه .

ولكن الملك فؤاداً استطاع أن يتجاهل تلك المظاهرات ، فلزم قصره

حضرة صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد

يستمتع بلذة هذا الظفر الذى أدركته بلاده ، وقد تهيأ لاستقبال وفود المهنئين فشهد القصر استقبالات رائعة ، ورأى رجال الهيئات السياسية يرفعون لجلالة الملك الجديد تهنئاتهم .

وتوالت البرقيات على عابدين تحمل لجلالة ملك مصر خالص التهانى وصادق التمنيات يبعث بها الملوك وتتقدم بها الأمم والحكومات ، وفى طليعة تلك الرسائل برقية چورچ الخامس ملك إنجلترا .

هذه أمانى مصر كانت تتطلع إليها منذ سنوات بعيدة ، وتلك آمالها العادلة قد تفتحت لها أبواب القدر فسعدت بما رغبت وأدرك جلالة الملك فؤاد تلك الأمانى التى كان يعمل لها و يبذل الجهد فى سبيلها .

لقد أصبح إذن ملكا ، ولم يعد حاكما ولا سلطاناً ، وكان قد آن له أن يصير ملكا .

بات حتما إذن أن يحكم الملك وأن يترك فى الملك أثره .

فسلك لذلك سبيله نحو الخلود .

الفصل العاشر

مواقف دقيقة

حظى الملك فؤاد بلقب « صاحب الجلالة » غير أن الأمة لم تكن قد اطمأنت بعد للنتيجة التى أدركتها ، وكانت الطريق لا تزال ممتدة أمامها تغرى بالعمل وبذل الجهود .

وكان سعد قد نفى مع نفر من صحبه قبل إعلان الاستقلال ، إلى جزائر سيشل ، فصبغ هذا النفى شعور المصريين بلون جديد ، وقوى به شعور الأرتياب نحو نيات إنجلترا وأغراضها .

وبات الوفديون فى ثورة لا تطمئن نفوسهم فأخذوا يعلنون سخطهم على الحالة القائمة ، ويوجهون إلى القصر لوناً من اللوم ، على أن الكثيرين من المصريين كانوا يؤمنون بأنه أصبح من المستطاع تحسين الحالة والسير بها قُدُما لقيام وزارة قومية على رأس الحكومة البريطانية فى لندن .

وكانت سياسة صاحب الجلالة الملك فؤاد ، ترمى إلى توطيد أواصر الصداقة بين مصر وإنجلترا ، وتقوية العلاقات الودية بينهما بما يحفظ لمصر سيادتها ويضمن للأمبراطورية سلامة مواصلاتها ، وليكون له فى جيوش إنجلترا ما يرد عن بلاده أى اعتداء أجنبى .

وكان جلالته إلى ذلك شريكاً لبريطانيا فى السودان ، ولم يكن من الخير أن يخرج على شريك ترجى معونته فى نواح أخرى .

وليس من شك فى أن الوفديين كانوا يطمعون فى دستور يضارع أرقى الدساتير .

ومهما يكن من شىء فقد كان على الملك فؤاد أن يسير فى هذا السبيل الجديد فى يقظة وحذر ، وأن يرقب فى عناية هذه الظروف الجديدة التى تحيط مركزه رغم ما يعد به النظام المستحدث من اضطلاع رئيس الوزراء بالمسئولية كاملة ، وبمسئولية الشئون الخارجية على وجه خاص ، وهى المسئولية التى لم تكن لتحد من نفوذ الملك . وكانت الأحكام العرفية ما تزال قائمة تؤيدها الحكومة البريطانية حتى يصدر قانون التعويضات .

على أنه كان من المنتظر أن تقوم فى سبيل وضع الدستور كثير من العقبات ، وكان من المتوقع أن تبرز فى صدر تلك العقبات مشكلة التمهيد الضرورى لوضع قانون التعويضات ، وقد بذل الذين أخذوا على عاتقهم القيام بهذه المهمة جهوداً واسعة فى دراسة التحفظات دراسة عميقة ، وقد كان لزاماً عليهم أن يتصلوا اتصالا وثيقاً باللورد أللنبى الذى رعى الموقف فى يقظة دائمة غير منقطعة .

وفى هذه الظروف الدقيقة استأنفت جمعية اليد السوداء جهودها الرهيبة ، وهى الجمعية المسئولة عن اغتيال الكثيرين من الأوروبيين من قبل ، فكان فى عودتها إلى سابق جهودها تعكير للجو وتعقيد للموقف . وقد كان زعيم الجمعية وخالقها سجيناً فى القاهرة فى ذلك الحين ، غير أن سجنه لم يحل دون استعادة نشاط الجمعية . وكان فى نظام السجن الذى أباح زيارة هذا السجين الخطير ما مهد له سبيل الأتصال بأعوانه وإصدار أوامره لهم ، بل لقد قيل إنه لقى فى سجنه معاملة ممتازة .

وكانت الجمعية دقيقة النظام محكمة التكوين ، تستر السرية المطلقة كامل جهودها ، وتخفى نواحى نشاطها ، حتى بات الكثيرون يؤمنون أن فى استطاعة

أعضائها أن يفلتوا من يد العدالة مهما ارتكبوا من الحوادث .

فلم تكد تنقضى خمسة أسابيع منذ إصدار المرسوم حتى قتل المفتش الإنجليزى لبوليس القاهرة فى رائعة النهار ، ثم تلاه كولونيل إنجليزى لقى مصرعه على أبواب القنصلية البريطانية على أثر إصابتـه فى رئتيه ، ثم أطلق الرصاص بعد ذلك على موظف إنجليزى بوزارة الزراعة بينما كان فى عربة مع ولديه ، فجرح الموظف وأحد ولديه ونجا الثانى ، بينما أصابت القذيفةُ السائس فأردته قتيلا . وفى ديسمبر قتل المستر روبسن Robson الأستاذ بكلية الحقوق فى أحد شوارع القاهرة الرئيسية فى وضح النهار .

فدفعت هـذه الحوادثُ الملك فؤادا إلى التفكير فى ضرورة وضع حد لهذه الاعتداءات ، وحماية الأرواح من أمثال هـذه الحوادث ، وكان جلالته يقدر ما تنتهى إليه النزوات الإرهابية ، فبذل من الجهد ما وضع به السلطة فى يديه ، راجياً أن يتمكن من كبح جماح الذين يدفعهم نزقهم أو يسوقهم جهلهم بأساليب السياسة الحـكيمة المتزنة إلى سبل معوجة ملتوية .

ثم قيل إن نظاماً جديداً سيوضع لمصر يراد لها منه أن تكون دولة ملكية تحت الأحكام العرفية الإنجليزية دون أن يكون لها دستور ، ولو أتيح لهذا النظام أن يبرز للوجود لبدا عجيباً فى وضعه غريباً فى تكوينه .

وقدر لثروت باشا رئيس الوزراء أن يواجه فى ذلك الحين بداية النضال ، وشاءت الظروف الدقيقة أن يستمر الاحتكاك بين رئيس الوزراء ودائرة القصر ، فكان هذا الاحتكاك بحيث يدفع إلى اتساع دائرة الخلاف فى أحيان كثيرة بين جلالة الملك ورئيس وزرائه ، وكثيراً ما كان ثروت باشا يُدعى إلى القصر ليتلقى فيه استياء مليكه ، فلم تكد تنقضى أشهر قلائل حتى بات الموقف من الجفوة

والتعقد بحيث رفض الملك دعوة الوزارة لعقد مجلس الوزراء ، فكان فى ذلك ما حمل الجميع على انتظار نهاية الوزارة الثروتية .

ولكن تدخل اللورد أللنبى فى الأمر دعا الملك إلى تأجيل مطالبة ثروت باشا بالاستقالة إلى حين ، على أن جلالته كان مصراً على وجوب استقالة رئيس وزرائه . بينما بدا أن ثروت باشا يتعلق بمنصبه الرفيع فى حرص غريب ، وقد ود ألاّ يكون هدفاً لا نتقاد مليكه .

والواقع أن لوناً من التراخى كان قد ساد مختلف نواحى النشاط فى طول البلاد وعرضها ، وزعم الكثيرون أن أيام الخمول الحكومى القديم قد عادت مرة أخرى ، وبدا الركود واضحاً فى جميع مصالح الحكومة ، ورأى بعض الناس فى ذلك اللين الذى لقيه رئيس جمعية اليد السوداء فى سجنه ، دليلا من أدلة التهاون المعيب .

ورأى جلالة الملك فى هذا التراخى وذلك الركود مساساً بذاته ، فكان فى هذا الذى رآه جلالته ما دفعه إلى توجيه اللوم لرئيس الوزراء ، وما اضطره فى النهاية إلى التخلص منه .

وفى هذه الأثناء كانت الجهات الأنجليزية تترقب الفراغ من الدستور فى صبر نافد ، بينما كان جلالة الملك يرعى لجنة الدستور بكامل رعايته و يمدها بواسع رأيه .

فإذا كان شهر نوفمبر أصبح الموقف من التعقيد بحيث لا يحتمل التسويف ، وأمست العلاقات بين الملك وثروت باشا بحيث لا تشجع على إطالة عمر الوزارة ، فلم يتردد رئيس الوزراء فى الاستقالة ، وقد استطاع رغم جميع الظروف الدقيقة التى لابست عهده أن يُسيِّر دفة البلاد فى حذر ، بينما استطاع الملك فؤاد أن يبدى خلال هذه الفترة من الحزم والبصر بمسالك السياسة ما يؤكد حذق

جلالته وواسع خبرته . فولى الوزارة توفيق نسيم باشا ، وكان صديقاً حميما لجلالة الملك فؤاد وموضعاً لثقته وكريم تقديره . فاطمأن له الملك كامل الاطمئنان ، وأيقن أنه سيحقق له جميع رغباته .

استطاع إذن فؤاد أن يخطو خطوة حاسمة نحو مجده ، وقد أدرك فى هذه المرحلة نصراً واسعاً ، فتمكن من التخلص من الوزراء الذين لم يكونوا على وفاق مع جلالته ، وبات فى مقدوره أن يقدم للبلاد دستوراً يتلائم مع حاجاتها وطبيعتها يحتفظ فيه لذاته بما يمكن له من تسيير شئون شعبه فى حكمة واتزان ، ويمهد له سبيل السيطرة على العناصر السياسية الجامحة .

كان نسيم باشا حقيقة رئيساً للوزراء ، ولكنه لم يكن فى الواقع فى منصبه سوى صدى يردد رغبات الملك ، حتى لقد أصبح مركز جلالته الشخصى فى عام ١٩٢٣ من القوة بحيث لا تهزه الأعاصير . وقد عمد فى هذه الفترة إلى ما يضمن للبلاد الحد من تهليل الغوغاء ، وهى التجربة الوحيدة التى أقدم عليها مترددا .

وفى هذه الأثناء وضع النص الذى يضيف إلى ألقاب صاحب الجلالة لقباً جديداً يجعل من جلالته ملكا لمصر والسودان .

فلم يكد هذا النبأ يصل إلى اللورد أللنبى حتى طلب لقاء الملك العاجل ، ثم حمل إلى جلالته استياء حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، وأبلغ جلالته فى عبارات حاسمة رغبة حكومته فى سحب هذا اللقب الجديد ، حتى لا يكون للسودان ذكر فى هذا الموضع ، ثم ذكر فى لهجة لا تحتمل تأويلا أن حكومة لندن ستضطر إذا لم تعمل الحكومة المصرية على حذف ذلك النص والمسارعة إلى إصدار الدستور ، ستضطر فى هذه الحالة إلى أن « تعيد النظر فى الحال فى القواعد الأساسية » التى بنيت عليها سياستها الحديثة فى مصر ، فكان فى ذلك

إحراج للملك ، وبدت هذه الخطوة من جانب بريطانيا غريبة ، وهى التى احتفظت على الدوام بلينها وطول صبرها وقوة احتمالها ، وبرز البون واسعاً بين القفاز الحريرى الذى كانت تلبسه ، وتلك اليد الحديدية التى لوحت بها فى هذا الموقف الأخير .

وفى الحق أن الملك كان يعمل على إسعاد وطنه على النحو الذى يراه متفقاً وحضارته ، فكان يبذل فى هذا السبيل مخلصاً كامل جهده وصادق عنايته ، وكان يرجو أن يكون الحكم فى البلاد ؛ بحيث يميل إلى الأوتوقراطية الكريمة العادلة .

ومهما يكن من شىء ، فقد سارع الملك فؤاد إثر مقابلة اللورد أللنبى إلى دراسة الموقف فى جد وعناية ، فبذل فى سبيل الخروج من الموقف ساعات طويلة مليئة بالجهد والمشقة ، ولقى فى حل تلك العقدة ألواناً من العسر ، رغم براعته وبعد نظره .

وأخيراً انتهى جلالته إلى مطالبة نسيم باشا بتسليم مهام منصبه إلى غيره ، وكان فى ذلك سبيل الخلاص من المشكل . ثم دُعى يحيى إبراهيم باشا ليؤلف الوزارة الجديدة ، ويتولى إصدار الدستور فى أسرع فرصة محتملة .

ولم يكن يحيى باشا معروفا كل المعرفة لدى الشعب المصرى ، وكذلك لم يكن له لون سياسى بارز يميزه ، ولكنه كان رجلا مجداً عاملا لا تعوزه الشجاعة ، فلم يكد يتولى الحكم حتى سارع إلى إصدار الدستور ، والتوقيع على قانون التعويضات ، وإلغاء الأحكام العرفية .

وفى بداية عهده أطلق سراح سعد زغلول ، فغادر منفاه عائداً إلى وطنه ، فأثار هذا السلوك شعور الغبطة والفرح فى نفوس المصريين ، ولم ينسوا للملك موقفه الكريم .

قوى مركز الملك إذن ، وعاد سعد إلى أرض الوطن ، فاستقبله مواطنوه فى غبطة رائعة وترحيب كريم . ولم يكد يبلغ عرينه حتى سارع إلى القصر ، فأدى له الزيارة الواجبة .

وفى هذه الأثناء بذلت الجهود للتوفيق بين الملك فؤاد وسعد زغلول ، وكان لنسيم باشا أكبر الفضل فى نجاح هذه الخطة ، فتمت المقابلة الأولى بين الملك وسعد فى اليوم التاسع من نوفمبر بعد ظهور نتيجة الأنتخابات الثلاثينية ، وقد حرص سعد فى هذه المقابلة على أن يكون حديثه معتدلا فأفاض عليه من ذكائه ولباقته ما جعل منه نغما ليناً . وعلى هذا النحو الهادئ انتهت هذه المقابلة التى جمعت بين القائدين العظيمين .

وفى الثانى عشر من يناير سنة ١٩٢٤ جرت الأنتخابات لمجلس النواب ، ففاز الوفد فيها بأغلبية ساحقة ، فآن لسعد وأنصاره أن يتولوا الحكم ، فباتت فى أيديهم مقاليد الأمور .

الفصل الحادى عشر

توطيد الملكية

عند ما تخلت بريطانيا العظمى عن الحماية ، وأصبح سلطان مصر ملكا ، كان أول ما عنى به فؤاد هو توطيد الملكية .

فبدأ بإصدار مرسوم ملكى يحدد به نظام وراثة العرش . فقد كان نظام الوراثة حتى سنة ١٩١٤ متمشيا ومتفقا مع أحكام الفرمانات العثمانية . وقد مَنح فرمان ربيع الآخر عام ١٨٤١ ، لمحمد على الكبير حق توريث الولاية لسلالته وقصرها على الأكبر سنا ، أى أن ولاية العرش تنتقل إلى أكبر أمراء الأسرة لا إلى الأبن الأكبر للوالى الحاكم . ولذلك تولى عباس الأول المولود سنة ١٨١٣ بعد أخيه الأكبر إبراهيم باشا المولود سنة ١٧٨٩ ، وكذلك تولى محمد سعيد باشا ابن محمد على المولود سنة ١٨٢٢ بعد أخيه عباس الأول ، بينما ولى الخديو اسماعيل عرش مصر فى عام ١٨٦٣ لأنه كان وقتئذ أكبر أمراء الأسرة سنا .

وفى عام ١٨٦٦ استطاع الخديو اسماعيل أن يفوز من الباب العالى بموافقته على تغيير أساسى فى نظام الوراثة ، فجعلها حقا للأكبر من أبناء الوالى السابق مباشرة مع حرمان الفروع الثانية .

ولذلك تولى توفيق باشا بعد أبيه الخديو اسماعيل فى أغسطس سنة ١٨٧٩ ، ولما مات توفيق باشا فى يناير سنة ١٨٩٢ ، تولى العرش إبنه عباس حلمى .

وفى ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤ أعلنت الحكومة البريطانية أن « عباس

حلمى » قد فقد حقوقه فى العرش ، فخلفه « الأمير حسين » الذى اتخذ لقب « سلطان مصر » .

ونال السلطان حسين قبل وفاته بعامين موافقة الحكومة البريطانية على أن يكون نظام وراثة العرش كما يأتى : —

(١) إبنه الوحيد «الأمير كمال الدين» أو «الأمير أحمد فؤاد» أخو عظمته

(٢) إبن عمه « الأمير يوسف كمال » .

وقد اتفق على وجوب حرمان الخديو السابق عباس وسلالته فى جميع الظروف من أى حق فى عرش مصر على الدوام .

ولما أراد فؤاد أن يحدد نظام الوراثة غيّر المبادئ المتفق عليها بين مصر وبريطانيا وصرح بأنه لا يبتغى حرمان الأمير عبد المنعم بن عباس حلمى وسلالته من حقوقهم فى وراثة العرش فى حالة ما إذا انقرضت سلالة الإبن الأصلى .

ولما كان لعباس وسلالته منزلة فى قلوب المصريين ، فقد قابلوا هذا القرار فى لون من الأرتياح .

وكذلك عنى المرسوم ببيان نظام تشكيل مجلس الوصاية فى الحالات التى يكون الملك الجديد فيها صغيراً . فحال دون قيام وصى خاص ونص على تكوين مجلس للوصاية ولم يترك تعيين المجلس للصدف المحضة ، بل فرض لتكوينه نظاما خاصا ووضع له قيودا تضمن حقوق التاج مدة الوصاية ، وقرر فؤاد كذلك أنه إذا عجز الملك القائم عن تعيين مجلس الوصاية فعلى البرلمان أن يقوم بتعيينه .

ولما تقرر نظام الوراثة أصبح من الضرورى تحديد مركز الأسرة المالكة ، ووضع نظام لشئونها وما يتعلق بها . فبعض القواعد كان قد قررها العرف من قبل وأيدتها عدة مراسيم ، وعلى وجه خاص مراسيم ١٦ مايو سنة ١٩٠١ ، و ٢٣ نوفمبر سنة ١٩١٠ و ١٨ ابريل سنة ١٩١٥ . وعلى أية حال فقد كان لزاما

أن تجمع هذه القواعد وتربط ببعضها بحيث تكون متمشية مع النظم المعمول بها فى الدول الأخرى . ورأى فؤاد أن الأمر يستلزم إدخال تشريع يكفل تحقيق المساواة وعدم المحاباة فى تقرير مخصصات أعضاء الأسرة المالكة . وهنا رجع جلالة الملك إلى الأسس المعروفة المحترمة فى معظم البلاد الملكية والتى نص عليها القرآن والتى تحصر السلطة العليا فى الملك وتخوله حق السيطرة باعتباره رئيس الأسرة المالكة .

وقد بين المرسوم أعضاء الأسرة الملكية الذين يمنحون لقب أمير ورسم قواعد وراثة هذا اللقب . ونص فؤاد على أن لقب الأمير لا يمنح إلا لمن توفرت فيه الجنسية المصرية ، والدين الإسلامى ، والميلاد من زواج شرعى . ونص كذلك على أن الأمراء والأميرات يخضعون لكل القوانين المصرية ، ولم يبح لهم الزواج إلا بعد استئذان الملك . ورسم نظام إنشاء مجلس البلاط الذى ينظر فيما يتصل بأشخاص أعضاء الأسرة المالكة . ويضم هذا المجلس أميرا من أمراء البيت المالك ، ورئيس مجلس الشيوخ ، ووزير العدل ، ورئيس الديوان الملكى ، وشيخ الأزهر ، ورئيس محكمة الاستئناف الأهلية ، ورئيس المحكمة الشرعية العليا وفضيلة المفتى .

ورغبة فى استكمال النظام أصدر جلالته سلسلة من المراسيم لتعديل نظام الرتب وتحديدها . وقرر أن يكون فى مصر خمس رتب مدنية ، أولها مرتبة « الرئاسة » ويختص بها رئيس الوزراء ، ورتبة « الإمتياز » وخص بها الوزراء ، ورتبة «باشا» وتمنح لكبار موظفى الحكومة والممتازين من المصريين ، ورتبة «بك» وجعلها من درجتين وتمنح لموظفى الدرجات المختلفة العليا .

ثم أنشأ جلالته ثمانية «نياشين» وقلائد احتفظ لذاته الكريمة بحق منحها . وهى حسب أفضليتها «قلادة محمد على» وهى خاصة بجلالة الملك وكل ملك قائم .

« ونيشان اسماعيل » ويمنح لأشخاص معدودين فى دائرة محدودة . و «نيشان النيل » و « نيشان النجم الحربى للملك فؤاد » وخص به الضباط المصريين والأجانب الذين يمتازون بخدماتهم للجيش المصرى و «النيشان الزراعى» ويمنح لمن يمتازون فى الميدان الزراعى ، و « نيشان الكمال » وهو خاص بالسيدات المبرزات ، ومدالية الجدارة وتمنح لمن قاموا بأداء خدمة جليلة للدولة دون نظر إلى الجنس أو الجنسية ، ونوط الواجب ويمنح لرجال الشرطة وغيرهم ممن امتازوا بالمحافظة على الأمن العام .

وكذلك لم يهمل الملك فؤاد المسائل الثانوية الخاصة بالأعلام الرسمية للدولة .

فقد كان العلم المصرى حتى إلغاء التبعية التركية عام ١٩١٤ يشبه العلم العثمانى الذى يجمع هلالا ونجما فى لون أبيض على رقعة حمراء ، إلا أن العلم المصرى كان يمتاز بثلاثة نجوم بدلا من نجم واحد . وبقى العلم المصرى فى هذا اللون الأحمر يبدى هلاله ذا النجوم الثلاثة ، حتى جاء عقب الإستقلال علم جديد أخضر اللون ذو هلال واحد أبيض وثلاثة نجوم بيضاء .

وأخيراً صدر فى عام ١٩٢٣ مرسوم يعين شكل العلم الملكى ، وأعلام الملك ، وعلم ولى العهد . فاللواء البرى يشبه علم الدولة يضاف إليه تاج فى الزاوية العليا من الناحية الثابتة . واللواء البحرى مربع أزرق اللون يحمل شارة تاج فى الوسط يحيط بها الوشاح الأكبر من قلادة محمد على ، وفى كل زاوية منه تاج ملكى . أما علم ولى العهد فيشبه العلم الملكى ، غير أنه ينتهى بطرفين ، وليست به تيجان فى الزوايا .

لم يلق الملك فؤاد صعوبة فى رسم هذه القواعد ، ولكنه لقى فى وضع الدستور ألواناً من العسر وضروباً من الجهد والمشقة . فلما زار رئيس الوزراء

القصر الملكى عقب زيارة اللورد أللنبى لجلالة الملك أمره جلالته أن يتخذ العدة اللازمة لوضع الدستور دون إبطاء أو تمهل ، فقامت بوضعه « لجنة الثلاثين » .

ويحسن هنا أن نسجل الكلمة التى قدم بها الأمر الملكى رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٣ ، للدستور وهو الأمر الذى صدر فى ١٩ ابريل من تلك السنة :

نحن ملك مصر

« بما أننا ما زلنا مذ تبوأنا عرش أجدادنا وأخذنا على أنفسنا أن نحتفظ بالأمانة التى عهد الله تعالى بها إلينا نتطلب الخير دائماً لأمتنا بكل ما فى وسعنا ، ونتوخى أن نسلك بها السبيل التى نعلم أنها تفضى إلى سعادتها وارتقائها وتمتعها بما تتمتع به الأمم الحرة المتمدينة » .

« ولما كان ذلك لا يتم على الوجه الصحيح إلا إذا كان لها نظام دستورى كأحدث الأنظمة الدستورية فى العالم وأرقاها ، تعيش فى ظله عيشاً سعيداً مرضيا ، وتتمكن به من السير فى طريق الحياة الحرة المطلقة ، ويكفل لها الأشتراك العملى فى إدارة شئون البلاد والأشراف على وضع قوانينها ومراقبة تنفيذها ، ويترك فى نفسها شعور الراحة والطمأنينة على حاضرها ومستقبلها ، مع الأحتفاظ بروحها القومية ، والإبقاء على صفاتها ومميزاتها التى هى تراثها التاريخى العظيم » .

« وبما أن تحقيق ذلك كان دائماً من أجل رغباتنا ومن أعظم ما تتجه إليه عزائمنا ، حرصاً على النهوض بشعبنا إلى المنزلة العليا التى يؤهله لها ذكاؤه واستعداده ، وتتفق مع عظمته التاريخية القديمة وتسمح له بتبوء المكان اللائق به بين شعوب العالم المتمدين وأممه » .

أمرنا بما هو آت :

المادة الأولى : مصر دولة ذات سيادة ، وهى حرة مستقلة ، ملكها لا يجزأ

ولا ينزل عن شيء منه ، وحكومتها ملكية وراثية وشكلها نيابى .

وعلى هذا النحو أصبحت مصر بنص الدستور دولة ملكية حرة مستقلة .

وأمسى المصريون جميعاً سواسية أمام القانون ، وباتت حرية الأفراد مضمونة ، وحرمة المساكن والمتاع مكفولة ، وحرية العقائد مباحة مطلقة ، وحرية الرأى مؤكدة ، والصحافة حرة فى حدود القانون .

وغدا التعليم الأولى إلزاميا للذكور والأناث .

كما نص الدستور على أن الأمة مصدر السلطات جميعاً ، ووضع القوة التشريعية فى يد الملك بالاشتراك مع مجلس الشيوخ ومجلس النواب ، على أن يتولى الملك سلطته بوساطة وزرائه .

ويعين الملك خمسى أعضاء مجلس الشيوخ ، وينال الباقون عضويتهم بالأنتخاب العام بنسبة عضو واحد عن كل ١٨٠ ألفاً من السكان . أما أعضاء مجلس النواب فيكون تعيينهم بطريق الأنتخاب العام بنسبة عضو واحد عن كل ٦٠ ألفاً من السكان .

وللملك الحق بعد استشارة الحكومة فى فض مجلس النواب ، بشرط ألّا يحدث ذلك مرتين لسبب واحد .

ولا تفرض الضرائب أو تعدل أو توقف إلا بقانون . وميزانية الدولة يجب أن يوافق عليها البرلمان .

كذلك نص على أن دين الدولة الرسمى الإسلام ، وأن اللغة الرسمية هى اللغة العربية . وأن يطبق الدستور على المملكة المصرية دون أن يتعرض لحقوق مصر فى السودان .

وقد حرص يحيى ابراهيم باشا رئيس الوزراء على أن ينوه بالجهود التى بذلها جلالة الملك فى وضع الدستور فأذاع التصريح التالى :

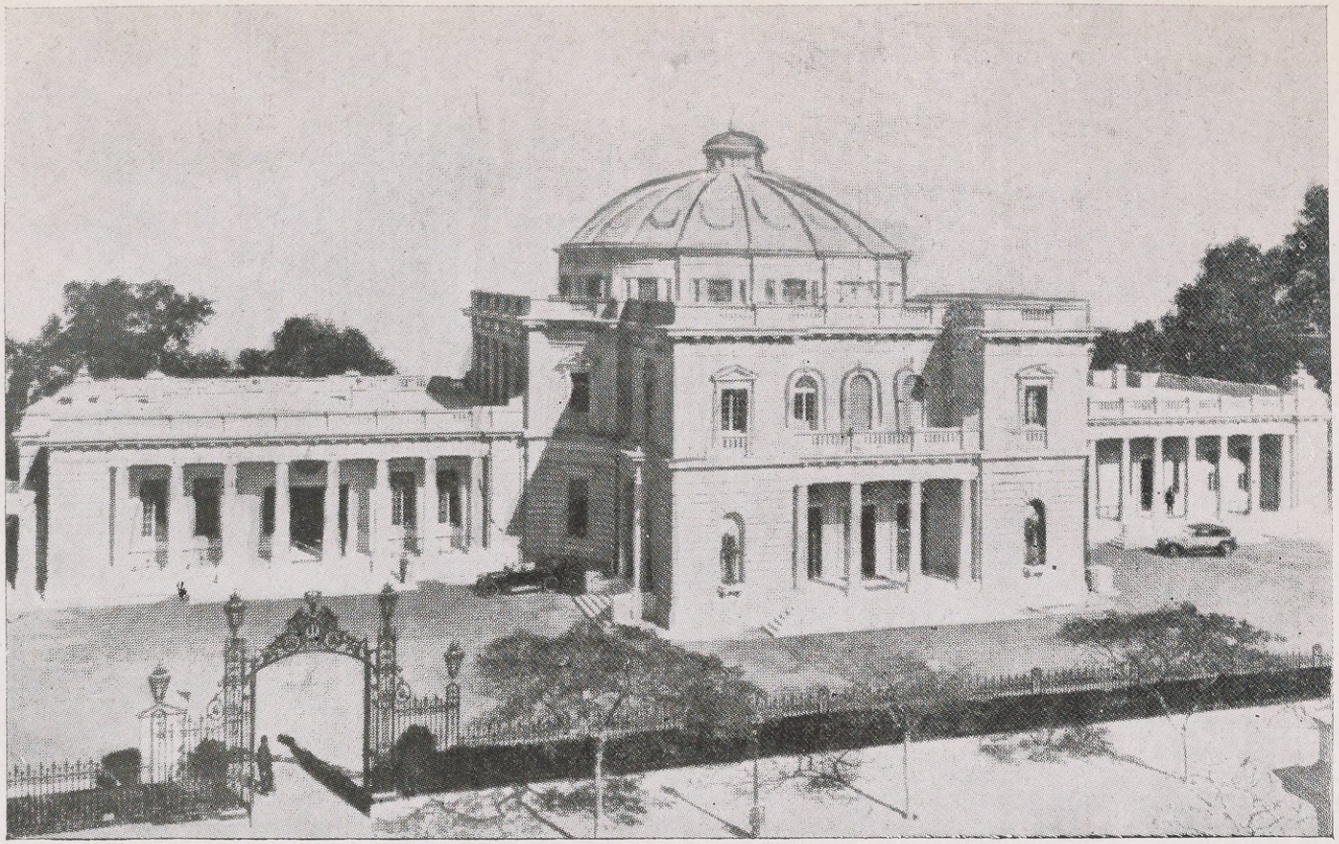

دار النيابة

« إن من أعظم السرور لدى أن توفقت إلى عرض مشروع الدستور فى شكله النهائى على عتبات مولاى صاحب الجلالة الملك لاستصدار الأمر الكريم به .

ومما يزيد غبطتى وهنائى أن الدستور بالصورة التى صدر بها ، قد حقق الأمانى القومية ، وأصبح لكل إنسان أن يرى أن المخاوف التى كانت تظهر من آن لآخر لم تكن قائمة على أى أساس . . . . »

« ولا يفوتنى أن أذكر أنه أثناء دراستى لمشروع الدستور كنت أتشرف على الدوام بعرض نتيجة مداولاتى مع زملائى على مولاى صاحب الجلالة ، فكنت ألاقى دائماً من لدنه كل عطف وتأييد ، وكان حفظه الله يقابل ما أرفعه إليه بروح تدل على ما فطر عليه من الميول الحرة الدستورية » .

« وقد كانت الملاحظات التى يتفضل علىّ جلالته بها متشبعة بما نشأ عليه من حب أمته ، وكان دائماً شديد الرغبة فى تحقيق الأمانى القومية كى تتمتع البلاد بدستور يليق بالمنزلة الرفيعة التى يرجوها جلالته لأمته من صميم فؤاده ، لتتبوأ مكانها بين الأمم الحرة المتمدنة » .

« فلم يبق على الأمة المصرية إلا أن تثبت بالطريق الذى تسلكه فى تطبيق هذا الدستور أنها تقدر حقيقة تلك المسئولية العظمى التى ألقيت على عاتقها ، وإنى لعلى يقين من أن المصريين الذين أدهشوا العالم طرا بنهضتهم ومجهودهم الوطنى العظيم سيبهرونه أيضا بسرعة نجاحهم التام فى الحياة الدستورية ، وفى تعلقهم المتين ومحبتهم الصادقة لأول ملك دستورى » .

وقد كانت الآمال قوية فى ألاّ تنزل هذه الأمانى بأرض مقفرة . ولكن سعداً الذى عاد إلى أرض الوطن من منفاه بدأ يهاجم الدستور ولما تمض على عودته بضعة أيام ، وكأنما قد استرد يوم بلغ عرينه قوته ؛ فحمل على الدستور والإنجليز ، وحزب الأحرار الدستوريين حملات سكب فيها منطقه و بلاغته ، وأفرغ عليها من حرارة قلبه لهباً ووهجاً .

الفصل الثانى عشر

سعد زغلول

استقالت وزارة نسيم باشا يوم وجه الإنجليز إنذارهم يطلبون فيه حذف النص الخاص بالسودان من الدستور، وقصر اللقب على «ملك مصر» بدلا من «ملك مصر والسودان» وقد رضى لها الملك هذه الاستقالة للخروج من المأزق.

فوليت الحكم وزارة يحيى ابراهيم باشا التى أتمت وضع الدستور ثم أصدرته وأجرت الأنتخابات فى نزاهة كاملة، ففاز فيها الوفد بأغلبية ساحقة.

وكان سعد قد حمل على الدستور حملات قاسية رمى من ورائها إلى أن تراعى فى وضع هذا الدستور أحدث قواعد الديمقراطية.

فلما فاز الوفد فى الانتخابات استقالت وزارة يحيى باشا، ودعى سعد إلى القصر فكلفه الملك فؤاد بتأليف الوزارة بوصفه زعيم الكثرة البرلمانية.

فكتب سعد بيانه الوزارى الذى قال فيه:

مولاى صاحب الجلالة.

«إن الرعاية السامية التى قابلت بها جلالتكم ثقة الأمة ونوابها بشخصى الضعيف توجب علىّ والبلاد داخلة فى نظام نيابى يقضى باحترام إرادتها، وارتكان حكومتها على ثقة وكلائها أن لا أتنحى عن مسئولية الحكم التى طالما تهيبتها فى ظروف أخرى، وأن أشكل الوزارة التى شاءت جلالتكم تكليفى بتشكيلها، من غير أن يعتبر قبولى لتحمل أعبائها اعترافاً بأية حالة أو حق استنكره الوفد المصرى الذى لا أزال متشرفاً برآسته».

« ولقد لبثت الأمة زمناً طويلا تنظر إلى الحكومة نظر الطير للصائد لا الجيش للقائد ، وترى فيها خصما قديراً يدبر الكيد لها لا وكيلا أميناً يسعى لخيرها ، وتولد من هذا الشعور سوء تفاهم أثر تأثيراً سيئاً إدارة البلاد وعاق كثيراً من تقدمها . فكان على الوزارة الجديدة أن تعمل على استبدال سوء هذا الظن بحسن الثقة فى الحكومة وعلى إقناع الكافة بأنها ليست إلا قسما من الأمة تخصص لقيادتها والدفاع عنها وتدبير شئونها بحسب ما يقتضيه صالحها العام » ... وإنى على الدوام شاكر نعمتكم وخادم سدتكم » .

والعجيب أنه بينما كانت الأنتخابات تجرى فى مصر ، كانت المحادثات بين اللورد اللنبى وسعد زغلول قد قطعت شوطاً واسعاً فى سبيل التفاهم ، ويذكرنى هذا الموقف بموقف بعض غلاة الوطنية الذين جاهدوا فى سبيل حرية بلادهم ضد الأنجليز ، وإنى لأذكر فى طليعتهم « الپانديت موتيلال نهرو » عضو حزب المؤتمر الهندى ، فقد كان خصما عنيداً لبريطانيا يشهر عليها الحرب كلما واتته الفرصة ، وينقدها فيميل إلى المرارة فى نقده ، غير أنه إذا أصبح مسئولا مال إلى الأعتدال ولقى كبار الأنجليز الذين كانوا يوماً موضعاً لطعناته فى كثير من المظرف واللين دون أن يرى هؤلاء فى صداقته غضاضة أو ضيراً .

كذلك كان سعد ، عنيفاً شديد العنف فى سياسته ، قاسياً فى حملاته ، لاذعاً فى نقده ، ولكنه كان فى ذاته يمقت وسائل العنف بعيداً عن ميدان السياسة ، والواقع أنه كان رقيق القلب ، تعمر الرحمة نفسه ، وتفيض بالظرف روحه ، قوى التأثير تفتن شخصيته أنصاره وأعداءه على السواء .

وهو لم يكن يمقت الأنجليز لذاتهم ، وإنما كان يدافع عن بلاده ويجاهد فى سبيل استقلالها ، وكثيراً ما تحدث لأصدقائه المقربين عن أيامه التى قضاها فى العمل مع الموظفين الأنجليز تسود المحبة علاقاتهم الشخصية ، وكان إلى ذلك

يحب الخلق الأنجليزى ، ولكنه قصر جهوده على محاربة بريطانيا وكل ما تأتى به مما يتعارض وصالح وطنه .

وفى السابع والعشرين من يناير فاز سعد بساعة النصر فألف وزارة الشعب الأولى التى تولى رئاستها .

وفى ١٥ مارس افتتح الملك فؤاد أول برلمان مصرى ، وقد غمرت نفسه الغبطة وتجمعت فى أعماقه دواعى الفخر . وألقى سعد خطاب العرش نيابة عن مليكه فقال :

حضرات الشيوخ . حضرات النواب .

« أهديكم أطيب سلامى . وأحيى فيكم ممثلى شعبى الكريم . وأهنئكم منتخبين ومعينين بالثقة العظمى التى حزتموها لتؤلفوا أول برلمان مصرى تأسس على المبادئ المصرية . وأحمد الله أن تحققت بتأسيسه أمنية من أعز أمانى وأول رغبة من رغبات أمتى الشريفة » .

« اليوم تدخل فى دور التنفيذ النظامات النيابية التى قررها الدستور . ولا ريب فى أنها تبشر بإقبال عصر جديد من القوة والسعادة على بلادنا المحبوبة » .

« لقد وضعت البلاد فيكم ثقة عظمى . وألقت بها عليكم مسئولية كبرى . فأمامكم مهمة من أدق المهمات وأخطرها . إذ يتعلق بها مستقبل البلاد ، وهى مهمة تحقيق استقلالها التام بمعناه الصحيح . ولا شك أنكم ستعالجونها بروح من الحزم والحكمة والروية . وأنكم ستجدون من أهم مسهلاتها الاتحاد المقدس الذى لا انفصام له بين العرش والأمة ، والذى توثقت اليوم عراه بالقسم العظيم الذى أقسمناه ، وستؤدونه أنتم عما قليل » .

« لهذا يحق لى أن أصرح علناً باسمى وباسمكم أن حكومتى مستعدة للدخول مع الحكومة البريطانية فى مفاوضات حرة من كل قيد ، لتحقيق الآمال

القومية بالنسبة لمصر والسودان مملوءة من الرجاء فى الوصول إليها بقوة حقنا ، وعناية الله القدير » .

أيها الشيوخ والنواب .

« إن مهمة الحكومة والبرلمان كبيرة خطيرة شاقة . منها ما أشرت إليه ومنها ما هو معروف لكم من كل ما فيه خير البلاد وتقدمها . ولكنى عظيم الثقة فى أن هذه المهمة تتم تدريجاً بفضل الروح القومية التى بعثت فى شعبى الكريم قوة جديدة وملاته حمية للعمل وغيرة على خير الوطن » .

« ويملأ قلبى سروراً أن أفتح الدور الأول للبرلمان وأدعوكم للبدء فى أعمالكم داعياً الله تعالى أن يسدد خطواتكم وأن يوفقنى وإياكم لما فيه خير البلاد » .

وتبوأ الزغلوليون مراكزهم يحدوهم الأمل الباسم ويغمرهم التأييد الكامل يتلقونه من جميع الجهات ، وكانت النجوم فى أفلاكها تنبئ بحسن الطالع وتبشر بمجد المستقبل ، واتفق فى ذلك الحين أن وليت الحكم فى انجلترا أول وزارة قومية ، فاغتبط لذلك الوفديون أشد الاغتباط ، وباتوا يتوقعون لمطالبهم كامل التأييد وحسن القبول ، وشجعتهم فى اغتباطهم تصريحات زعماء العمال السياسيين الذين سبقت لهم زيارة مصر ، وتلك الخطب التى ألقاها العمال فى سنت ستيفنز .

وبدأ سعد أعمال وزارته بالإفراج عن المسجونين السياسيين ، وقد كان يخشى أن تعارض انجلترا فى الأمر لكراهيتها لأعمال العنف ، غير أنه لقى من المستر مكدونلد رئيس وزارة العمال موافقة سريعة وتأييداً عاجلا للأفراج عنهم دون استثناء بعد أن اشترط على الوزارة صيانة الأمن العام .

ثم التفت بعد ذلك إلى الموظفين الإنجليز ، يلزم كلا منهم دائرته التى ترسمها له وظيفته ، وقد كان يرى أنهم لا حق لهم فى هذه التعويضات التى يحصلون

عليها عند الخروج من خدمة الحكومة المصرية ، واعتقد أن وزارة المستر رامزى مكدونلد لا تقبل التمسك بمثل هذا القانون الجائر .

ثم وجه سعد جهوده نحو السودان ينشر فيه دعايته و ينفخ فيه من روحه ، حتى قيل إن ما حدث فى السودان من الحوادث فى ذلك الحين ، إنما كان نتيجة للروح التى بثها الدعاة فى السودان فى عهد الوزارة الشعبية .

وبدأ سعد بعد ذلك يعمل على الشروع فى المفاوضات مع الحكومة البريطانية للوصول إلى حل للقضية المصرية .

وأخيراً و بعد تسويف طويل كتب مستر مكدونلد إلى سعد يقول إنه يرغب رغبة شديدة فى الاشتراك فى إعادة حسن التفاهم فى العلاقات بين البلدين وأنه يكون مسروراً لو قابله فى لندن .

فى هذه الأثناء حاول شاب مفتون أن يغتال سعداً ، فأطلق عليه رصاصة من مسدس وهو فى محطة العاصمة فى طريقه إلى الإسكندرية فى الثانى عشر من يوليه ١٩٢٤ ، فأصابت الرصاصة صدر الزعيم ولكنها لم تكن قاتلة ، وقد أبدى سعد فى هذه اللحظة شجاعة رائعة ، إذ التفت إلى الوزراء الباكين حوله وقال لهم : « لا تحزنوا .. ولا تبتئسوا .. إذا مات سعد فمبدأ سعد باق لا يموت . إعملوا من بعدى وثابروا على تحقيق سعيي » ، وقد اهتزت البلاد لهذا الحادث اهتزازاً عنيفاً ، وكادت الجماهير تسحق المعتدى ، لولا أن أنقذه رجال الشرطة .

وبدأت المفاوضات بين سعد ومكدونلد ، فلم يتردد سعد فى أن يطلب سحب جميع القوات البريطانية من الأراضى المصرية ، وسحب المستشار المالى والمستشار القضائى ، وزوال كل سيطرة بريطانية على الحكومة المصرية ، ولا سيما فى العلاقات الخارجية ، وعدول الحكومة البريطانية عن دعواها حماية الأجانب والأقليات وقناة السويس .

فانقطعت المفاوضات قبل أن يكتمل الأسبوع ، وقد جاء فى برقية أذيعت من لندن فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٤ ما يأتى :

« خرج زغلول باشا من منزل رئيس الوزراء فى « دوننج ستريت » الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثلاثين هذا اليوم ، وأصدرت وزارة الخارجية البريطانية البلاغ الرسمى الآتى :

جرى اجتماع آخر بين زغلول باشا ومستر مكدونلد اليوم وختمت المحادثات بينهما ، فسيعود زغلول باشا قريباً إلى مصر بسبب شدة برودة الطقس ، وتوقعاً لعودة البرلمان المصرى إلى الأجتماع » .

على أن سعداً صرح على أثر انقطاع المفاوضات فقال :

« إنك تستطيع أن تقول الآن أننا لم نتفاوض إذ رأينا أن ما لدينا من الوقت ليس كافيا للاتفاق ، ثم إن حالتى الصحية تتطلب أن أغادر انكلترا فى أقرب وقت ، ولا سيما أنه قد اقترب موعد افتتاح البرلمان المصرى » .

وعاد سعد إلى مصر بعد قطع المفاوضات يواصل جهوده فى سبيل بلاده .

وهنا وقع ذلك الحادث المشئوم ، الذى كان له أبلغ الأثر فى تغيير مجرى الحوادث فى مصر .

فقد قتل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى بطلقات من مسدس على مقربة من وزارة المعارف فى القاهرة .

ونجح الذين اغتالوه فى الهرب بسيارات كانت تنتظرهم قرب مكان الجريمة

وقد فزع اللورد اللنبى فزعاً شديداً لهذا الأغتيال وقضى فى مكتبه وقتاً عصيباً تواردت على رأسه فى خلاله شتى الخواطر ، فرأى أن الوقت قد حان لتفهيم مصر بأن القتل عبث لا يجدى .

فطلب الأعتذار أولا ، ثم معاقبة المجرمين مع دفع نصف مليون جنيه

إنجليزى غرامة واتخاذ إجراءات مختلفة فى السودان .

ثم أتبع اللورد أللنبى طلباته الأولى هـذه بطلبات أخرى تبين مدى التغييرات التى رآها فى إدارة السودان . وسرعان ما وافقت لندن على هذه الأحتياطات وهى :

الأعتذار .

العقاب .

سحب جميع الضباط والوحدات المصرية من السودان .

تكوّن الوحدات الباقية قوة الدفاع السودانية .

تدفع مصر مليون جنيه سنوياً نظير الخدمات التى تؤديهـا قوة الدفاع السودانية .

يكون تعيين الحاكم العام للسودان بوساطة الحـكومة البريطانية .

الموافقة على زيادة مساحة الأراضى القابلة للزراعة والرى فى السودان .

تثبيت مركزى المستشارين المالى والقضائى اللذين طالما هاجمهما سعد وشن الغارة على بقائهما .

ولـكن رسالة لندن أغفلت كل إشارة إلى الغرامة .

وقد أبدى سعد فى رده على اللورد أللنبى ما يدل على مقـدار فزعه من الجريمة ، ولـكنه أعلن أن الحـكومة لا يمكن أن تكون مسئولة عن هذا الأغتيال إلى المدى الذى يراه اللورد أللنبى .

وما كاد المندوب السامى يقرأ هذه الوثيقة حتى أبلغ سعدا على الأثر بأن الأوامر قد صـدرت فعلا بسحب جميع الضباط والقوات المصرية من السودان ، وأن الأوامر ستصدر للسودانيين ليزيدوا نصيبهم من ماء النيل ، وأنه عازم على الاستيلاء على الجمارك ، وكان قد استولى عليها فعلا .

وقد أحدث قرار سحب الوحدات المصرية من السودان قلقا شديدا ، وأيقن سعد الذى كان قد بالغ فى الزراية بالسياسة البريطانية والتصريحات الإنجليزية أنه كان قد أسرف إسرافا شديدا فى تجنيه ، وأبى صديقه اللورد أللنبى أن يخاطبه أو يستمع لشىء مما أدلى به ، ثم أعلن فى عبارة صريحة أنه يعد سعدا مخطئا فى سلوك ذلك النهج الذى لزمه ، وآمن سعد أن هذه الفاجعة قد أثارت اللورد أللنبى فهيجت روح الجندية فى أعماق نفسه ، فبدا كأنما يطعن هدفا ، وكأن هذا الهدف هو شخص سعد .

فلم ير سعد بدا من الأستقالة .

غير أن الدعاية الوفدية كانت قد انتشرت فى السودان بين الجيوش المصرية والسودانية .

فلما صدرت الأوامر للمدفعية المصرية والأورطة الثالثة بمغادرة السودان ، والسفر إلى مصر ، رفضت إطاعة الأمر حتى يصدر لها من الملك فؤاد مباشرة .

فلما أنهى النبأ لجلالة الملك ، أصدر الأمر فى الحال .

غير أن الموقف لم ينته عند هذا الحد ، فقد انضم المتطرفون من المصريين إلى الأورط السودانية ، ثم أذاعوا فى البلاد أن الغرض من هذه الحركة هو إخلاء السودان ، فتمردت الفرق السودانية فى الخرطوم وغيرها من المراكز ، وهبت فتنة دار فيها قتال عنيف ، وقد بذلت فى سبيل استعادة الهدوء والاستقراء جهود كبيرة .

وكان فى نفور الوحدات السودانية الخالصة ما دفع إلى الموقف ألوانا من الحرج .

فبعث الحاكم العام فى السودان ، برقية إلى لندن ينبئ فيها الحكومة البريطانية بأنه يرى من المستحيل أن يعيد تكوين الجيش بحيث يحلف يمين

الطاعة لجهتين ، وألح فى طلب البت فى الأمر فى سرعة وحزم .

ولو أجيب هذا الطلب فى اليوم التالى لمقتل السير لى ستاك مباشرة ، لما كان من المحتمل أن تستعيد مصر حقوقها فى السودان فى وقت من الأوقات ، وقد أظهر المستر تشمبرلين فى هذا الموقف ألوانا من التردد وخشى ما قد ينجم عن مثل هذا السلوك وما قد يحدثه مثل هذا الأسلوب من الأثر فى أفكار الأجانب .

أصابت اللطمة مكان العزة من نفس مصر ، وازدادت العلاقات التى تربط بين مصر وانجلترا توترا ، فهبطت على أكتاف فؤاد أعباء المسئولية ثقيلة مضنية .

وعز على الملك أن يرى تلك النهاية التى وصل إليها سعد وهو الزعيم القوى ، ورأى فى الثمن الذى كلفت مصر بتقديمه غلوا يجعله فادحا إلى أبعد مدى ، فحز القلق فى نفسه .

وهنا ولى الوزارة أحمد زيور باشا فاحتل مكان سعد فى الرئاسة ، وزيور باشا رجل مرح موفور المرح ، يرغب أشد الرغبة فى إرضاء الملك بل لقد بلغ حد المغالاة فى هذه الرغبة ، وكذلك كان شديد الميل إلى إرضاء المندوب السامى ، وكان الملك يعرف له هذه الميول ، ويعرف إلى ذلك مزاجه واتجاهات روحه فزيور باشا يضع المشروع ثم يتابع العمل فيه فى جد ويقظة ما دام هذا المشروع موضعا للرضاء ومحطا للتأييد ، غير أنه لم يكن ليصبر على طول الجهد أو يثبت له .

وفى أواخر عام ١٩٢٤ ، إنفض البرلمان ، ومهد لإجراء الانتخابات الجديدة ، فحميت المعركة مرة ثانية .

وقد عهد فى هذه الفترة بوزارة الداخلية إلى صدقى باشا ، ولهذه الوزارة سلطة واسعة فى البلاد ، وصدقى باشا شخصية قوية موفورة الحظ من المقدرة والذكاء وقوة البأس ، وهو إلى ذلك خصم عنيد لسعد ، فلم يتردد فى استخدام نفوذه وبراعته فى هذه المعركة .

وحدث عند ما ترك سعد الوزارة فى هذه المناسبة أن تخلى عنه كثيرون من أتباعه ، غير أنه لم ينثن فواصل النضال قويا ، ودأب على بذل الجهد ملتهبا ، فلم تفتر عزيمته ، ولم تهن سطوته ، وراح يثير الحماس و يلهب المشاعر .

وهنا بدت فى جو السياسة المصرية طلائع حزب جديد ، لم يكد يولد حتى تقاطر إليه الأنصار يدفعهم ما أذيع من أنه حزب القصر ، بل حزب الملك ، ذلك هو حزب الأتحاد . وانتهت الأنتخابات وانجلت المعركة ، غير أنها لم تسفر عن فوز ساحق لجهة من الجهات كما قالت الحكومة فى ذلك الحين ، ولكن سعدا استطاع أن يفوز برئاسة المجلس .

ومات المجلس ساعة مولده ، فقد صـــدر المرسوم بحله فى أمسية يوم اجتماعه الأول .

ونحن لا نستطيع أن ندع الحديث عن سعد دون أن نعرض لعلاقته بالملك فؤاد ، ولو أننا سمعنا للأشاعات الكثيرة التى كان يروجها أناس لهم أغراض فى ترويجها لأجهدنا أنفسنا كثيراً فى اللف حول منعرجات هذه الإشاعات الكثيرة الملتوية ، ولارتطمنا فى النهاية بما أسموه مطامع سعد فى الحكم ، على أن الواقع الصادق يؤكد أن سعدا ما كان ليخفى فى نفسه أطماعا معينة ، بل لقد كان ينتهز كل فرصة مناسبة ليؤكد صادق إجلاله للبيت العلوى ، وخالص ولائه لذات فؤاد ، و إن ما كان يبدو بينهما من الجفوة إنما هو ما كانت تبتنيه ظروف السياسة بين بطلين عظيمين ، وقائدين وضعتهما مقدرتهما فى الذروة والطليعة ، ففؤاد وارث عرش محمد على قد حذق فنون الملك ومكن له ذكاؤه من أساليب السياسة الحكيمة المتزنة ، فرأى أن يقود شعبه نحو المجد الذى يرتضيه فى الأسلوب الذى يبدو فى مجرى تجاربه ، وسعد الزعيم الذى وضعته مقدرته فى مكان الزعامة من أمته يقودها فى نضاله نحو الغاية التى جاهدت فى سبيلها طويلا وقد اختار لذلك

سبيله ، فكان حتما إذن أن تلتقى الخطتان حينا ، وأن تبتعدا حينا آخر وهما فى كلا الحالين ترميان نحو هدف واحد ، يعمل الملك لإدراكه جاهدا ليبلغ بشعبه الذروة التى يرضاها له ، ويدأب سعد فى السعى للوصول إليه طمعا فى مجد الوطن وسعادة المواطنين .

ولو أننا تحرينا وجه الحقيقة فيما أدلى به سعد من التصريحات لآمنا أنه كان شديد الإخلاص لمليكه خالص الولاء لبيته ولذاته ، وقد كتب سعد فى يناير سنة ١٩٢٤ إلى عبد الخالق ثروت باشا يرد على خطاب وصله منه يطلب إليه فيه الأحتكام إلى الأمراء ، وكان بين ما جاء فى هذا الرد :

« ولعلكم توهمتم أن الدسيسة التى دبرها أنصاركم فى مسألة العرش قد غيرت من خواطرهم الشريفة فأردتم أن تستفيدوا من هذا الظرف بعرض ما تعلمون أنه غير مقبول ولا صالح للقبول حتى تتخذوا من رفضه المحتم ، حجة لكم ومكانة عند سموهم ، ولكنكم واهمون فى توهمكم لأن تلك الدسيسة جاءت مكشوفة تحمل فى نفسها دليل اختلاقها ولا يمكن أن تحدث فى نفوسهم النبيلة أدنى أثر ، خصوصا وهم متأكدون من قبل أنى أحفظ لأشخاصهم السنية ، ولبيتهم العلوى السامى ، ولعرشهم المجيد كل احترام واجلال » .

وقد أبرق الملك فؤاد إلى سعد زغلول عقب محاولة الإعتداء عليه يقول : « إن صحتك أعز شىء فى الدولة » .

وكذلك بلغ من عطف فؤاد على سعد أنه كان يحضر من القبة إلى قصر عابدين ليقابل سعدا هناك ضنا بصحته أن يهزها الجهد فى صعوده على قدميه إلى الدور العلوى من قصر القبة ولم يكن به مصعد لاستخدامه .

وقد قال سعد فى هذه المناسبة « لقد طوانى الرجل ، وأنه لقدير » .

الفصل الثالث عشر

الأوتوقراطية

سيطر الملك فؤاد على الموقف بعد حل مجلس النواب ، فأراد أن يعدل قانون الأنتخاب بما يتمشى وما أثبتته التجارب الماضية ، فلقى هذا الرأى معارضة من جانب الوفديين ، وكان حتما أن يستغرق مثل هذا العمل وقتاً قد يطول .

فسنحت الفرصة لحزب الأتحاد ليشتد أزره وتبرز جهوده .

وفى هذه الفترة اختصم عضوان من أعضاء الوزارة القائمة لأسباب شخصية خالصة ، وكان من المحتمل أن يفضى الملك فؤاد عن مثل هذه الخصومة لولا أنه رآها فرصة مواتيـة للخلاص من هذه الوزارة ، وقد مكنت هذه الخطوة الملك فأمسك بيده زمام السياسة المصرية يوجهها حيثما أراد ، فباتت الدولة فى يد القصر ، وأصبح لحسن نشأت باشا مستشار الملك ووفيه شأن خطير فى تسيير دفة البلاد .

وفى الحق أن فؤاداً كان يؤمن بالنظام الدستورى ، ولـكنه كان يرى أن يقيد هذا النظام بما يتفق وطبيعة شعبه ، وكان يرى إلى ذلك فى الأوتوقراطية المتزنة العادلة خيراً كثيراً لبـلاده ، وسبيلا يوفر على مصر كثيراً من المشاكل التى تعترض طريقها .

وقد اختلف المصريون إزاء هذا الاتجاه الجديد فـكان بينهم من لم يرض عن عودة الأوتوقراطية خشية ما قد يصحبها من تعسف واستبداد .

وربما كان من المحتمل ألاّ يضطرب المصريون هذا الأضطراب أمام اتساع سلطان الملك فؤاد لو لم يمنح جلالته لرئيس ديوانه نشأت باشا تلك السلطة الواسعة التى استغلها على نحو أثار معه — وهو المخلص للقصر — شعور المصريين جميعاً ، وأهاج به الرأى العام حتى دفع الوفديين والدستوريين فى النهاية إلى التفاهم وتوحيد الجهود ، مما انتهى إلى دعوة مجلس البرلمان للانعقاد طبقاً لنص الدستور .

وقد أيد سعد هذه الخطة من كل قلبه فهيأ نفسه لجميع الاحتمالات ، وبذلت الجهود لاجتماع المجلسين وأعدت الترتيبات الضرورية ، وفى الموعد المضروب توافد أعضاء مجلس النواب ومجلس الشيوخ السابقون إلى دار المجلس ولكنهم ألفوا الطريق إليها موصداً . وقد رابط رجال الشرطة عند منافذ السبل المؤدية إليها وعاونهم فريق من رجال الجيش قاموا على حراسة الدار والطرقات ، فعاد النواب دون أن يحدث بينهم وبين تلك الفرق المرصوصة احتكاك ما ، وهؤلاء هم نواب الأمة وصفوة رجالها وقادة الرأى فيها ، لم تكن تدفعهم العاطفة الجامحة أو الشعور المهتاج ليرتكبوا من الحوادث ما يرتكبه الأفراد من عامة الشعب .

ولم يكن فى عودتهم أى لون من ألوان الهزيمة ، فقد رتبوا خطتهم من قبل على عقد جلسة المؤتمر فى « فندق الكنتننتال » ، وهناك فى جو هذا الفندق الرائع انعقد المؤتمر ، فجمعت الجلسة بين الوفديين والأحرار الدستوريين والوطنيين ، وانعقد الإجماع على اختيار سعد لرئاسة هذا الأجتماع التاريخى .

وليس من ريب فى أنه كان فى هذا الأجتماع ما أثار الحكومة وهزها ، وكان فيه كذلك ما لم يرتح له نشأت باشا مستشار القصر وولى فؤاد المخلص الحميم . وهو الرجل الحريرى الذى يفيض رقة وظرفا ، والذى بلغ من اتساع

نفوذه أنه كان يصدر أوامره لرؤساء الفروع الحكومية مباشرة دون وساطة الوزير فيجد الطاعة الخالصة والإذعان الأكيد .

وفى هذه الفترة كان اللورد اللنبى قد غادر أرض مصر منذ أيام وخلفه فى منصبه السامى « اللورد لويد » فبدت له السياسة المصرية غريبة معقدة ، وقد كلفه حلها ألواناً من الحيرة فتطلع إليها أول الأمر يائساً تضنيه الحيرة ، ويشق عليه الجهد .

وبعد أن تمت للورد جورج لويد دراسة الموقف ، أدرك أن الضرورة تتطلب انتزاع نشأت باشا من القصر وإبعاده عن جو السياسة المصرية . ليكون فى ذلك ما ينتفى معه ما دخل فى روع الشعب من ميل القصر إلى الأوتوقراطية ولتهدأ به ثورة الرأى العام التى أثارها نفوذ نشأت باشا ، فطلب اللورد لويد من جلالة الملك فى ديسمبر سنة ١٩٢٥ إقصاء نشأت باشا فقبل جلالته بعد لأى ، ثم صدرت الأوامر بتعيينه وزيراً مفوضاً لمصر فى مدريد .

فأحدثت هذه الخطوة تغييراً كبيراً فى جو السياسة المصرية . وكانت الظروف السياسية قد جمعت فى ذلك الحين بين مختلف العناصر السياسية المعارضة للوزارة ، وكانت الوزارة تبغى إجراء الأنتخابات على مقتضى القانون الصادر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٢٥ ، فعارضت الأحزاب مجتمعة فى هذا القانون وطلبت وقف العمل به ، فأجابت الوزارة رغبتها وأعلنت العمل وفق القانون رقم ٤ لسنة ١٩٢٤ .

ودارت المعركة مرة أخرى ، ولكن الأحزاب المؤتلفة كانت قد اتفقت فيما بينها على توزيع الدوائر توزيعاً يتفق ومركز الأحزاب إلى حد ما ، فلما انتهت الأنتخابات فاز الوفد بأربعة وأربعين ومائة مقعد ، ونال الأحرار الدستوريون ثمانية وعشرين مقعداً ، بينما كان نصيب حزب الأتحاد سبعة مقاعد ، وقد كان

مجموع أعضاء المجلس فى ذلك الحين واحداً ومائتين .

فثارت فى الجو مشكلة جديدة . فهل يعود سعد وهو زعيم الكثرة البرلمانية إلى تأليف الوزارة ؟ أم يعهد بها لسواه ؟

وإذا أصر سعد على أن تكون له الرياسة فكيف السبيل إلى الخروج من هذا المأزق ، وتلك إنجلترا تريد أن يلى الوزارة غيره ؟ وبدا كأنما البلاد تقترب من عهدها القديم ، فهل تلك نذر العودة إلى عصر الحماية ؟

وبدا جو السياسة معقداً وباتت البلاد تتأرجح لا تدرى ماذا يراد لها ، أو ماذا يخفيه لها القدر فى طياته .

كانت إنجلترا تريد أن يلى الوزارة عدلى باشا ، ولكن هذه الرغبة لم تكن لتتفق والقواعد الدستورية التى تقضى بأن يعهد بالوزارة إلى زعيم الكثرة .

فى هذه الأثناء تقابل سعد وچورچ لويد فتناولا الموقف على صورة من الصور ، كان فيها رغم قصورها ما فهم منه كل من المتحدثين نيات صاحبه .

وهنا صدر حكم محكمة الجنايات فى قضية الأغتيالات السياسية فى مايو سنة ١٩٢٦ ببراءة الأستاذ محمود فهمى النقراشى والدكتور أحمد ماهر مما نسب إليهما فى هذه القضية ، فلم يلبث المستر كرشو عضو هيئة المحاكمة أن كتب إلى وزير العدل عقب إصدار الحكم يقول :

« وعندى أن حكم البراءة فى تهمة محمود عثمان مصطفى ، والحاج أحمد جاد الله ، وأحمد ماهر ، وحسن كامل الشيشينى يناقض وزن الأدلة إلى حد الإخلال بتنفيذ العدالة . وقد بلغت خطورة هذا الإخلال فى رأيى وخطورة النتائج التى تنجم عنه حدا جعلنى أعتبر أن من واجبى الخروج فى هذه الحالة على مبدأ المحافظة على سرية المداولة ، وتوجهت بعد إصدار الحكم إلى دار المندوب السامى فأطلعت فخامته على رأيى باعتباره حامياً للأجانب » .

ووجهت الأتهامات إلى الوفد تحمله مسئولية مقتل السردار بينما الواقع أن

سعداً كان زعيما رقيق القلب يمقت وسائل العنف أشد المقت ، ورأى فى هـذه الحملة تعسفاً لا يتفق وقواعد الحق والعدالة ، وهذا حكم المحكمة يؤيد هذه البراءة ويؤكدها ويقطع ببعد الوفد عن مواضع هذه التهم ، على الرغم من هذا الرأى الذى طلع به المستر كرشو .

وهنا كتب اللورد لويد إلى حكومته يفصل لها الموقف ، ويرى أن توافقه هويت هول على إقصاء سعد عن الوزارة ليتولاها عدلى باشا ، فترددت حكومة لندن فى إعلان هذا الرأى فى صراحة قاطعة .

وقابل اللورد لويد جلالة الملك فؤاداً وأبدى لجلالته هذه الرغبة ، ولـكن فؤاداً لم يوافقه على إعلان هذا الرأى .

على أن جواب حكومة لندن الذى كان ينتظره لورد لويد قد وصل إليـه بعد لقائه لجلالة الملك ، فألقى فيه تأييداً لخطتـه ، على أن الحـكومة الأنجليزية طلبت إلى مندوبها إذا رأى الضرورة داعيـة لإقصاء سعد عن الوزارة أن يعزز مركزه بطلب سفينة حربية فى الحال لترسو فى ميناء الاسكندرية ريثما ينجلى الموقف فى صورة قاطعة .

على أن سعداً وقد رأى الخير لبلاده فى تنحيه عن رياسة الوزارة لم يتردد فى إعلان هذا الرأى .

وقد زار بعد ذلك دار المندوب السامى .

ثم زار القصر يؤكد إخلاصه لفؤاد ويبدى ولاءه لصاحب التاج ، فلقيه الملك فى عطف خالص وتقدير عميق .

وأعلن سعد لجلالة الملك فؤاد فى هذا اللقاء استعداده الصادق لتأييد عدلى باشا ، فلم يتردد الملك فى أن يغمره بوافر إعزازه .

وشكل عدلى باشا وزارته التى سماها سعد « وزارة اندماج » ولم يرض لها النعت الذى أطلق عليها فى ذلك الحين « وزارة الائتلاف »

الفصل الرابع عشر

هدوء سياسى

لم يكد يغمر الجو السياسى لون من الهدوء والاستقرار ، ولم تكد تلوح فى طريق الملك فؤاد فسحة من الوقت ، حتى بدأ يطوف أقاليم مصر العليا والسفلى فزار الوجهين البحرى والقبلى ، وشبه جزيرة سيناء ، وصعد فى النيل حتى أسوان ، وزار كذلك مدينة الأقصر .

وقد وقف فؤاد خلال هـذه الرحلات عند كل موقع يستأهل الرعاية ، وأشرف على كل مكان يستوجب الزيارة ، ومنح جهات البر والجمعيات العامة الـكثير من المنح المالية نزل عنها راضياً مغتبطاً من ماله الخاص .

ثم بدأ يوجه صادق عنايته نحو التمثيل السياسى ، فغمر هذه الناحية برعاية واسـعة بدا أثرها واضحاً فى المفوضيات والقنصليات التى انتشرت فى أهم مدن العالم وعواصمه .

لم يكن لمصر قبل الحرب ممثلون سياسيون يقومون على شئونها فى الخارج ولما كانت مصر فى تلك الفترة تابعة لتركيا فقد كانت السفارات العثمانية وقنصلياتها فى كل عاصمة تقوم على رعاية مصالح المصريين المقيمين فى دائرتها وتقدم لهم ما تضطرهم الضرورة إلى التماسه من أوجه المعونة .

فلما أعلنت الحماية على مصر حل الممثلون السياسيون البريطانيون محل الممثلين العثمانيين .

فلما أصبحت مصر مملـكة ، وأصبح فؤاد ملـكا ، بات لزاماً أن يضطلع

جلالته بتلك المهمة الجديدة التى خلقتها الحياة الناشئة ، فيخلق لمصر ممثليها السياسيين ، ويمد الحياة السياسية الخارجية بالهيئات التى تتطلبها الضرورة الدبلوماسية . ورأى جلالته أن هذا الواجب يدخل فى دائرة مهمته .

وقد جاء فى تقرير لجنة ملنر الذى وضعته عام ١٩٢١ :

« تبين لنا أن المصريين وفى طليعتهم السلطان ووزراؤه تجمعهم أمنية واحدة على الرغم من اختلافهم فى الشئون الأخرى ، فهم جميعاً يطالبون بحقهم فى التمثيل السياسى ، ويرجون أن يكون لبلادهم ممثلوها فى الخارج ، وقد آلمهم أننا يوم أعلنا الحماية لم نعن بحاجة مصر إلى وزارة للشئون الخارجية ، وأننا وضعنا اختصاص هذه الشئون فى يد المندوب السامى ، كما تأكد لنا أنهم يأملون دائماً أننا إذا جاء الوقت المناسب لتوطيد العلاقات بين مصر وبريطانيا فسنسمح لهم بإنشاء وزارة الخارجية لتحمل الطابع المصرى ، وأن يفوض أمر ممثلى الدول الأجنبية إلى ملك مصر كما كان الحال من قبل » .

فلما صدر الدستور شمل الملك فؤاد تلك الناحية من حياة بلاده بعنايته .

فأنشئت فى أواخر سنة ١٩٢٣ مفوضيات لندن ، وباريس ، وروما ، وواشنطن . وفى فبراير سنة ١٩٢٥ أنشئت مفوضيات برلين ، وبروكسل ، واستانبول ، ومدريد ، وبراغ ، وأثينا . فلما أشرف هذا العام على النهاية أنشئت مفوضيات طهران ، وبرن ، وبخارست ، ولاهاى ، وريودجانيرو . وفى عام ١٩٢٦ أنشئت الهيئات اللازمة فى صوفيا ، وبلغراد ، ووارسو .

وفى ديسمبر سنة ١٩٢٥ أنشئت وظائف القنصل العام فى أكثر هذه العواصم وأضيفت إليها وظيفة نائب القنصلية فى باريس ، وليون ، ومرسيليا ، وحيفا ، وبيت المقدس ، وبيروت ، وجنوه ، وموناكو ، ومنشستر ، ولفربول ، وميونخ ،

وأنتورب ، وجنيف ، وبرشلونة ، وبودابست ، وسالونيكا ، وكاڤالا ، وأزمير ، ورودس ، ونيويورك وغيرها .

وكان فؤاد يفخر باتساع هذه الهيئات وانتشارها ، وقد ساءه ما عمد إليه البرلمان فى سنة ١٩٢٦ مضطرا تحت قسوة الحالة المالية إلى إلغاء بعض المفوضيات التى خلقها .

وقد كان الملك فؤاد يعمل جاهداً على تدعيم هـذا الصرح الدبلوماسى ، ويبذل فى سبيل رعايته جهداً واسعاً . وقد بدا فى سنة ١٩٢٦ كأنما المصريون جميعاً يودون أن تمكنهم الظروف من إعادة المفوضيات التى ألغاها البرلمان مرغما .

على أن فؤاداً لم يكن ليعنى كثيرا فى خطواته الإصلاحية باستثارة الأعجاب حوله ، بل كان يبغى وجه الخير وحده ، فإذا بدت له ناحية تتطلب الإصلاح سار قُدما لا تعوزه الشجاعة ، أو يثنيه التردد .

كذلك كان شأنه فى كل ماعرض له ، فلم يشذ عن هذه الجرأة يوم عرض لناحية إجتماعية تمس الدين فى كثير . فأقدم لا يرده خوف وهو شديد الأيمان بأنه إنما يرمى إلى الأصلاح وهو لن يمس الجوهر وإنما سيلزم الروح ويصلح ما عقدته الأيام فى تعاقبها .

بذل الشيخ محمد عبده فى أواخر القرن الماضى جهودا واسعة لإصلاح الحياة الأجتماعية فى مصر وما تقوم عليه من أسس ، فلقيت نهضته نقدا لاذعا وتلقاها المصريون فى غير ما هى جديرة به من ألوان التشجيع والتأييد .

ففى مصر ودينها الرسمى الإسلام ، يبلغ عدد المسلمين ثلاثة عشر مليونا بينما لا يزيد مجموع السكان عن أربعة عشر مليونا ونصف المليون .

فهذه الكثرة الغالبة من المسلمين تخضع فى معاملاتها لأحكام الدين الإسلامى التى يتضمنها القرآن الكريم .

فالزواج والطلاق والوراثة وما يتصل بهذه الشئون بصلة ، تخضع جميعها لأحكام الدين وتعاليم القرآن ، وتقوم على تطبيق هذه القوانين « المحاكم الشرعية » وهى المحاكم التى لم يمسها الإصلاح فى صورة تمحو من حولها ألوان التعقيد وتزيل عنها ما لا يتصل وأصول الدين بسبب .

والمحاكم الشرعية فى مصر ، هى أقل الجهات حظا مما نال البلاد من ضروب التقدم خلال الأربعين سنة الأخيرة ، وهى السنوات التى خطت مصر خلالها خطوات واسعة إلى الأمام . وليس من شك فى أن ما أصاب هذه المحاكم من الجمود إنما يرجع إلى ما يخشاه المصلحون من استثارة المتطرفين من رجال الدين المتعصبين ، أو أولئك الجهلة الذين لا تنير نفوسهم عقليات ناضجة ، تتفتح للحق وحده .

وأيقن فؤاد أن لا بد من إصلاح القضاء الأسلامى الشرعى بما يتفق ومقتضيات الحياة العصرية ، بحيث لا يكون فى هذا الإصلاح مساس بقواعد الدين ، أو خروج على أسسه وأركانه .

وهنا — حيث تردد الوزراء المتعاقبون — تقدم فؤاد فى عزم ثابت وشجاعة حازمة ، دون أن ترده رهبة مما قد تثيره هذه الخطوة من سخط الرأى العام .

فبدأ بإصلاح الهيئة التى تتولى الأمر فى هذه المحاكم ، فأخذ فى تطهير وسط القضاة الشرعيين ممن تعوزهم الكفاية والمقدرة ، فأثارت هذه الخطوة حقد الذين أصابهم تخفيض فى مواردهم الموفورة الخير ، على أن الملك فؤادا رأى فى اطمئنان الذين أفادهم هذا التطهير وفى اغتباطهم ما يخفف أثر ذلك الحقد الطائش . على أن القضاة أصروا فى هذه المناسبة على أنهم مغبونون وأنهم لم يدركوا حقوقهم العادلة رغم ما أصابوا من نتائج الإصلاح .

ثم عقب الملك فؤاد بعد ذلك بالعمل على توزيع المحاكم الشرعية ، حتى

لا تكون هناك تلك المركزية التى تصيب مصالح المتقاضين بأضرار كبيرة ، وكان حتما أن تتخذ هـذه الخطوة حتى تتمشى المحاكم مع ازدياد عدد السكان ، وحتى لا يكون فى كثرة القضايا ، تعطيل لنظرها وتطويل فى المدة التى يستغرقها الفصل فيها .

والأمر فى المحاكم الشرعية يختلف عنه فى المحاكم الأهلية ، فإذا كان التأخير فى البت فى القضايا المدنية والجنائية لا تنشأ عنه أضرار بليغة ، فإن مثل هذا التأخير فى قضايا الأحوال الشخصية يصيب المتقاضين بألوان من الضرر ليس من اليسير احتمالها ، فهذه القضايا تدور حول الزواج والطلاق وفيهما كيان الأسرة ، كما تتصل هذه القضايا بالميراث ، وقد يكون الفصل فيها بحيث يمس قوت أسرة بائسة محرومة تترقب من مال مورثها ما ترد به قسوة الجوع .

وقد كان حتما أن يلاقى هؤلاء البؤساء ألواناً من العنت ، إذا تقدموا إلى هذه المحاكم يلتمسون الفصل فى قضاياهم ، وكان من العسير عليهم أن يحظوا بمقابلة القاضى ليعرضوا عليه طلباتهم وربما طال بهم الأنتظار أياماً .

وقد استطاع الملك فؤاد أن يغرى بهـدم مركزية تلك المحاكم ليكون فى اللامركزية لون من التخفيف على المتقاضين يهون عليهم إدراك حقوقهم فى أيسر صورة وأقرب وقت . على أن جلالته قد لقى فى هذه الخطوة عسراً ومشقة .

وهنا تقدم فؤاد إلى الأمام خطوة أخرى يبغى إصلاح بعض العادات الإسلامية ، وكان السبيل فى هذه الناحية محفوفاً بالأشواك ، فلو أنه أخطأ مرة واحدة ، لأثار فى هذا الخطأ ثائرة الفلاحين والعامة .

وقد نشأت عن الجمود والتعصب فى تفسير بعض قوانين الشريعة الإسلامية ألوان من الأخطاء تعقدت مع الأيام فبات من العسير احتمالها . وقد كانت الحيل

الشرعية سهلة هينة يتلاعب فى نطاقها المراوغون ، فكان فى مقدور الزوج المخادع إذا شاء أن يطلق امرأته أن يراوغها طويلا حتى يفلت من الوفاء لها بالنفقة التى يقضى لها الشرع بها ، وكانت هناك إلى جانب ذلك الكثير من المساوئ التى ليس من اليسير حصرها .

وكان للرجل الحق فى أن يطلق زوجه إن كانت عاقراً ، ولكنها كانت تستطيع أن تعضل الرجل أعواماً لأن إثبات الحمل لم يكن هيناً أو محتملا بنص القانون .

ولم يكن للمتزوجة الحق فى طلب الفصل بينها و بين زوجها إذا كان معسراً ليس فى طوقه الأنفاق عليها ، كذلك لم يكن للزوجة التى غاب زوجها غيبة طويلة أن تتزوج من رجل آخر حتى يموت أقارب الزوج الغائب الذين يماثلونه سناً ، إذ كان القانون يعتبر وفاة هؤلاء الأقران الأقارب دليلا على وفاة الزوج الغائب .

ولم يكن من اليسير أن تحصل الزوجة التى أصيب زوجها بعاهة مستديمة على حكم بالفصل بينها و بين زوجها .

عمد الملك فؤاد إلى هذه المواضع فأشار إلى مايعتورها من نقص لايتفق وحاجة الحياة الحديثة ، فعهد إلى لجنة مشكلة من شيخ الجامع الأزهر ، ورئيس المحكمة العليا الشرعية ، ومفتى الديار المصرية وغيرهم من رجال الدين بإصلاح قوانين النفقة ، والطلاق ، والتفريق وغيرها من النظم التى تتطلب الإصلاح العاجل .

فأدخلت الإصلاحات على جميع أوجه النقص التى عددناها ، والتى رأت فيها اللجنة مكاناً للضعف أو موضعاً للنقد ، حتى باتت العدالة فى هذه المحاكم مضمونة على صورة لا تتصل وصور الماضى بأى صلة أو سبب .

على أن الملك فؤاداً لم يكتف بهذه الإصلاحات فتقدم إلى الأمام خطوة

أخرى ، ولـكنه فى هـذه المرة وجه عنايته نحو ناحية اجتماعية توارثتها الأجيال المتعاقبة منذ قرون فى الأقطار الشرقية جميعها ، وكان من الخطر أن يتقدم نحو تلك الناحية واحد من المصلحيين لما يثيره المساس بها من المشاعر ، ولاتصالها الوثيق بالـكثرة الغالبة من أفراد كل شعب .

فلم يكن فى مصر منذ سنوات قلائل قانون يحدد سن الزواج ، وليس فى الدين الإسلامى ما يحول دون عقـد الزواج بين الأحداث من الغلمان والصبايا دون رعاية لسن النضوج ، وليست الأضرار التى تنشأ عن مثل هـذا الزواج بحيث تخفى .

وقد أكثر الـكتاب والمصلحون من الـكتابة حول هذا الموضوع ، وتفنيد الأضرار التى تأتى أثراً لمثل هـذا الزواج الباكر ، وكانت الحالة فى الهند من الـكثرة بحيث كان لها النصيب الأوفى من النقد ، حتى وضع أخيراً قانون يحدد السن التى يجوز عندها عقد الزواج .

وعلى الرغم من الجهود الهائلة التى تبذل فى الهنـد للحيلولة دون كل زواج باكر ، فإن الجماهير لا تزال تعبث بهذه الجهود .

وقد واجهت فؤاداً فى هـذه الناحية حالة ارتاع لها وهزته إلى أبعد مما تهز أوساط المصريين ، لهذه الروح التى أفرغتها فى كيانه ثقافته الأوروبية ، ونشأته الأولى فى بلاد الغرب . فقد ألفى هذا الزواج يجمع بين الأحداث الذين لم تتجاوز سنهم العاشرة ، أو الثانية عشرة ، أو الرابعة عشرة ، الذين لم تصقلهم التجارب ولم تبلغ بهم حدا يعرفون عنده أساليب الحياة ، والذين يجهلون كل الجهل مدى الروابط الزوجيـة وما تستأهله من ألوان التقديس ، والذين عقد الزواج بينهم وفقاً لرغبات آبائهم وتمشياً مع دوافع مردها كيان الأسرة أو منافعها .

وليس ثمة ما يحملنا على أن نفصل الآثار المحزنة التى تنشأ عن مثل هـذا

الزواج الذى يعوزه نضوج الزوجين ، أو ما تحتمه هذه الرابطة المقدسة من واسع الإدراك ، ووافر التجربة . فبدا حتما فى نظر الملك فؤاد أن يدخل إلى هـذه الناحية إصلاحات عاجلة ، فإذا كان عام ١٩٢٣ ، وُضع وفقاً لرغبة فؤاد ، قانون يشمل ما يلى :

(١) لا يجوز عقد الزواج ما لم يبلغ سن الرجل يوم العقد ثمانية عشر عاماً ، وسن المرأة ستة عشر عاماً .

(٢) حالات الزواج التى تمت قبل صدور هـذا القانون لا تكتسب صفتها القانونية حتى يبلغ الزوج سن الثامنة عشرة ، وتبلغ الزوجة سن السادسة عشرة .

وقد أيقن الملك فؤاد قبيل وفاته ، أن الوقت قد آن ليتقدم بإصلاحاته نحو ناحية أخرى من نواحى الزواج ، تلك هى تعـدد الزوجات ، وإن وزير العدل لمعنى الآن بدراسة الأسس التى وضعها فؤاد بنفسه لإدخال الإصلاح المنشود .

والواقع أن مثل هـذا القانون الذى يراد وضعه ، سوف لا يخرج عن أن يشرع لحالات رضيت بها الأوساط المثقفة من المصريين ، فباتت ترتاح إليها وتسير وفقاً لها ، فقد أمست هـذه الأوساط — عدا النذر القليل — تدين بالقاعدة التى تقصر الأمر على زوجة واحدة .

وثمة وجهة أخرى عنى بها فؤاد بعد ذلك ، فوضع لها الأسس بنفسه ، يبغى من ورائها الحد من تلك السهولة التى تطلق بها المرأة فى أوساط العامة ، وهو إنما يرمى بهذا الإصلاح إلى منح الأسرة لوناً من الثبات والاستقرار بين الفلاحين ، ويعمل على رفع منزلة المرأة إلى الحد الذى يتفق وطبيعة وجودها .

ولما كان فؤاد معنياً فى ذلك الحين بنواحى الإصلاح الاجتماعى جميعها ، فقد هاله ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال .

على أن هـذه الناحية لم تكن قبل أن يعنى بها الملك فؤاد بحيث تستثير

الهلع فى نفوس الجماهير فى مصر ، فقد كان الشعب ينظر إليها على أنها مصيبة لا بد من احتمالها فى صبر واستسلام .

فى سنة ١٩٢٥ بلغت نسبة الوفيات بين الأطفال الذين لم يبلغوا نهاية العام الأول من سنهم ٣٢ ٪ ، و بلغت ٣٦٫٣ ٪ بين الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين السنة الواحدة والعشر سنوات .

فلما طلب الملك فؤاد وضع إحصائية عامة عن مدى هذه المصيبة ، وعرضت عليه هذه الأرقام ، ألح فى ضرورة الشروع فى تعليم الأمهات وتلقينهن واجبهن نحو الطفل وطريق العناية به .

وقد أيقن جلالته أن هذه الناحية تستوجب ، أكثر من سواها من النواحى ، الرعاية العاجلة والعناية الصادقة .

فافتتحت فى الحال مراكز لرعاية الطفل بلغ عددها خمسة عشر مركزاً ، مهمتها تزويد الأمهات بالنصح والإرشاد ، وتدريب المولدات على القيام بواجباتهن على أكمل وجه .

وكان من أثر جهود جلالته أن أخذت تخف وطأة الذباب الذى كان يملأ طرقات مصر ، فلم تعد الحالة بحيث تسمح لملايين الذباب التى كانت تتساقط على أجفان الأطفال بمواصلة حياتها . فقد أوصى الملك فؤاد فى حرارة بمحاربة هذه الآفة ، فبذلت جهود هائلة موفقة لاستئصالها حيث تنشأ ، والقضاء عليها عند مصادرها .

وإنى لأذكر يوماً فى سنة ١٩٢٢ وقد ركبت حصانى عند أطراف القاهرة ، فكان من العسير على أن أرى لون الحصان أو أبصر ساقى لكثرة ما لصق بهما وتساقط على الحصان من الذباب ، وقد ذكر لى رفيق وقتئذ أن ظهرى يكاد

يختفى تحت آلاف الحشرات التى لصقت به ، فلما تطلعت إلى ظهره تبينت صدق ما ذكره لى منذ لحظة .

وقد حدث أن ركبت عند ذات الجهة ، وفى نفس الموعد من سنة ١٩٢٨ فأخذنى العجب لاختفاء هـذا الذباب . وليس ثمة سبيل للشك فى أن ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال فى مصر ، لم يكن يرجع لجهل الأمهات بقدر رجوعه إلى إهمال البلاد لقواعد الصحة وأساليب العناية بها .

وقد كان الحال يتطلب شخصية قوية كشخصية الملك فؤاد ، لها من قوتها وحزمها ما يسير بها قُدما فى هذا السبيل ، وليس من ريب فى أنه لا بد من استخدام ألوان من الضغط فى هذه الناحية عدة أعوام أخرى . فإن الفلاح ليرى فى الوسائل الحديثة للعناية بالصحة ضروباً من الخيال تصورها الأوتوقراطية أو البيروقراطية ، و إنه ليود أن يعود إلى ما نشأ عليه أبوه وأجداده ، إذا لم ترغمه على العدول عن أساليبهم العتيقة البالية قوة ورعاية .

أما اليوم فقد انتشرت مراكز رعاية الطفل فى القاهرة والأقاليم ، وهى تؤدى للطفولة أجل الخدمات وأصدقها . وهى دون شك ثمرة من جهود الملك فؤاد الموفقة .

كان الملك فؤاد كلما تقدم خطوة فى سبيل الإصلاح ، بدت له ضخامة الواجب الذى ينتظره ليجاهد فى سبيله أكثر وضوحاً . ولقد انتشرت الملاريا فى مصر ، أرض الأمراض ، فشابهت فى ذلك إيطاليا التى لم تفلت من هذه الحمى ، غير أن جهوداً هائلة قد بذلت فى هذه البلاد الأوروبية لمحو ذلك الوباء بالعمل على الخلاص من المستنقعات التى يتوالد فيها البعوض ، فلم يتردد الملك فؤاد فى أن ينقل إلى بلاده ما عرفه فى إيطاليا فى هذه الناحية .

فأمر جلالته بتكوين لجنة ، تكون مهمتها العمل على تجفيف البرك

والمستنقعات ، وتحسين وسائل الصرف ووسائل الشرب ، والعمل على القضاء على بويضات البعوض قبل إفراخها ، ثم تزيد المستنقعات ذات المياه الراكدة التى لم يكمل ردمها أو تجفيفها بصنوف خاصة من الأسماك .

وقد نجحت الأحتياطات التى اتخذت لإدراك هذه الغاية فى القاهرة ، وحلوان ، وطره ، والسويس ، والإسماعيلية ، وبنها ، والفيوم ، وأسوان ، والدر .

ولما وجه الملك فؤاد عنايته نحو الناحية الصحية ، ألفى الطريق طويلا إلى غير نهاية ، فقد كانت مصر تعانى فى مرارة قسوة أمراض تثير أسماؤها فى النفوس الخوف والفزع : ففيها البلهارسيا ، والأنكلستوما ، والتيفوس ، والتراخوما .

وقد آلمت هذه الحال فؤاداً ، فبدأت ، نتيجة نصحه وأوامره ، أبحاث فنية دقيقة الغرض منها الوقوف على علة هذه الأمراض وأسبابها ، والوقوف على أنجع الطرق لمقاومتها والقضاء عليها .

ولهذا تم الأتفاق مع الدكتور ليپر Dr. Lieper الإخصائى فى هـذه الأمراض فى لندن ، ومع بعض الخبراء فى معهد روكفلر الصحى بنيويورك للقيام بهذه الأبحاث .

ثم أنشئت إلى جانب المستشفيات الثابتة ، مستشفيات أخرى متنقلة بلغ عددها سبعة عشر مستشفى . وكذلك أنشئت فى مختلف أنحاء البلاد عيادات ومستوصفات كثيرة العدد . وقد بلغ عدد حالات البلهارسيا والأنكلستوما ، التى عالجتها هذه المستشفيات فى سنة ١٩٢٥ ، ١١٨ر١٥٣ حالة .

وكذلك بذلت جهود هائلة لاستئصال مرض التيفوس وتخليص البلاد من مصائبه ، فاستقدمت الحكومة خبيرين من « معهد ليستر » فى لندن ، للعمل على إدراك هذه الغاية . فبذلا فى هذا السبيل جهوداً مضنية ، وقاما بأبحاث دقيقة كثيرة ، فلما أوشكا أن يصلا بجهودهما إلى مراحل النجاح ، أصيبا

— لسوء الحظ — بهذا المرض الخبيث ، فراحا ضحيـة جهودهما ، وصادق إخلاصهما لواجبهما .

و إذا كان الملك فؤاد قد بذل فى هذه الناحية جهوداً واسعة ، فإنه قد بذل جهوداً أكثر إتساعاً فى جميع النواحى التى تتصل بشئون الصحة العامة ، فبذل لمن يقومون على هذه الشئون من رجال شعبه ، خالص نصحه ، وصادق رعايته ليضمن لأمته مسايرة الزمن فى هذه الناحية التى تمس الشعب فى كامل عدده ، وقد كان فى دوام اتصال جلالته بكبار الضباط الإنجليز الذين وكلت إليهم حياطة فرق الجيش الموفورة العدد المقيمة فى مصر ، وفلسطين ، والسودان ، واتباع أحدث الأساليب الصحية فى رعايتها ، ما مكن له من دراسة هذه الأساليب ، والوقوف على مدى ضرورتها ، فلم يتردد جلالته فى التوصية باتباع أصلحها ، وقد كان يؤمن أن نصيب شعبه من كثرة الوفيات ، إنما مرده إلى الجهل بأحدث القواعد الصحية .

وكذلك عنى جلالته بالقصور الملـكية فلم يدع فيها ركناً دون أن يشمله بأدق العناية ، فلم يتهاون يوماً فى بذل ألوان الحيطة الواجبة نحو مطابخ هذه القصور ليحفظ عليها النظافة المفروضة لها .

وليس من شك فى أن التاريخ سيسجل لفؤاد أنه عمل مخلصاً على تنظيف مصر ، فخطا بها خطوات واسعة نحو استكمال أسباب الوقاية الصحية ، فانتشرت المجارى فى المدن وأنشئت الأفران الضرورية لحرق الفضلات التى تتخلف كل يوم عن حياة هذه المدن ، وهى الأفران التى كانت فيها الدعامة الأولى التى قامت عليها أسباب القضاء على ألوان الذباب الذى كانت مصر تعانى من شروره . ثم أوصى جلالته بخلق هيئة التفتيش الصحى . وأشار بعد ذلك بإنشاء متحف صحى هو المتحف الذى يطلق عليه اليوم « متحف فؤاد الصحى » . وأوحى إلى

الصحف ، ودور السينما ، وأهل الرأى أن يتعاونوا جميعاً على الدعاية للعناية بالصحة والنظافة ، وإغراء الشعب بالعناية بهذه الناحية الدقيقة من حياته ، فكان حتما على هذه القوى أن تتضافر لتهدم صنوف الجهل والخرافات التى توارثتها الأجيال المتعاقبة منذ القدم .

وقد قدر لهذه الجهود فى النهاية أن تنجح ، وقدر للشعب أن يبذل فى سبيل وقاية صحته بعض العناية ، فأتاح القدر للملك فؤاد فرصة يستمتع فيها بلذة الفوز ونشوة الانتصار .

الفصل الخامس عشر

عود إلى السياسة

رأينا كيف اضطر سعد زغلول إزاء سلسلة من الأعتبارات العارضة ، إلى التردد فى قبول رياسة الوزارة يوم عادت إليه مرة أخرى وباتت رهن رغبته ، وكيف منح هـذا المنصب السامى لعدلى باشا ، الذى ألف وزارة إئتلافية ، وقد وثق من تأييد الوفديين له .

ولو أن سعداً حرص على ألا يدخل الوزارة ، إلا أنه فاز برياسة مجلس النواب التى هيأت له ، وتلك الأغلبية الساحقة تؤيدة ، مركزاً بيّن القوة جليل الخطر .

وبدا الهدوء فى كل شىء عند ما افتتحت الدورة البرلمانية فى العاشر من يونية سنة ١٩٢٦ ، وكان الملك فؤاد يقدر الموقف الذى تلا فترة كانت تُسَيِّرُ الشئون فيها حكومة من حكومات القصر ، فقدم للمجلس خطاباً روعى فيه وجه الأعتدال ، تجاوز فيـه الملك عن الـكثير مما كان لا بد أن يقال ، فأثار دهشة النواب ، وقد كانوا يتوقعون الـكثير ، فانفجروا فى عاصفة من التصفيق والاستحسان .

ولا بد أن يكون الملك قد عاد إلى قصره تعلو شفتيه ابتسامة غامضة ، فقد كان خير من عرف سعداً ، فكان يثق أن الخصومة التى دفنت منذ قريب قد تنبش فتثور ، وقد يحدث ذلك فى سرعة مزرية ، ولم يخدع الملك تصفيق نواب الديموقراطية المصرية المنتخبين . فقد لمح النذر فى الهواء ، وأدرك النضال الذى سوف يتمخض عنه المستقبل القريب بين سعد زغلول من ناحية ، وعدلى باشا من

الناحية الثانية ، أو فى عبارة أخرى النضال بين السلطتين : التشريعيـة ، والتنفيذية ، فى الحياة الدستورية المصرية الجديدة .

ورغم روح الأعتدال التى احتفظ بها سعد فى خطبه ، فقد استطاع أن يسيطر على المجلس سيطرة تامة . فكان إذا لم يعجبه إتجاه أحد المتكلمين ، صر بأسنانه فى غضب ، فلا يلبث العضو حتى يجلس متخاذلا . وإذا بدرت فى المجلس بادرة اضطراب ، دق جرس الرياسة فى عنف وقسوة ، يرتاع لها النظارة والمـكلفون بالحراسة من رجال الشرطة .

ولم يكن ثمة مفر من أن يصطدم المجلس ، وهذه أغلبيته الساحقة وفدية ، مع سلطة الملك ، إذ كانت تواجه الأعضاء سلسلة من القوانين أصدرها الملك ، ووقع عليها فى غيبة البرلمان . فلم يكن هناك مناص من إحدى إثنتين : فإما أن يقبل المجلس تلك المراسيم فيقرها على أنها قوانين نافذة المفعول ، وإما أن يعدها باطلة لا قوة لها ، فيثير بذلك سخط جلالته . ولو ألغى المجلس تلك المراسيم لاستتبع هذا بطلان عدد من القوانين ، وانتهى الأمر إلى الفوضى .

على أن سعداً ابتدع أسلوباً خاصاً فى الخروج من هذا الموقف ، فألغى المراسيم ولـكنه أعلن أن واجب البرلمان أن يقر آثارها ، وعلى هذا النحو انفرجت العقدة بما يصون الـكرامة . غير أن سعداً تماديا فى أسلوبه ، حمل المجلس على أن يسن تشريعاً يتضمن عقوبات صارمة لمن يقدمون على مثل هذا العمل غير الدستورى فى المستقبل .

فتعقد الموقف مرة ثانية ، والدورة النيابية لما تزل فى مستهل مدتها .

فلم يتردد الملك فى إظهار شعور اشمئزازه من مجلس « كان من العوز إلى الـكياسة بحيث يحاول أن يهزم سلطان العرش » . وقد تحدث جلالته إلى أعضاء حزب الاتحاد فى غير هذه الصورة حتى هز حماستهم .

على أنه لم تتخذ حيال هذا الموقف إجراءات علنية مباشرة ، بل بدأت الحرب غير المنظمة فى حذق وبراعة ، على أنها الخطوة الأولى لتغنى عن الأصطدام المباشر .

وليس من ريب فى أن تلك الفترة كانت مليئة بالمتاعب ، حتى لقد اضطر فؤاد خلالها إلى الخروج عن مألوف لهجته المملوءة بالهدوء وطول الأناة ، وكانت الدوافع إلى ذلك كثيرة ، فقد رأى المجلس ينحرف إلى الطغيان ، ورأى النواب يدعون لسلطانهم الكثير مما كان من حقوق السلطة التنفيذية .

وقد اعتاد النواب دخول مصالح الحكومة ودواوينها ، وطلب الملفات والأوراق الرسمية ، وإرهاق الموظفين بطلباتهم .

فطلب الملك إلى عدلى باشا ، وهو رئيس الوزراء ، أن يضع حداً لهذا الداء ، فلما بين لمليكه أنه لا يستطيع أن يعالج هذه الحالة ، لامه جلالته فى شدة وصراحة .

ولم يقف اللوم عند ما وجهه جلالة الملك لرئيس وزرائه مباشرة ، بل لقد تقدم الملك فى هذا خطوة أخرى ، فتحدث إلى الذين اتصلوا به عن عدلى باشا فى استخفاف من لا يرضيه نهجه .

وفى هذا الوقت دخلت الصحف فى حرب كتابية اتخذت لنفسها لوناً عنيفاً قاسياً ، وكان يحز فى نفس سعد اضطراره للإذعان إزاء ضغط انجلترا ، ورفضه رياسة الوزارة ، وقد رغب فى الهرب عقب حادث مقتل السردار ، ذلك الحادث الهين الحرج ، فلما لم يُجد هذا فى إثارة الأنفجار المطلوب ، عنف النواب فى مجموعهم لخوفهم من حل المجلس إذا هم عارضوا الملك ، وأشار إلى أنهم إنما يسلكون هذا السبيل حرصاً على مرتباتهم .

وكان التفاهم قد تم من قبل بين عدلى باشا وسعد زغلول حول الحدود التى

يقف عندها المجلس من أعمال الوزارة ، ولكن عدلى باشا عاد مرة إثر مقابلة له مع الملك فؤاد فدخل المجلس تعلو وجهه سحابة قاتمة ، فألفى سعداً يخطب النواب فيضفى على خطابه لوناً من القوة والحرارة ، ويذكر أن للمجلس الحق فى أن يرسم للوزارة التعليمات المفصلة فيما تسلكه من سبيل فى حدود سلطتها .

فلم يكد عدلى باشا يسمع هذا ، وكان حديث الملك ما يزال يحز فى نفسه ويثير أغوار حسه ، حتى قفز واقفاً وأنكر على المجلس هذا الحق فى شدة ، فلما رد سعد على هذا الهجوم فى غضب احتدمت المناقشة بين الرئيسين . فشهد المجلس إثر هذا معركة كلامية ، كانت الشخصيات قوامها ، وما خرج عن البرلمانيات عنصرها .

واختتم المجلس دورته بعد هذا الموقف فى شهر سبتمبر . ومهما يكن من الأمر فقد كان المجلس شديد الأغتباط بجهوده ، وقد رفع النواب مكافأتهم البرلمانية من ٣٦٠ جنيهاً إلى ٦٠٠ جنيه سنويا .

وقد وضحت طبيعة الشعور الذى كان يربط بين الملك والبرلمان ، عندما افتتحت الدورة ثانية فى نوفمبر وتلى خطاب العرش ، وقد حيا الوزراء مليكهم إذا استثنينا واحداً أو اثنين منهم ، على نحو يثير النفور ، فهم قد رفعوا أيديهم بالسلام التقليدى حقيقة ، غير أن الحركة كانت آلية إلى حد أبرز مكنون صدورهم . ثم إن جلالته استقبل فى تصفيق عادى أثار صداه السخط فى نفسه ، بينما استقبل المجلس سعداً فى عاصفة حادة من التصفيق الحار ، حتى بدا الفرق بين الاستقبالين واضحاً .

وانتقل النزاع بين العرش والبرلمان مع الأيام إلى عام ١٩٢٧ ، وكان فى استقبال سعد عند إعادة افتتاح الدورة النيابية نذير شر ، فقد كانت تلك المظاهرة تخفى فى طياتها ما هو أكثر من الافتتان بالزعيم .

فكانت تعنى أن سعداً يفرض لنفسه الطاعة على المجلس أفراداً فيجدها ، إلا أنه كان مقيداً أمام حزبه بوعوده السابقة ، فكان الحزب يتوقع أن يرى فيه زعيما متطرفاً ، لذلك كان مضطراً إلى الوقوف فى موقف المهيج الذى لا تجمعه بالملك رابطة ود ، بينما كان فى أعماق نفسه فى ذلك الحين بمنأى عن رغبة السير فى مشروعات يحفها الخطر قد تقفه فى مواقف قاسية ، كموقفه المزعج إثر مقتل السردار .

ولا بد لكى يمكن التغلب على العرش من اكتساب الجيش أولا ، لذلك وجه بعض المتطرفين جهودهم نحو تلك الناحية ، فبدأ الجيش يوجَّه شيئاً فشيئاً نحو السياسة ليكون أداة سياسية ، ولم تخف على فؤاد تلك الدعاية التى كانت تتجاوب بين الصفوف ، والتى كانت تنبئ بأن حملة تدبر لنشوب ثورة تنقلب معها الأوضاع ، وهيأت الظروف للأشاعات سبيل الرواج بين الجماهير ، وليس من ريب فى أنه لولا تدخل بريطانيا السريع الحازم ، لسلك الوفديون بقودهم زعيمهم ، الذى كان يعوزه الحماس الفياض للقضية فى ذلك الحين ، نفس السبيل التى سلكتها تركيا الفتاة .

وكان لورد اللويد Lord Lloyd المندوب السامى إذ ذاك ، يدرك مدى اتجاه الحوادث ، وكان يعرف ما قد ينجم عن سيطرة الوفديين على الجيش من أخطار فكانت تواجهه مشكلة دقيقة عسيرة ، ذلك لأنه ليس من الممكن أن تقف الحكومة البريطانية مكتوفة الأيدى فتشهد اضطرام الثورة ، بينما هى مرغمة على المحافظة على سلامة مواصلاتها ، فلو اشتعلت الثورة لمست هذا الشريان الحيوى الذى يصلها بالشرق فى عنف وقسوة .

فزار لورد اللويد الملك ، وأبلغه أن الحكومة البريطانية تطالب تخفيض قوات الجيش المصرى تخفيضاً تدريجيا محسوساً وفقاً للسياسة التى تبعتها البلاد

الأخرى ، وطلب من فؤاد وعداً يتعهد فيه ببذل نفوذه لتنفيذ هذه السياسة .

غير أن فؤاداً لم يستطع أن يخفى قصوره عن التغلب على الموقف ، والواقع أنه لم يحاول الإقدام على هذا العمل ، وذكر أنه يرغب أشد الرغبة فى تأييد وجهة النظر البريطانية ، ولكنه يرى نفسه « فى الواقع قليل الحول فى هذه الظروف السياسية الدقيقة » .

ولما عجز عدلى باشا عن أن يواصل السير فى هذا السبيل الشاق العسير بين القصر والوفد ، رفع استقالته فى الثامن عشر من أبريل سنة ١٩٢٧ ، فخلفه فى رياسة الوزارة « ثروت باشا » .

ولقد كانت مهمة عدلى باشا شاقة شديدة العسر ، فهذا النقد يوجهه له مليكه من ناحية ، ومن ناحية أخرى تقف فى سبيله قوات الوفد وأساليبه .

فلما ولى ثروت باشا الوزارة اعتزم أن يضع الأمور فى نصابها ، وكان سعد بعيداً فى الأرياف فى ذلك الحين ، فانتهز الوزير هذه الفرصة ، وأعلن للمجلس أنه لن يسمح للنواب بالتدخل فى شئون الإدارة ، وأنه يفهم أن النواب قد انتخبوا ليمثلوا الشعب داخل المجلس ، لا ليتدخلوا فى شئون الموظفين ويشرفوا على أعمالهم .

وفى ذلك الحين كثرت الإشاعات ، فقيل ، وكانت جميع الظروف تبرر هذا الذى قيل ، بأن الأسطول البريطانى سيفد إلى الأسكندرية ، وأن الحكومة البريطانية سوف تقترح على الملك فؤاد تعطيل الدستور وتأليف وزارة جديدة ، وكانت بريطانيا تدرك حقيقة الموقف ، وليس من شك فى أنه لم يكن ثمة ما يرتاح له الملك أشد من ارتياحه لاستعادة سلطته الأوتوقراطية ووقف ذلك الفساد الذى يسرى بين صفوف الجيش .

فلمح سعد الخطر ، فعاد مسرعاً إلى القاهرة ، ودخل المجلس ، ثم اعتلى

مقعد الرياسة ، ودق جرسه فى عنف ، فارتاع النواب ، وأدرك الجميع أن الزوبعة تنذر بالهبوب .

ولما طلب إليهم سعد الإذعان أطاعوه دون تردد .

ولقد كان لدى النواب من أغراضهم الشخصية ما يحفزهم على استبقاء ثمار نيابتهم . فكانوا يتناولون ٦٠٠ جنيه سنويا ، بينما هم قد نسوا وعودهم الأنتخابية وهؤلاء الناخبون الذين منحوهم أصواتهم يوم الانتخاب قد بدأوا يوجهون إليهم أسئلة تثير الريبة وتبعث القلق . وأيقن الكثيرون أن حظهم فى الاقتراع التالى سوف يكون بحيث لا يحقق آمالهم ويرضى أمانيهم .

وكان لورد اللويد هو القوة التى وقفت إلى جوار العرش فى هذا الظرف ، وكان فى رعايته للموقف ، الذى لقى عنده تأييداً حاراً من مستر بلدوين Mr Baldwin ، ما عطل نشوب الثورة دون ريب . تلك الثورة التى كان حتما لو أنها اشتعلت أن يطلب إلى جيوش الأمبراطورية البريطانية أن تلعب فيها دوراً بارزاً وخطيراً .

الفصل السادس عشر

الرحلات الأوروبية

طالما فكر الملك فؤاد فى رحلة يزور فيها إنجلترا ، غير أن الظروف لم تتهيأ لتحقيق هذه الرغبة قبل عام ١٩٢٧ ، فقد وجه كامل جهوده منذ تبوأ العرش لتوطيد ملكه فشغلته شئون بلاده عن إدراك هذه الغاية .

ولما برزت بريطانيا فى الميدان ، أذعن الوفديون ، وأخذت ترعى الجيش عيون يقظى ، رأى فؤاد أن فى مقدوره أن يستمتع بإجازة يهنأ فيها بلون من الراحة والطمأنينة .

ففى ٢٤ يونية ١٩٢٧ تحرك اليخت الملكى « المحروسة » مغادراً ميناء الإسكندرية ، يقل صاحب الجلالة الملك فؤادا ، فبلغ ميناء طولون Toulon فى الثامن والعشرين ، ثم واصل الرحلة إلى باريس مباشرة ، حيث أقام بها حتى ٤ يولية ، ومن ثم غادرها إلى لندن فى زيارة رسمية للملك جورج الخامس .

وقد خصصت الباخرة « ميد أوف أورليانس » Maid of Orleans للركب الملكى المصرى ، فعبر فؤاد البحر على ظهر تلك الباخرة الشهيرة ، حيث لقيتها أربع مدمرات ، وعدد من الطائرات البريطانية فى منتصف الطريق ، فرافقتها حتى رست فى ميناء دوفر .

وقد استقبله فى هذا الميناء البرنس أوف ويلز Prince of Wales الذى ولى عرش إنجلترا فيما بعد باسم إدوارد الثامن ، ومعه بعثة الشرف التى وكل إليها أمر مرافقة الملك فؤاد أثناء زيارته .

وكان فى استقباله فى محطة ڤكتوريا فى لندن ، الملك چورچ ، يرافقه عدد كبير من أفراد الأسرة الملكية البريطانية ، وغالبية أعضاء الوزارة ، ومن ثم ركب الملكان معاً إلى قصر بكنجهام . وقد وضع الملك فؤاد فى نفس اليوم ، إكليلا عند النصب التذكارى فى هويت هول . وإكليلا من الزهور على قبر الجندى المجهول فى وستمنسترأبى Westminster Abbey .

وفى ذلك المساء أقيمت فى قصر بكنجهام مأدبة رسمية ، ألقى فيها الملك چورچ خطاباً نوه فيه بالغبطة التى أحس بها هو والملكة مارى ، إذ يستقبلان معاً جلالة الملك فؤاد فى تلك الفرصة السعيدة بعد ارتقائه العرش . ثم تمنى الملك چورچ أن يحمل الملك فؤاد لهذه الزيارة أسعد الذكريات .

ثم استمر الملك چورچ فى خطابه فقال : « إن زيارة جلالتكم لانجلترا لدليل العلاقات الوثيقة المثمرة التى تربط بلادينا ، وستكون لجلالتكم شخصيا برهاناً جديداً على ما يكنه هذا الشعب من كريم العواطف لمصر وشعبها ، وإننا لنرحب بجلالتكم بوصفكم ملكا لتلك البلاد التى ليس لها فى تاريخها القديم وتماثيلها خير مصدر للوحى وباعث لدواعى الفخر فحسب ، بل والتى تجد فيها كنزاً للمعرفة يغترف منه العالم أجمع . وإننا لنرحب بجلالتكم فى مثل تلك الحرارة بوصفكم صاحب عرش تلك البلاد التى لنا معها مصالح كثيرة مشتركة ، والتى ننظر إلى تقدمها ورخائها على الدوام فى اغتباط عميق » .

فكان فى هذه الكلمات من المعانى الخاصة ما لا يمكن تجاهله ، فشكر الملك فؤاد للملك چورچ كرم الأستقبال ورائع الحفاوة التى لقيها ثم قال :

« وإنى بدورى لأشكر لجلالتكم نبل العواطف التى تتبعون بها تقدم مصر ، وإنه ليسرنى أن أنوه بالمعونة الصادقة التى بذلتها بريطانيا العظمى فى الماضى لتحقيق هذا التقدم ، وإنى لعلى ثقة من أن هذا التقدم سيواصل إطراده

دون أن يحدث ما يعرقله ، فى عهد مصر الجديد ، عهد الأستقلال السعيد ، وأن هذه الصداقة التى تربط البلادين ستزداد مع الأيام قوة ورسوخاً » .

وفى الخامس من يوليه ذهب الملك فؤاد يرافقه البرنس أوف ويلز ، تحرسهما فرقة من الحرس الملكى إلى الجلد هول التاريخية Guildhall لحضور مأدبة غداء أقامها عمدة المدينة تكريماً لجلالتـه ، وقد استقبل شعب لندن الملك فؤاداً فى طريقه إلى هذه المأدبة استقبالا حارا رائعاً بلغ فى روعته حدا دفعه لأن يتحدث عنه لرجال حاشيته .

والواقع أن لندن ، وهى القديرة على إظهار جلال عواطفها وحسن تقديرها إذا ما قصد من الأحتفال إلى هذه الغاية ، قد احتضنت الملك فؤاداً حتى لمس قلبها ، فأبدت رائع إحساسها نحو ملك لقى من المتاعب فوق النصيب العادى ، وأبرزت حسن تقديرها لرجل كانت قد ميزته شخصيته وسما به خلقه ورجولته .

وفى نفس المساء أقام وزير الخارجية البريطانية مأدبة تكريماً لجلالة الملك فؤاد ، وبذلك انتهت الزيارة الرسمية فى اليوم التالى (٦ يوليه) فغادر فؤاد قصر بكنجهام ، وأقام فى بيوت هوس Bute House مقر المفوضية المصرية فى لندن حيث أعد تكريماً لصاحبى الجلالة ملك وملكة انجلترا مأدبة رائعة .

وفى الأيام التالية زار الملك فؤاد النادى الرياضى فى لندن ، كما زار لورد ولادى سالسبرى Lord and Lady Salisbury ، ومستر ومسز بولدوين Mr. and Mrs. Baldwin فى تشكرس Chequers ، ثم المستشفى الملكى الحر ، والجمعية الجغرافية الملكية ، وقصر وندسور ، وكلية إيتون .

وفى الرابع عشر من يوليه حضر صاحب الجلالة مأدبة غداء أقامها تكريماً لجلالته لورد بورنهام Lord Bwrnham صاحب الديلى تلغراف ، وحضرها الكثيرون من أصحاب ومحررى أكبر الصحف فى انجلترا .

وفى اليوم التالى قام الملك فؤاد برحلة إلى جريفسند Gravesend ، حيث استعرض التلاميذ المصريين البحريين الثمانية عشر ، الذين كانوا يتلقون تدريبهم فى السفينة المدرسية ورشستر Worcester ، ولشد ما اغتبط جلالته لتقدم هؤلاء الصبية الذين يرجع سر وجودهم فى انجلترا إلى جهوده الشخصية ، فقد أحب جلالته أن يكون نواة مدربة للبحرية المصرية ، ورغب فى نفس الوقت فى مساعدة أطفال الأسكندرية الفقراء ، فرأى عام ١٩٢٥ أن ينشىء المدرسة البحرية التى خلع عليها اسم صاحب السمو الملكى ولى العهد ، وبذلك ظهرت فى الوجود المدرسة الفاروقية البحرية ، وهى اليوم تقدم لتلاميذها العلوم النظرية والتدريبات العملية فى الشئون البحرية .

ولما كانت لمصر شهرة ذائعة تليدة فى زراعة القطن ، وكانت بين أهم الموردين لمصانع القطن فى لانكشير ، لذلك كان لزاماً أن تنال المراكز الصناعية فى شمال انجلترا حدا وافراً من عناية الملك فؤاد وارتياحه ، ولهذا سافر جلالته فى الثامن عشر من يوليه إلى لفربول حيث لقى ترحيباً وديا عميقاً ، فاجتمعت عدة مئات من آلاف الرجال عند أطراف المدينة لتستقبل جلالته استقبالا طالما تحدث عنه فى تقدير و إعجاب . وزار فؤاد بورصة القطن ، ثم حضر استقبالا هيأه عمدة لفربول تكريماً لجلالته فى دار البلدية .

ثم رافق جلالته بعد ذلك لورد دربى Lord Derby فى زيارة لمقر لورديته فى نوسلى Knowsley .

وفى اليوم التالى قصد جلالته إلى پرستون Preston ، فزار المصانع التى تقوم على الصناعات القطنية المصرية وحدها ، ومن ثم قصد بعد ظهر ذلك اليوم بعينه إلى مانشستر ، حيث احتفى بجلالته فى دار البلدية عمدة المدينة وأعضاء مجلسها ، وفى المساء أقيمت لتكريم جلالته حفلة استقبال تلتها مأدبة رائعة .

وفى العشرين من يولية زار جلالتـه جامعة مانشستر التى يتلقى العلم فيها فريق من الطلاب المصريين ، ثم زار مكتبة ريلندس Rylands التى اشتهرت بمجموعة الـكتب الشرقية الفاخرة التى تحتوى عليها . و بعد أن تناول جلالته الغداء على مائدة عمدة المدينة ، زار البورصة الملـكية ، ثم واصل رحلته بعد ذلك إلى بولتون Bolton ، أهم المراكز التى تشتغل بصناعة القطن المصرى فى انجلترا ، وهنا زار جلالته عدداً من أهم المصانع ، وقد راعه على وجه خاص مظهر النسوة العاملات ولباسهن التقليدى الذى احتفظن به ، وقد نوه جلالته بأناقتهن وجمال مظهرهن ، وتلك البراعة التى كن يؤدين بها أعمالهن .

ولما عاد جلالته إلى مانشستر قام بجولة واسعة فى مصانع المترو پوليتان ڤـكرز Metropolitan Vickers ، فى الحادى والعشرين ، وفى مساء ذلك اليوم بعينه عاد جلالته إلى لندن بعد رحلة طويلة رائعة .

وفى الثانى والعشرين حضر الملك فؤاد حفلة أقيمت لجلالته فى حدائق قصر بكنجهام ، وقد رد جلالته هذه التحية بعد ذلك بيومين ، فأقام حفلة مماثلة فى بيوت هوس .

ثم أعقب ذلك زيارة البورصة الملـكية ، وفى السادس والعشرين من يولية ودع جلالته لندن وغادرها إلى پاريس . ولمـا كان البرنس أوف ويلز قد سافر قبل ذلك التاريخ إلى كندا ، لذلك لم يتمـكن من توديع جلالة الملك عند سفره فى محطة ڤـكتوريا ، لذلك ناب عنه فى هذه المهمة دوق يورك .

و بينما كان الملك فؤاد يقوم بزياراته هـذه لأنحاء انجلترا ، كانت تدور فى لندن مباحثات سياسية . فقد رافق جلالته فى هذه الرحلة رئيس وزرائه ثروت باشا ، ولـكنه تخلف عن الركب فى لندن حيث انهمك مع وزير الخارجية البريطانية فى أبحاث سياسية عميقة .

وقد حمل سير أوستن تشمبرلن ، ثروت باشا على ضرورة التفكير فى اتفاق دائم يربط بين مصر وبريطانيا العظمى ، فبدأت على هذا الأساس بين الطرفين مفاوضات عريضة طويلة المدى .

فلما غادر الملك فؤاد انجلترا إلى القارة الأوربية ، ترك وراءه ثروت باشا الذى نستطيع أن ندعه حيث هو إلى حين .

وفى أول أغسطس غادر الملك فؤاد باريس ، متجهاً نحو روما ليزور صديقه الحميم الملك فكتور عمانويل ، الذى بعث بقطاره الملكى الخاص إلى باريس ليقل جلالة الضيف الكريم ، وقد استقبله فى تورين ولى عهد إيطاليا فرحب به فى ود ظاهر عميق ، أما فى روما فكان فى انتظار القدوم الكريم فى محطتها ، فكتور عمانويل والدوتشى كلاهما ، وقد توقف الموكب الملكى فى البلاس أسيدرا Place Esedra ، حيث ألقى محافظ روما خطاباً رحب فيه بالملك فؤاد ، وقد أقام جلالته فى إيطاليا حتى التاسع عشر من أغسطس ، حيث بارحها إلى باريس مرة ثانية ، تلك المدينة التى يجد جلالته فى جاذبيتها القوية ما يغريه بحبها .

وبينما هو فى رحلته ، بلغه فى الثالث والعشرين من أغسطس نبأ وفاة سعد زغلول . وكان المرض قد أصاب سعداً منذ أيام ورؤى أن يظل الأمر سراً مكتوماً فلم تتحدث به الألسنة ، فلما بلغت فؤاداً هذه النهاية المفاجئة لزعيم بلاده الكبير أمر أن تشيع جنازته فى احتفال رسمى ، وأن يحييها الجيش التحية العسكرية الكاملة اللائقة .

وقد بلغ النبأ من نفس فؤاد مكاناً عميقاً ، ذلك لأنه كان يثق أنه ليس بين رجال الوفد من يماثل سعداً فى مقدرته وكفايته ، وأدرك ما سيعتور الاتحاد القوى الراسخ من الانحلال مع مرور الأيام ، ورأى أن الضرورة تتطلب قيام

عنصراً أكثر حرية فى ميدان السياسة . ومهما يكن من شىء ، فإنه لم يعد لمصر فى الحال بل واصل تنفيذ البرنامج الذى وضعه لنفسه . فخصص خمسة أيام أخرى لپاريس ، ثم غادرها إلى ڤيشى حيث أخذ جلالته يرتوى من مياهها حتى إذا كان السابع والعشرين من سبتمبر ، عاد إلى پاريس مرة أخرى ، وبقى فيها حتى ٢٥ أكتوبر ثم برحها لزيارة ملك البلچيك .

وقد استغرقت رحلة الملك فؤاد فى أوروبا أربعة شهور ونصف الشهر ، تبرع فى خلالها لأعمال البر ، ولبعض المشروعات التى لها صبغة المنفعة العامة بمبلغ وصل مجموعه إلى عشرة آلاف جنيه .

ووصل الملك إلى أرض الاسكندرية فى ١٤ نوفمبر ، وكذلك بلغ ثروت باشا أرض الوطن فى نفس اليوم يحمل فى جيبه مشروع معاهدة بين بريطانيا العظمى ومصر . ذلك المشروع الذى قذف بمصر مرة أخرى فى معمعة التناحر السياسى العنيف .

وقبل أن يلمس فؤاد هذه الأزمة الجديدة ، شغلته مهمة أخرى ، تلك أنه كان يستقبل ضيفاً ملكياً أجنبياً هو أمان الله ملك أفغانستان والملكة ثريا . فأقيمت المآدب الرسمية المعتادة والاستقبالات التى تتفق وهذه الزيارة الملكية التى لم يرتح لها فؤاد خالص الأرتياح ، وقد أدهشته لبعض الآراء التى صدرت عن أمان الله ، وقد راعت فؤاداً ، تلك الوسائل التى أعلن أمان الله أنه ينتهجها لتنفيذ إصلاحاته ، وهو الذى أدخل الكثير من الإصلاحات التى تتمشى وروح الدين ، فحذره عاقبة ما يبغى ، ولكن هذه النصيحة الصادقة لم تلق ارتياحاً فافترق الملكان فى فتور .

الفصل السابع عشر

استمرار النضال

خصص الملك فؤاد بعد عودته من رحلته إلى أوروبا ، الساعات الطوال فى البحث و إمعان الفكر لينقل لبلاده ، عما شاهده فى رحلته ، مايتفق وروح الشرق ، فقد رأى فى أوروبا الكثير مما راعه واهتز له .

فشهد فى انجلترا ملكية دستورية وطيدة الدعائم يحوطها الشعب بأصدق عواطفه ، راعته قوتها حتى لقد دفعته إلى أن يقسو على نفسه ويشق عليها فى قراءة الكثير من الكتب التى تبحث فى التاريخ البريطانى .

وعلى وجه خاص تلك الكتب التى تدرس العهد السابق للدستور الإنجليزى . وهو قد زار فرنسا ، وشهد فيها هذه الجمهورية القائمة ، ثم هو كذلك قد قضى فى إيطاليا بعض أيام رحلته ، فلم ير فى فكتور عمانويل سوى ظل من صورته الأولى . ورأى الأمر كله فى يد الدوتشى ، دون أن يكون فى موقف الملك ما يستثير الحسد .

شغل فؤاد نفسه إذن بدراسة مركز العرش فى مصر مع هؤلاء الذين يحيطون به ، وكان يرى مثله الأعلى فى النظام الذى أدخل إلى انجلترا فيما سبق عهد كرومويل لا فى القرن التاسع عشر ، على أنه كان يميل ، وهو ابن إسماعيل ، ناحية الأوتوقراطية ميلا لم يكن من اليسير أن يمحوه .

ولم يكن الموقف السياسى الذى واجهه عند عودته ليبعث على الثقة ، فألفى

شارة الزعامة التى حملها سعد زغلول تستقر على كاهل النحاس باشا ، وهو أحد الوزراء الائتلافيين ، على أنه لم تكن للنحاس شخصية الزعيم الفقيد ولا مقدرته وقد انتهت إليه قوة الوفد وضعفه ، ولكن الوفد وقد فقد قوة سعد الكابحة ، اندفع نحو التمرد فحرض النحاس باشا على إدخال عدة قوانين جديدة أريد بها الحد من نفوذ العرش وسلطانه . وكان أبرز تلك القوانين ، قانون الاجتماعات الذى أريد له أن يغتصب من السلطة التنفيذية :

كامل حقوقها فى منع الاجتماعات قبل انعقادها مهما تكن طبيعتها أو غرضها .

الحق فى التعرض للمظاهرات وتحويلها من ناحية إلى ناحية أخرى .

الحق فى فض أى اجتماع يسوده الأضطراب .

وقد شمل القانون إلى ذلك مواداً خاصة بعودة الأجتماعات التى تفض بسبب اضطراب النظام ، و بتحديد عقوبات صارمة توقع على الموظفين الذين يفضون الأجتماعات على غير ما يقضى به القانون .

وكان فى هذه التحوطات تهديد صريح للقانون والنظام ، فتطلع إليها الملك فؤاد فى غير ارتياح ، وعلى وجه خاص عند ما أقر مجلسا البرلمان هذا القانون . ولم تمنعه من اكتساب قوته القانونية سوى بعض الأعتبارات الفنية التى كان لا بد معها من إعادة القانون لمجلس الشيوخ مرة ثانية لتلافى هذه الأعتبارات الفنية .

ومهما يكن من الأمر ، فقد برز فى ذلك الحين مشروع المعاهدة الذى عاد به ثروت باشا يحمله فى جيبه ، فكان فيه ما شغل الأفكار وحول كامل الأنظار إليه .

وكانت لجنة ملنر قد أوصت بعقد معاهدة صداقة ، و بينت الوضع الذى

يمكن أن تقوم على أساسة هذه المعاهدة ، وإليك هذا الأساس فى إيجاز .

على مصر أن تتبع فى سياستها الخارجية ما ترسمه لها انجلترا ، لقاء ما تتعهد به لها بريطانيا العظمى من ضمان استقلالها .

وأن تمنح مصر بريطانيا العظمى حقوقاً معينة ، فتبيح لها (ا) الأحتفاظ بقوة حربيـة فى أرضها (ب) الإشراف على حد ما على ما يتصل بالأجانب المقيمين فيها من الناحيتين التشريعية والإدارية .

وقد روعيت هذه الأسس عند وضع مشروع المعاهدة بين ثروت باشا وسير أوستن تشمبرلن إلى حد ما ، ولكن رسم مشروع أية معاهدة فى جو لندن يختلف عن عرض هـذا المشروع فى القاهرة لبحثه وإقراره . وقد بُذل عند ثروت باشا لون من الضغط لحمله على توقيع المعاهدة ، غير أنه اجتنب تلك الرغبة عدة أسابيع فلم يلب نداءها ، وكان عليه إذا ما أراد الاحتفاظ بمركزه وهو يعرف اتجاه غالبية الوفديين ونزعتهم ، أن يحتفظ بمشروعه فى أعماق جيبه لا يبدو منه طرف . ومهما يكن من شىء ، فقد اضطر فى النهاية إلى أن يتخذ فى الأمر خطوة حاسمة ، فعرض المشروع فى الثامن من فبراير سنة ١٩٢٨ على النحاس باشا وسائر أعضاء الوزارة .

على أن الملك لم يرتح لهذا المشروع كل الأرتياح ، فإلى جانب ما قد يستتبعه تأييد جلالته لمشروع المعاهدة من تعقيد فى علاقات جلالتـه المنهوكة بالوفد ، فقد أشار إلى أن انتهاز فرصة زيارته لانجلترا لم يكن اختياراً لبقا ، وإلى أنه كان واجباً فى أمر له مثل هـذا الخطر أن ترجع وزارة الخارجية البريطانية إلى رأى جلالته على نحو أوسع مدى من هذا النحو الذى اتبع .

وفوق ذلك فقد كان فؤاد يتطلع إلى المستقبل ، فرأى ، وهو الخبير الحاذق

فى أوضاع السياسة ، أن فى مشاكل المعاهدة سبيلا للخلاص من تلك القيود القاسية التى تربطه ببرلمان معارض .

فلما طوحت المعاهدة بثروت باشا من عليائه وأرغمته على الاستقالة من رياسة الوزارة ، دعا الملك فؤاد ، النحاس باشا ، دون أن تداخل نفسه الريبة ، لتأليف الوزارة ، وإذا كان قد عهد فى انتهاج هذا النهج بكامل الشئون للوفد ، فقد كان مطمئناً إلى هذا السبيل الذى سلكه كل الأطمئنان .

ولفتت مسألة المعاهدة أنظار هويت هول إلى مصر ، وكان فى رفض الوزارة لتأييد المشروع الذى بذلت فى سبيل إعداده فى لندن ، جهود قاسية عنيفة ، ما دفع هويت هول ، ودار الحماية لأن توسعا مدى نظريهما ، فتطلعت العيون إلى قانون الأجتماعات وألقى حوله لون من الضوء .

ولما دعا الملك فؤاد ، النحاس باشا فى ١٥ مارس لتأليف الوزارة ، وقبل النحاس تلك المهمة ، اتخذت الخطوة الأولى نحو كبح جماح الوفد .

ولم يكد ينقضى شهر واحد ، حتى سلم لورد اللويد للنحاس باشا البلاغ التالى :

« ... تنظر حكومة صاحب الجلالة البريطانية بعين الريبة ، لما تعتزمه الحكومة المصرية من سن تشريع لو تم لكان له أثر كبير فى الأمن العام » .

« لذلك فأنا مكلف اليوم ... أن ألتمس من دولتكم بوصفكم رئيساً للحكومة المصرية ، أن تتخذوا حالا ، الإجراءات الضرورية للحيلولة دون إقرار قانون الأجتماعات والمظاهرات » .

« وأنا كذلك مكلف أن ألتمس من دولتكم إعطائى تأكيداً كتابيا صريحاً ، يقطع بأن التشريع المشار إليه آنفاً لن يأخذ قوة القانون . فإذا لم يصلنى هذا التأكيد حتى الساعة السابعة من مساء اليوم الثانى من مايو ، فستتخذ حكومة صاحب الجلالة البريطانية من الإجراءات ما تستدعيه طبيعة الموقف » .

فبعث النحاس باشا رده فى الحال مشيراً إلى أن الحكومة المصرية لا تعترف لبريطانيا العظمى بأى حق يبرر تدخلها فى شئون التشريع المصرى ، على أن الإجابة على أى حال قد أكدت أن استكمال بحث هذا القانون سيؤجل إلى الدورة التالية .

وعلى الرغم من أن هذا ليس بالموضع الذى تُبحث فيه هذه المسألة من جميع نواحيها ، فإننا لا بد أن نذكر أن هذا الموقف قد أثار الشعور فى مصر وانجلترا فى عنف وقسوة .

وفى هذا الجو الملتهب بدأ كثيرون من المصريين يفقدون ثقتهم فى الوفد .

وهنا سنحت الفرصة للملك فؤاد لكى يعالج البرلمان القائم .

فأصدر جلالته مرسوماً ملكيا بإقالة النحاس باشا ، وتعطيل البرلمان لمدة شهر واحد . ثم عهد برياسة الوزارة إلى محمد محمود باشا .

وفى ١٩ يوليه حملت « الوقائع المصرية » وهى الجريدة الرسمية مرسوماً بحل مجلس النواب والشيوخ ، وتعطيل الحياة النيابية ثلاثة أعوام .

وقد أذاعت الوزارة فى نفس اليوم الذى صدر فيه هذا المرسوم ، بياناً له أهميته ، وهو فى الواقع وثيقة جديرة بالتسجيل ، قالت فيها :

مولاى :

« تفضلتم جلالتكم فأخذتم فى سنة ١٩٢٦ بيد الائتلاف واعتمدتموه منهجاً ملائماً لحاجة البلاد ، يجنبها مضار التحزب والانقسام ويرضى أطماعها فى حكومة ثابتة وطيدة ... »

« على أن فئة قليلة هيأت لها المصادفة المحضة فى هذا العهد الأخير مكان الزعامة من حزب الأكثرية ، ما زالت فى حرصها على الاستئثار بالأمر تنقض أسباب التعاون ، وتسترسل فى حزبية شديدة الخطر على المصالح العامة ، مدعية

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

أن الانقسام جاء من انفرادها بالتمسك بحقوق البلاد ، جاهدة فى نشر ذلك الوهم وعاملة على توسيع نطاق الأنقسام ، واستدامة أسبابه » .

« ومما يؤسف له أشد الأسف أن آثار الأنقسام نقلت إلى دوائر الحكومة ، وكان لها شأن غير ضئيل فى أعمال الموظفين وأحوالهم ، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من إفساد نظام الأعمال ، وتعريض مصالح الجمهور للعسف والعبث ، وفى نشر القلق والاضطراب بين الموظفين » .

« ثم انتهى الأمر إلى أن أصبحت الحياة النيابية نفسها أداة لطغيان تلك الفئة . . . . »

« ولكن المؤثرات المصطنعة التى أفضت بالبلاد إلى الحالة التى تئن منها ، لا يمكن أن تنقطع أسبابها فى الوقت القصير . على أن الوزارة ترجو أن تكون ثلاث سنين كافية فى هذا السبيل . . . . »

« لذلك لا ترى الوزارة بدأ من حل المجلسين ، وتأجيل الأنتخابات إلى الوقت الذى يرجى فيه أن تتجلى إرادة الأمة على وجهها الصحيح » .

« كذلك ترى الوزارة أن ينظر فى قانون الأنتخاب ، وما يتصل به من أحكام الدستور لتعديل ما قد يكون فى تعديله إصلاح الحالة التى سبق وصفها . على أن النظام النيابى ، والمسئولية الوزارية ، لن يمسها التعديل بحال من الأحوال » .

« وما كانت الوزارة لتقدم على حل المجلسين ، وتأجيل الأنتخابات طواعية واختياراً . ولكن يلجئها إلى ذلك إلجاء ضرورة الخلاص من الحالة الحاضرة ، والحاجة إلى نظام ثابت مرضى ، يعيد للبلاد وحدتها ، ويهيئ لها سبيل معالجة قضية استقلالها ، على وجه يحقق كامل أمانيها » .

« والوزارة شديدة الإيمان بأنها تصدر فى ذلك عن حاجات الأمة الحقيقية ، وإجماع أهل الرأى فيها » .

« وقد اعتزمت الوزارة أن تأخذ نفسها فى إدارة الشئون العامة فى فترة تعطيل الحياة النيابية ، بإجراء العدل ، وبتحقيق المساواة فى غير تحيز أو حزبية ، وبتأييد الحريات فى حدود القوانين ، وتنفيذ الإصلاح فى المرافق العامة ، الذى طال على البلاد أمد انتظاره ، وترجو أن توفق إلى ما قصدت له فى ظل عطف جلالتكم ، وبفضل تأييد الأمة » .

« فإذا حازت الأعتبارات المتقدمة قبولا من جلالتكم ، تفضلتم بإصدار أمركم الكريم بحل مجلسى النواب والشيوخ ، وإيقاف المواد ٨٩ و ١٥٥ و ١٥٧ ، والجزء الأخير من المادة ١٥ من الدستور » .

« وإن الوزارة ، وهى ترفع إلى سدتكم العليا آيات إخلاصها لتبتهل بالدعاء بأن يحفظ للبلاد ذات جلالتكم الكريمة ، مؤيدة بتوفيق الله » .

والواقع أن الوزارة ربما كانت تتردد طويلا فى الإقدام على حل المجلسين وتعطيل الحياة النيابية ، لو لم تكن مدفوعة إلى ذلك بالرغبة العنيفة فى تخليص البلاد من مركزها الذى وصلت إليه ، وتهيئة الجو الملائم لها لتتمكن من الشروع فى المفاوضة لنيل استقلالها ، فى جو تستطيع أن تدرك فيه كل رغباتها .

وعلى الرغم من أن الوزارة قد استشارت جلالة الملك فؤاد قبل إصدار هذه الوثيقة ، فإن هذا لا يعنى أن محمد محمود باشا كان بوقاً يردد الصدى . إذ الواقع أنه كان رجلا حر الرأى ، ولا بد أنه كان ، وهو يضع هذه الوثيقة ، فى أزمة من تلك الأزمات التى تجتاح نفسه بين حين وآخر ، وليس من ريب فى أنه كان لصحته أثر ملموس فى تكوين مزاجه .

فلم يكن يتردد يوم يشعر بصحته فى خير أحوالها عن أن يجاهر بأنه بين أنصار الدستور الحميمين ، وفى الحق أنه كان مخلصاً فى هذا الذى جهر به . على أن كثيراً من أعماله ، وألواناً من أقواله لم ترض صاحب الجلالة ولم يرتح لها ،

فانتهت به أخيراً إلى اختيار وزارة جديدة من وزارات القصر كان ميلها إلى الأوتوقراطية أشد عمقاً وأكثر ظهوراً .

على أن الملك كان يعرف للبرلمان أنه حصر جهوده جميعها فى الشئون الخارجية ففشل فى رعاية الأمور الداخلية التى كانت أجدر بعنايته وأولى بجهوده .

والواقع أنه كان من الحق فى كثير أن يرد على هؤلاء الذين زعموه عدوا للدستور فيجابههم فى صدق وحرارة بأنه هو حامى الدستور ، ذلك الدستور الذى كان قد احتفظ به فى ذلك الحين لفترة موقوتة فى موضع الرعاية من أمانته . وكان يذكر فى تأثر تلك التجارب العنيفة التى مرت بها مصر ، والتى دفعت إلى اضطراب سياستها الخارجية ، أو التى كادت تدفع بها إلى هوة الاضطراب السحيق . وهو قد خطا بذاته فى اللحظة الأخيرة خطوته التى خلص بها مصر من ذلك المنحدر الذى كانت توشك أن تنزلق إليه ، والذى لم يكن ممكناً أن تجد لنفسها بعده السلامة والأمن .

وعلى هذا النحو استطاع الملك فؤاد أن يتمكن من الموقف ، وأن يبسط نفوذه على جميع شئون البلاد ، وكان المرض لا يزال يلاحق رئيس الوزراء ، بينما كان النحاس باشا ما يزال رئيساً للوفد ، دون أن يكون له ذلك التأثير الفاتن الذى كان لسعد زغلول ، فألفى جلالة الملك فى تتبع مختلف الشئون لذة ومتاعاً .

وقد كان فى الزيارة الملكية للمنطقة الصناعية فى شمال انجلترا ما أكسب جلالته خبرة واسعة فى شئون القطن . والحياة الأقتصادية فى مصر تقوم على دعامة واحدة ، هى أسعار ذلك المحصول . على أنه إذا كان حتما أن يحصل المصريون على ما تطرد حاجتهم إليه من المصنوعات والمنتجات الأخرى . فلا بد لهم من الأعتماد على ما يدفعه الأجانب ثمناً للأقطان الخام التى تصدرها مصر أكثر من اعتمادهم على صناعات بلادهم . ولقد كان الملك فؤاد وفريق كبير من

المصريين يعتقدون قبل زيارة جلالته لمناطق غزل القطن فى انجلترا ، أن هذه الأثمان التى يدفعها الأجانب ثمناً لمحصول مصر الرئيسى ، إنما تقدر على أساس من الإجحاف والتعنت ، مع التصميم القاطع على دفع أقل قيمة ممكنة . فأتاحت لانكشير للملك ، الفرصة ليرى أنها إنما تكافح فى سبيل وجودها ، وأنها ليست بالظالمة المتعنتة التى تبتغى النهب أو السرقة . فاعتزم جلالته أن يهدم إلى أبعد مدى مستطاع الأسلوب الأقتصادى الذى تسير عليه مصر فى اعتمادها على محصول رئيسى واحد ، فعمد فى إيمان إلى تشجيع قيام الصناعات المحلية . إلا أن ثقل الأعباء المالية الباهظة التى كانت تتطلبها المشروعات العامة الكبرى ، عرقلت سبيله ، فلم يتمكن جلالته من تقديم المعونة الجديرة بهذه الصناعات .

ومهما يكن من شىء ، فقد كان فى تشجيعه للتعليم الفنى خير مؤازرة لتلك الصناعات ، وقد استطاع أن يرى فى سنوات حكمه الأخيرة ، هذه الصناعات وهى تخطو فى سبيل النجاح خطوات موفقة .

وإنا لنذكر على وجه خاص ما بلغته صناعة الأثاثات من التقدم والنجاح ، فهى اليوم تضارع فى جدارة أرقى ما يرد من أنواع الأثاث من الخارج ، وفى هذه الصناعة يعمل اليوم آلاف من الصناع . وليس من ريب فى أن هذا إنما يرجع إلى جهود الملك فؤاد ، الذى كان يشجع هذه الصناعة ويختص منها برعايته صناعة الأثاث العربى الطراز ، وإن هذه الصناعة التى أريدت لها الحياة من جديد ، وأريد لها أن تحتفظ بالطابع الفنى التقليدى القديم ، لتبشر بمستقبل لامع مزدهر .

ونحن كذلك لا ننسى تلك الجهود التى بذلها جلالة الملك فؤاد فى تشجيع صناعة النسيج ، وطحن الحبوب ، وصناعة المكرونة . كما أصابت صناعة حلج الأقطان ، وصناعة الخزف ، حظا واسعاً من النجاح ، بفضل رعايته وتشجيعه .

الفصل الثامن عشر

محنة المخدرات

رأى جلالة الملك فؤاد ، كما أدركت مصر بأسرها ، عقب تعطيل الدستور ، أن البلاد بأكملها قد وقعت فى قبضة عدو أشد خطراً وأبلغ ضرراً من كل ما قدمته أوروبا قبل ذلك اليوم .

فقد كانت مصر منذ القدم ، تنظر إلى المخدرات فى كثير من التهاون والتجاوز ، فكان من اليسير الهين الحصول على الأفيون والحشيش دون خوف من عقاب ، أو رهبة من قانون صارم .

وكان الحشيش أبرز ألوان المخدرات ، حتى بلغ عدد المدمنين على تعاطيه آلافاً كثيرة متعددة . وهو أحد مستخرجات القنب ، ولا يتطلب تحضيره جهداً أو مشقة ، فكان لذلك رخيص الثمن ، والأغلب فى تعاطى هذا المخدر أن توضع قطعة منه فوق كمية من الطباق مثبتة فى أعلى ما يسمونه « الجوزة » ثم تتلقف شفاه المدمنين مبسم هذه « الجوزة » فى تناوب مستمر ليجذب كل حظه من المخدر المحترق . وسرعان ما تبدو آثاره الأولى الخاطفة فى لون من البهجة يشمل المجلس ، فتدور الألسنة فى أصوات مزعجة ، ويستمر الضحك فى عنف وخشونة ، ثم تعلو طبقة الحديث مع دورات « الجوزة » . ولكن سرعان ما يتحول هذا الصخب فجأة إلى لون من الغطيط ، بينما يتراجع المدخنون الواحد تلو الآخر ، فى مجالسهم فى شبه سبات بليد ثقيل . على أن آثار تدخين الحشيش المحزنة إنما تبدو فيما يعقب هذه المجالس ، فهى تترك المدخن كأنما قد خرج من

معركة ، فيظل الساعات الطويلة المتعاقبة فى شبه ذهول ، لا يستطيع معه أن يفكر أو أن يعمل .

والحشيش على أى حال ، أخف ألوان المخدرات ضرراً إذا جاز لنا أن نضع هذا التعبير فى نعت ذلك النوع الخطر من العقاقير ، فليس فيه من الضرر على الصحة أكثر مما ينشأ عن الإدمان على المواد الكحولية ، ولم يكن فى تعاطيه قبل عام ١٩٢٩ ما يقلق بال السلطات المسئولة .

وقد تطلع العمال فى مصر ، وهى البلاد التى حرم فيها القرآن عصير العنب المتخمر ، إلى مخرج ينفذون منه ، دون أن يكون هذا المخرج بحيث يؤدى بهم إلى تناول الجعة ، أو المشروبات الروحية ، أو فى زيارتهم لأماكن اللهو والتسلية وهى تكاد تكون معدومة ، فألفوا هذا المخرج فى تدخين الحشيش فى تلك « الجوزة » الصغيرة . فكانت الجوزة تدور بين المدخنين يجتذب أنفاسها الواحد بعد الآخر ، فتغمر الجميع روح من البهجة والمرح ، ولم يكن هم رجال الشرطة ليتجمع فى هؤلاء الذين يقضون يومهم فى عمل مضن عنيف ، ثم يستمتعون فى مسائهم بجلسات هادئة ، وإنما كان يتركز فى هؤلاء الذين أغرقوا فى الإدمان . وكان الحشيش قبل سنة ١٩٢٩ يحتل من تفكير رجال الشرطة ، ومن السلطات المسئولة فى مصر نفس المكان الذى كانت تشغله المشروبات الروحية القوية فى انجلترا . فلم يكن هناك ما يدعو إلى المؤاخذة الجدية إذا أخذت الكمية فى حدود معقولة ، ولكنها إذا تجاوزت حدوداً مرسومة ، أثارت لوناً من المتاعب القاسية والمؤاخذة الصارمة .

تتضخم الأزمات تحت تأثير الحشيش ، فتبدو ألوان الضيق أو الظلم فى عينى من يتعاطى ذلك المخدر أشد قسوة وأبلغ عنفاً ، وهو إلى ذلك يثير فى النفس لوناً من الميل إلى تعظيمها والاعتزاز بها ، وليس من شك فى أنه يؤثر على

الأعصاب فى أسلوب كفيل بأن يدفع بالمدمن إلى سبيل الجريمة العنيفة .

وفى عام ١٩٢٩ تزعزع هذا اللين الذى كان يعامل به مدخنو الحشيش من الفلاحين ، فقد بدا أن العمال قد اندفعوا ، يغريهم التضليل ، إلى تعاطى ذلك المخدر المهلك الذى نعرفه باسم « الهيروين » .

ولو عمد عمال إنجلترا جميعهم إلى الجعة فهجروها فجأة ، ثم اندفعوا ينهلون فى إفراط من ذلك المشروب الكحولى المستخرج من الخشب ، لكان فى عملهم هذا صورة دقيقة لما أقدم عليه العمال المصريون . فالهيروين وذلك المشروب الخشبى المسكر ، يتساويان فى ضررهما وخطرهما ، فكلاهما قاتل مميت ، ولكنه موت عنيف ، لا راحة فيه ولا هدوء .

على أنه ليس هناك من يستطيع أن يعرف كيف نزل هذا البلاء ، أو متى بدأت تلك الداهية . فلما اتجه نظر الهيئات المسئولة إلى هذا الوباء ، تبين أن عدداً هائلا من العمال ، وعلى وجه خاص فى الأقاليم ، قد أمسوا من المدمنين ، حتى لقد كاد عددهم يصل إلى نصف المليون ، وأنهم باتوا يقذفون الجانب الأكبر من أجورهم التافهة فى إجابة ذلك النداء الملح الذى باتو فى أسره ، وتحت وطأة إذلاله .

وقد اكتسح هذا المخدر غيره من المخدرات الأخرى فانزاحت جميعها جانباً إزاء كثرة التهافت عليه ، رغم ما يحمله بين ذراته مما يقتل النفس ويميت الحس والشعور . فلما انتهت هذه النتيجة إلى جلالة الملك فؤاد ، عين جلالته ، اللواء رسل باشا Rassell Pasha ، مديراً للمكتب العام لمكافحة المخدرات ، وهو تلك الهيئة الخطيرة التى قدر لها النمو ، وكتب لجهودها إطراد النجاح .

وليس من ريب فى أنه كان معروفاً خلال سنوات عديدة ، أن كميات صغيرة مما يسمونها « العقاقير البيضاء » كانت تصل إلى مصر عن طريق بحارة

السفن التى كانت تمر بقناة السويس ، ولـكن دخول الهيروين أثار لوناً من القلق وبعث ألواناً من الصعاب ، فهو مسحوق قوى التأثير ، شديد الخطورة ، ولـكنه رغم ذلك من اليسير إخفاؤه .

وعند ما تنبهت السلطات المسئولة لفداحة الخطر ، كان الهيروين ينصب فى مصر انصباباً هائلا مخيفاً .

فبذلت العناية الدقيقة لمراقبـة جميع السفن التى ترسو فى السويس ، أو بور توفيق ، إلا أنه تبين أن الاسكندرية كانت المنفذ الرئيسى الذى ينساب إلى مصر منه ذلك المخدر المميت .

ولم يكد هذا الباب يقفل ، حتى انفتح باب آخر ، ثم تلاه باب ثالث ، تبعته أبواب أخرى ، للأرباح الطائلة التى كانت تنتجها تجارة المخدرات ، ولأن المتجرين فى هذه العقاقير كانوا يتمتعون بموارد فذة يجمعون منها الثروات الضخمة .

وقد انتهت الأبحاث التى أجريت حول هذا الداء الوبيل ، داء المخدرات ، إلى أغرب النتائج ، فتبين أن الهيروين يرعى قلوب المصريين دون تمييز بين مكاناتهم ، أو طبقاتهم ، أو حظهم من التعليم .

وقد جمع البوليس عدداً من المدمنين ، فتبين أن بينهم ٤٩٩ لا عمل لهم ، و ٤٩٤ من أصحاب الأطيان أو المزارعين ، و ٢٧٤ من عمال المقاهى ، و ٢٥٩ من الباعة المتجولين ، و ١٨٩ من التجار ، و ١٢٣ من سائقى عربات النقل ، و ١٠١ من الخياطين ، و ٦٢ من الملاك ، و ٤٧ من سائقى السيارات ، و ٢٤ كاتباً ، و ٢٤ صائغاً ، و ١٥ كاتباً عموميا ، و ١٥ موسيقيا ، و ٦ من الوسطاء « السماسرة » و ٥ من المقاولين ، وأربعة ممثلين .

وتبين فى حالات كثيرة أن رؤساء العمال ، قد عمدوا إلى استغلال إدمان عمالهم على تعاطى المخدرات ، فكانوا لذلك يستوردون الهيروين من موارده

الرئيسية ، ثم يضيفون إليه ألواناً أخرى من المساحيق ، لمضاعفة كمية المادة الأصلية ، و يقدمونه بعد ذلك إلى عمالهم بدل الأجور المقدرة لهم طمعاً فى الكسب كما تبين فى حالات أخرى أن رؤساء الأعمال كانوا يجمعون من هذا السبيل ثروات كبيرة ، للقوة القاهرة التى تدفع المدمنين إلى الإلحاح فى طلب الهيروين ، حتى لقد بلغ من قسوة هذه القوة وعنفها عند العمال ، أن دفعت بهم إلى إنفاق ثمرة اقتصادهم وتقتيرهم ، ونتيجة كدهم وكدحهم .

بل لقد دفع المخدر بعض المدمنين الذين أذلهم وتحكم فى مصيرهم ، إلى تطليق زوجاتهم ، و إهمال أولادهم وتركهم فى يد القدر يعملون لكسب قوتهم .

وكان العامل الأول الذى اهتز له الملك فؤاد ، هو ما أدركه من تفشى ذلك الداء ، وتخطيه دائرة الرجال إلى محيط الشباب والناشئة ، وما قد يجره هذا من خطر على الأطفال والصبية . وقد ثبت عند ما بدأ رجال البوليس فى دراسة أمر هذه المصيبة ، أن غالبية المدمنين من الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والأربعين ، وربما لم يخطر لهم أن يواصلوا أبحاثهم فى محيط النساء والأطفال .

ومهما يكن من الأمر ، فقد كانت تحوط جميع الجهود التى تبذل فى هذا السبيل ألوان من المصاعب والمشقات ، فانقضى لذلك وقت طويل قبل أن تبدو لتلك الجهود ثمرة فى وقف سريان ذلك الداء المهلك .

ولما بلغ وباء المخدرات حدته ، ثبت أن بين كل مائة شخص من سكان مصر ، أكثر من أربعة أشخاص قد أضلتهم الغواية ، فاندفعوا فى سبيل تلك السموم البيضاء ، تستذلهم فيخضعون لا تلويهم عن الخنوع عزة أو كرامة .

وكذلك اتضح أن الكمية التى تهرب عن طريق الإسكندرية كل عام ، لا تقل عن طنين ونصف الطن بأى حال ، فلما زيدت الرقابة على هذا المنفذ ، تحول المهربون إلى طريق فلسطين ، حيث زاولوا مهمتهم تستترهم وتدفعهم الجرأة .

فكان الهيروين يرد إلى مصر داخل غلاف الساعات ، وفى أقلام الحبر ، وداخل أقلام الرصاص المفرغة ، وتحت ثياب السيدات ، وداخل أوعية أخرى دقيقة مدفونة فى شعر الجمال الطويل .

ولم يكن قادة الجمال العرب الذين تفرغوا لهذه التجارة التى تغل تلك الأرباح الطائلة ليترددوا فى إطلاق الرصاص إذا أحسوا الخطر على أنفسهم أو بضاعتهم .

وكان حتما إذن من التماس معونة القوات البريطانية فى فلسطين لمحاربة هذه الآفة ، وكان فرضاً كذلك أن تزود البلاد بفرق من « الهجانة » لحراسة الصحراء ، وأن توضع فى خدمة هذا الغرض الجمال والسيارات والطائرات التى تكفل وقاية البلاد من ذلك الهيروين القتال الذى نفذت سمومه إلى قلوب الشعب المصرى قبل أن يستفحل إلى أبعد من المدى الذى بلغ إليه .

وقد بذل المتجرون فى هذه السموم ، مدفوعين بجشعهم ، جهوداً واسعة فى سبيل نشر ذلك الخطر والتمكين له ، حتى يكثر الإقبال عليه ، والإلحاح فى طلبه . فلم يتورعوا عن إيفاد رسلهم إلى المناطق التى لم يصل إليها ذلك السم لينشروا فيها شباكهم لاصطياد فرائس جديدة ، فكان هؤلاء الرسل يوزعون كميات من ذلك المخدر دون مقابل يغرون بها البسطاء — ولم يكن هؤلاء الرسل ليتورعوا عن إيقاع الصبية فى حبائلهم بتلك الوسائل .

ولم يتهيأ لرسل باشا النجاح فى مطاردته المتجرين فى المخدرات إلا بعد إنشاء هيئة كبيرة لمواصلة الأبحاث السرية ضد ذلك الوباء — وقد لقى رسل باشا أكبر التشجيع وصادق المعونة فى هذا السبيل من جلالة الملك فؤاد الذى هالته فداحة الخطر وكثرة الضحايا بين جماهير شعبه .

على أن الأبحاث التى واصلتها السلطات الرسمية فى مصر حول هذا الموضوع أثبتت أن هناك عصابات خطيرة من اليونانيين تعمل على تموين البلاد بهذه

السموم مستعينة على ذلك بضروب من الحيل مستغلة جهود النساء اللاتى لم يكن من اليسير تفتيشهن ، وجهود الذين لا يثيرون الشبهات عند رجال خفر السواحل ، وحراس الموانى .

ولما كانت هذه العصابات تملك أموالا ضخمة جمعتها من هذه التجارة الموفورة الأرباح ، فقد كانت تنفق الكثير فى سبيل نشر تجارتها وهدم الجهود التى تبذلها السلطات الرسمية ، إلا أن مكتب المخابرات السرية لم يدع سبيلا من السبل إلا سلكه لمطاردة هذه العصابات والقضاء على جهودها .

وليس من ريب فى أنه كان للجهود التى بذلها مكتب مقاومة المخدرات أكبر الفضل فى إنقاذ المصريين من خطر تلك السموم ، وكان فى تشجيع جلالة الملك فؤاد ما سدد خطى تلك الهيئة ومكن لها من النجاح .

وكذلك بذلت جمعية الصليب الأحمر فى مصر نتيجة التماس جلالة الملك فؤاد جهوداً رائعة فى مقاومة خطر الهيروين ، وهى التى خصت بكامل جهودها منذ الحرب خير البشر ، كما كان لما بذلته جمعيات الأسعاف المصرية التى كان لها بجلالة الملك فؤاد صلة وثيقة ، معونة واسعة فى القضاء على هذا الوباء القتال .

الفصل التاسع عشر

استمرار النضال

لو شئنا أن نتقصى مراحل النضال الذى نشب بعد ذلك بين جلالة الملك فؤاد والوفد ، لاضطرتنا هذه المشيئة إلى أن نسلك سبلا ملتوية كثيرة المنعرجات موفورة العقد . فحسبنا إذن هنا أن نقرر أن جلالته وقد اعتزم أن يكون له الملك وأن يكون له الحكم ، رأى أن يبر بوعده فيصلح قانون الأنتخاب .

وقد روعى فى وضع القانون الجديد الأسلوب غير المباشر ، فمنح هذا حق اختيار النواب للعناصر ذات المسئولية بين جماهير الشعب ، رغم ما كان يبدو على ظاهر القانون من إباحته حق الأنتخاب لجميع الأفراد دون تمييز بين طبقاتهم ، فكان فى هذه الخطوة ضرب من البراعة ، ورأى فيها جلالة الملك لوناً من الحذق قُدر له السداد . فقد كان سعد وأنصاره يوجهون جل عنايتهم وجهودهم نحو تلك الطبقة بعينها التى حرمها جلالة الملك فؤاد من حق التصويت المباشر ، فكان فيما أدخله المليك على قانون الأنتخاب ما هدم جهود أعوام متوالية ، وما انتهى إلى إضعاف سطوة الوفد فى الأنتخابات .

وعلى الرغم من مخالفة هذا التعديل لرغبة الوفد وهو الذى يضم غالبية الشعب فإنه لم ينشأ عنه ما يقلق بال الملك .

ولما كان نسيم باشا رئيساً للديوان الملكى فى ذلك الحين ، فقد نصح فى إلحاح مشيراً بوجوب الإمتناع عن مثل هذا التعديل الذى يمس الدستور ، ولكن الملك فؤادا لم يستمع لمشورته ، فرفع نسيم باشا استقالته من منصبه ، فاحتل مكانه

محمد زكى الإبراشى باشا ناظر الخاصة ، ومدير الأوقاف الملكية ، الذى وكل إليه جلالة الملك إدارة أملاك جلالته فأصبح موضع ثقة الملك ومشيره الأمين ، فمنحه جلالته سلطة كانت تتسع حدودها مع الأيام ، ولما ساءت صحة الملك ازداد نفوذ الإبراشى حتى انتهى به هذا إلى استثارة كراهية الناس له ، واتهامهم إياه بأنه قد استغل انحراف صحة الملك ، فجمع السلطة فى يديه يصرفها بوحى من نفسه ، فى حين أنه كان يعمل على راحة جلالته .

على أن الملك قد أحس بالطمأنينة على أثر تعديل قانون الأنتخاب لما أعقب هذا التعديل من التغييرات الدستورية .

وقد دفع جلالته هـذه التعديلات لمجلس النواب الذى انتخب فى هذه الظروف وبذلت فى انتخاباته ألوان من الضغط بذلها رجال الإدارة فى صور ملموسة ظاهرة ، وهى الأنتخابات التى رفض الوفديون والأحرار الدستوريون الأشتراك فيها ، فقاطعوها مقاطعة مطلقة . وقد منح الدستور الجديد للملك فؤاد سلطة تجاه الهيئة التشريعية ، ثم زاد فى نفوذ جلالته لدى السلطة التنفيذية . حتى بات مركزه يماثل مركز نائب الملك فى الهند قبل تعديل نظام حكومتها الأخير .

وبدأت المعارضة ، وعلى وجه خاص الوفد ، بدأت تلح فى المطالبة بعودة دستور سنة ١٩٢٣ ، بينما كان هناك من يودون مغتبطين لو يعدل الدستور القائم تعديلا حكيما ، ويقررون أن مثل هذا التعديل الذى ينشدونه إنما يكون عملا معقولا متزنا .

وقد بلغ هذا الموقف نهايته فى سنة ١٩٣٤ عند ما أصيب الملك فؤاد بذات الجنب ، على أن صحته لم تكن على أحسن أحوالها فى المدة القصيرة السابقة لهذا المرض الطارئ حتى لقد عانى فى سبيل الخلاص من آثار هذا الضعف مشقة وعسراً .

وقد أصر الملك فؤاد وهو فى فراشه يعانى آلام المرض على أن يظل على أوثق اتصال بشئون البلاد ، وأمر فى عزم قاطع ألّا يذاع على الجمهور سر مرضه . فقيل ، رغبة فى تعليل أسباب انقطاعه عن الظهور على مسرح الحياة العامة ، إن جلالته يعانى آلام انفلونزا حادة . فلم يعرف العالم ، ولم تعرف مصر على وجه خاص حقيقة الموقف . فقد أيقن الملك فؤاد أنه سيسترد صحته و يستعيد عافيته عما قليل فيواجه هجمات المعارضة التى لا تنقطع .

غير أنه لم يشف ، ونشأ عن ذات الجنب ضعف فى القلب ، واستمرت الرئتان تنضحان إفرازاتهما . وطال المرض بالملك حتى نال من كيان جلالته كثيراً ولم يعد من اليسير أن يغادر فراشه ، وبات من العسير إخفاء الواقع الذى ينطق بأنه لم يعد يقوى على القيام بأعباء مهمته السامية .

وبدأت مصر ترتاب فى حقيقة الموقف ، وكان فى المناسبات الرسمية ما قويت به ريبتها ، فإن الملك لم يستطع مثلا أن يستقبل السير مايلز لامپسون Sir Miles Lampson المندوب السامى البريطانى قبل سفره فى أغسطس .

وحدث بعد ذلك أن أعدت الترتيبات الرائعة لاستقبال جلالة الملك فؤاد فى اليونان ليزيح بيده الكريمة الستار ، عن تمثال محمد على الكبير منشىء الأسرة العلوية الكريمة ، الذى ولد فى قوله ، والذى أقيم التمثال تكريماً لذكراه . ولكن جلالته لم يقو على مغادرة قصر المنتزه الصيفى المشرف على البحر عند الأسكندرية ، فانكشف بذلك خبر مرضه ، وسرى بين الجموع ، يستثير بينها الريبة .

فازداد قلق مصر إزاء إصرار دوائر القصر على الأمتناع عن إصدار بيان رسمى عن حالة صاحب الجلالة الصحية ، وتطايرت الأشاعات متباينة صورها ، فصادفت لدى الشعب آذاناً مرهفة مصغية ، واستقرت فى مواضع الإيمان من

قلوبهم القلقة المرتابة . واختلفت الظنون حتى تهامست الجماهير بأن الملك فؤاداً قد مات منذ شهور ، وأن الإبراشى باشا وفّى جلالته يخفى عن الشعب هذا النبأ لمنفعته الذاتية ولمآربه الخاصة . و بلغ من قوة هذه الأشاعات أن آمنت الطبقات المستنيرة بهذه الأشاعة التى تؤكد أن الملك فؤاداً يعانى من قسوة المرض ما يجعل الإبراشى باشا هو الحاكم الحقيقى للبلاد . وأعلنت المعارضة غير مرة وفى أسلوب قوى أن رأى جلالة الملك لم يؤخذ فى شئون الدولة منذ بعيد ، وأن الحكومة إنما تسير وفق مشيئة الإبراشى باشا .

وفى سبتمبر عرف الشعب أن هيئة طبية إخصائية قد استدعيت من القاهرة لعيادة جلالة الملك فى قصر المنتزه ، وكان على رأس هذه الهيئة « الدكتور فريجونى » Dr. Frugoni . الذى تحسنت بجهوده صحة جلالته .

وعلى الرغم من ذلك لم تصدر عن حالة الملك نشرة رسمية ، فألحت الصحف فى المطالبة بضرورة إصدار بيان رسمى عن حالة صاحب الجلالة الصحية .

فإذا كان شهر اكتوبر صدر بيان موجز أشد الإيجاز روعيت فى وضعه ألوان الحذر وقد أريد به وقف ذلك الإلحاح المتواصل .

وقد أبانت النشرة فى وضوح أن المرض قد اتخذ صورة خطيرة منذ عشرة أيام سابقة لتاريخ إذاعتها ، ثم ذكرت أن جلالته قد بدأ يشعر بتحسن .

وقد رضى الملك فؤاد والإبراشى باشا عن إصدار هذه النشرة بعد إحجام طويل وتردد لم يكن من اليسير دفعه . واتخذت بعد ذلك التحوطات الدقيقة لإخفاء حقيقة الموقف ، حتى لقد بلغ الأمر بدوائر القصر إلى حد آخذت معه الصحف التى نشرت منذ أسابيع قلائل ، أن الملك سوف لا يستطيع مغادرة الأسكندرية إلى بلاد اليونان .

وفى الحادى والعشرين من أكتوبر صدرت نشرة ثانية تقطع بتقدم صحة

الملك فؤاد ، على أن الفكرة التى كانت قد تولدت فى نفوس أفراد الشعب فى الفترة التى كانت دوائر القصر تصر خلالها على أن تخفى نبأ مرض الملك ، هذه الفكرة أوحت إلى الشعب فى صورة قاطعة أن الحكومة تسير وفق إرادة رجل لا هو بالوزير ، ولا هو بالموظف الحكومى ، وكان حتما أن تتخلف عن هذه العقيدة آثار ونتائج .

وعنيت دار المندوب السامى بالموقف أشد العناية ، إذ قد أصرت بريطانيا يوم إعلان الأستقلال ، على أن تتولى شئون البلاد حكومة دستورية . وقد رغبت دار المندوب السامى فى أن تمحى من الجو بعض الأسباب التى عملت على استثارة كراهية الشعب لتلك السياسة المتبعة ، فلم تكد تعلم بتقدم صحة الملك ، ومغادرة الهيئة الطبية للقصر الملكى ، حتى أسرعت فأنهت إلى جلالة الملك أنه من الخير لذاته الكريمة ولسلالته لو أن جلالته أجرى بعض التغيير فى هيئة الحاشية التى تحوط جلالته .

وليس من ريب فى أن هذا الأقتراح كان ينصب على شخص الإبراشى باشا قبل غيره .

ولم يكن من اليسير أن يتخلى الملك فؤاد عن رجل خدمه فأخلص فى خدمته ، فقد خطت أملاك جلالته تحت إدارة الإبراشى باشا ، خطوات واسعة فأعطت فى سخاء حتى بات الملك واسع الغنى موفور الثراء . وعرف فؤاد لتابعه هذا الجهد ، وذلك الولاء ، فحمل له صادق العطف وخالص التقدير ؛ ولم يتردد فى مقاومة هذا الأقتراح مقاومة بذل فيها جهداً واسعاً ، وعمد رجال القصر ، وقد هوجموا على هذا النحو العنيف ، إلى بذل كامل جهودهم فى مقاومة هذا الهجوم ، فلم يدعوا سبيلا إلا سلكوه . فحملت الصحف على تدخل دار المندوب السامى ، وصورته على أنه لون من ألوان النفوذ البريطانى تريد إنجلترا أن تفرضه

لنفسها على شئون مصر الداخلية ، دون أن يكون هناك ما يبيحه أو يبرره .

غير أنه بدا أن الملك سوف لا يصبر طويلا على التمسك بموقفه وهو يرى الرأى العام يؤيد فى حرارة اقتراح إنجلترا ، وأدرك فؤاد أن هذا الأقتراح جدير بالدرس . فبذلت الجهود لاختيار الشخصية التى تصلح لأن تشغل منصب رئيس الديوان الملكى ، غير أن هذه الجهود لم تصادف النجاح المرغوب لها ، لما كان يبذله رجال القصر الذين كانت تمسهم هذه الحالة من ألوان المقاومة .

فقد اقترح أحد الذين عرض عليهم المنصب ، أن يعتزل الإبراشى باشا منصبه ولو إلى حين موقوت فكان فى الاقتراح ما وقف العرض عند هذا الحد . إذ بدا فى صورة لا تدفع إلى الشك ، أن الغرض الأول من هذه المدة التى يعتزل فيها الإبراشى باشا مهام منصبه ، هو تهيئة الفرصة الملائمة لتدبير ما يراد له فى خلالها . بينما بذلت الجهود للقطع بأنه إذا انسحب الإبراشى باشا من مركزه ، فسيكون هذا الأنسحاب لأقصر أجل محتمل .

و بينما كانت هـذه المفاوضات تسلك سبيلها رجاء الوصول إلى حل تستقر عنده الأمور ، كانت الصحف تعمل جاهدة على أن تنشر فى الجو ألواناً من السحب ، تبغى أن تحول بها أنظار الرأى العام ناحية إنجلترا ، وهى الناحية التى تستهوى دائماً الجماهير ، لتشغلها بذلك عن ساحة القصر .

فقيل فى غير التواء إن انجلترا قد نكصت بعهدها ، و إنها تحاول أن تجعل تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ قصاصة من ورق لا خير فيها ولا غناء ، لما تبذله من جهد رغبة فى تعديل قانون الوراثة . ولهذا الأسلوب الذى تعوزه الشهامة والذى عمدت إليه فى حملها الملك على نهج طريق بعينه فى الوقت الذى لم تكن فيه حالة جلالته الصحية بحيث تمكنه من درس مثل هذه الأقتراحات .

وكذلك أذيعت حول موقف القائم بأعمال المندوب السامى «مستر بيترسون»

Mr. Peterson صورة أوحى بها الخيال وصورها ذوو الأغراض ، فقد زعموا أنه إنما يحاول أن يبتنى لنفسه مجداً سياسياً خلال غيبة سير مايلز لامپسون ، وأنه إنما تدفعه لما يجاهد فى سبيله أغراض فى نفسه . ثم قيل إنه رسم هذه السياسة دون أن ينال مشورة لندن ؛ فهو بذلك إما أن « يعمل خيراً » وإما أن يستقيل .

وقد وقفت الصحافة المعارضة من خطة بريطانيا فى هذا الظرف موقفاً غريباً ، فسخرت من الأقتراحات الإنجليزية ، ونصحت الصحف الوفدية للقصر بأن يتخير العلاج ، وأعلنت أن مصر ستعرف كيف تواجه الموقف لو اتخذ التهديد الذى وجه لمصر صورة جدية .

أما الأحرار الدستوريون فقد أعلنوا أنهم لا يعتقدون أن بريطانيا العظمى تحاول الأعتـداء على حقوق مصر ، وأنهم على العكس يثقون أن انجلترا تقف دائمـاً بحيث يعتمد على ما ينطوى عليه نفوذها من خير ، وأن أى تدخل من جانبهم فى الموقف القائم سيقابل فى غبطة وترحيب .

وفى الرابع والعشرين من أكتوبر أصبحت صحة الملك فؤاد بحيث تمكنه من استقبال عبد الفتاح باشا يحيى رئيس الوزراء ، والمرة الأولى بعد شهور طويلة متتالية استطاع جلالته أن يرتدى ملابسه العادية وأن يدرس مع رئيس الوزراء ذلك الموقف الدقيق الذى بلغت إليه الأمور ، وقد استطاع دولة الوزير فى هذه المقابلة أن يصور للملك قوة التيار الذى يتدافع فيه الرأى العام .

فذكر جلالة الملك فؤاد لرئيس الوزراء أنه يرحب بما تنصح به بريطانيا ، ولـكنه لا يدرى على وجه الدقة بماذا تنصح فى هذا الموقف ولا ماذا تريد .

وتتبعت مصر فى كثير من اليقظة ما يدور بين الملك ودار المندوب السامى ، وقد لاحظ الجمهور أن عبد الفتاح باشا يحيى لم يسافر إلى القاهرة مباشرة عقب تشرفه بمقابلة جلالة الملك بل بقى فى الأسكندرية ، كما تطلع الشعب فى كثير

من العجب إلى تلك الجهود التى يبذلها الإبراشى باشا للاحتفاظ بمركزه .

وكان الأبراشى باشا فى مركز قوى تؤيده الكثرة الغالبة من رجال القصر ، وقد كانوا يدينون له بمراكزهم . على أنه كان رغم ذلك يواجه موجة جارفة يوجهها الرأى العام الذى كان يحمل له ألوان الكراهية والمقت .

وقد كانت مصر ترى فى الأبراشى باشا رجلا لا يعمل لخير وطنه ولا يجاهد فى سبيله .

وكان مما ساعد على استمرار النضال المحتدم بين القصر ودار المندوب السامى أن اعتقد عبد الفتاح يحيى باشا رئيس الوزراء أن بريطانيا العظمى تصوب نحو استقلال مصر ضربة قد تمسه فى كثير ، فأمر القائم بأعمال مفوضية لندن أن يتصل بوزارة الخارجية الإنجليزية ليحتج لديها بشدة على موقف الصحافة البريطانية .

فأعقبت هذه الخطوة نصيحة سرية من لندن تشير إلى أن هويت هول ما تزال مترددة لم تستقر عند رأى .

وفى الثامن والعشرين من أكتوبر أذعن الملك فؤاد للموقف فأخرج الأبراشى باشا من وظيفته فى القصر ، ثم عين فى منصب رئاسة الديوان أحمد زيور باشا .

وفى اليوم الأول من نوفمبر حظى عبد الفتاح باشا يحيى الذى وقف من نصح دار المندوب السامى هذا الموقف ، بمقابلة جلالة الملك فؤاد فى الإسكندرية ، وكانت صحة الملك فى حالة مكنته من أن يطيل هذه المقابلة حتى تجاوزت الساعتين ، وفى خلال هذه المقابلة رفع يحيى باشا لمليكه استقالة وزيرين من أعضاء وزارته .

وفى اليوم التالى بعث فؤاد رئيس ديوانه الجديد إلى القاهرة ليسأل نائب

المندوب السامى عن موقفه من تغييرات وزارية يبتغى الملك تنفيذها .

وهنا بدا فى وضوح أن الوزارة فى كامل هيئتها على وشك الأستقالة . غير أن هذا التغيير الحكومى ظل موضع الشك أياماً كثيرة متعاقبة .

وقضى الملك فؤاد وقتاً طويلا يستعرض شخصيات الذين يحتمل أن يخلفوا وزراءه ، ويدرس اتجاهات دار المندوب السامى ، بينما كان جلالته لا يزال يخطو أولى خطواته فى دور النقاهة .

وبينما الملك يهيىء نفسه للظروف الجديدة ، إذا بالسير چون سيمون Sir John Simon يلقى فى مجلس العموم بياناً حول الموقف فى مصر قال فيه :

« بينما كان الملك فؤاد لسوء الحظ مريضاً مرضاً خطيراً ، أثار رئيس الوزراء عبد الفتاح يحيى باشا فى ٣ أكتوبر لدى نائب المندب السامى المسألة الناشئة عن الحالة السياسية ، ولاحظ أن وقوع طارئ فجائى عاجل تنجم عنه تبعة مشتركة بين مصر وإنجلترا . وكانت الحكومة البريطانية تقر هذا الرأى لأنها تتحمل فى مصر مسئوليات كبيرة ، منها وجوب حماية أرواح الأجانب وأموالهم فى هذا القطر .

« وعلى أثر هذه المحادثة أوضح نائب المندوب السامى بدوره لرئيس الوزارة بعض التدابير التى من شأنها تعزيز مركز الإدارة تجاه الرأى العام المصرى » .

« وقد لقى تصرف نائب المندوب السامى التأييد التام من الحكومة البريطانية . والنصائح التى أبداها قد أبلغت إلى الحكومة المصرية بتأييد الحكومة البريطانية وموافقتها » .

فلم تكد تنقضى على إلقاء هذا البيان بضع ساعات حتى بادر عبد الفتاح يحيى باشا بالذهاب إلى القصر الملكى حيث حظى بمقابلة جلالة الملك ثم رفع لجلالته استقالة وزارته ، فقبلها فؤاد ، ثم طلب إلى عبد الفتاح باشا أن يواصل

الوزراء القيام بأعباء الحكومة حتى يتم تشكيل الوزارة الجديدة وهى مهمة قد تستغرق بضعة أيام .

وقد أوضح عبد الفتاح باشا يحيى عقب هذه المقابلة أن استقالته جاءت نتيجة مباشرة للتدخل البريطانى فى شئون مصر . ثم أكد أنه لم يرفع استقالته لأن الرأى العام معارض له ، لأن مطالب بريطانيا قد جاوزت حدودها المفروضة لها .

وإليك نص كتاب الأستقالة :

« مولاى :

« منذ أكثر من عام شاءت إرادة جلالتكم تشريفى بدعوتى لتأليف الوزارة فقمت مع زملائى الوزراء بتصريف شئون البلاد عاملين على ما فيه مصلحتها وصون كرامتها برغم ما اعترضنا من صعاب داخلية وخارجية ، معتمدين على تأييد جلالتكم وثقة ممثلى الأمة . على أنه فى الشهر الأخير والمصريون جميعاً يضرعون إلى الله أن يتم لجلالتكم أسباب الصحة ، أبلغت رغبات للحكومة البريطانية لا يسعنى قبولها دون التفريط فى حقوق البلاد .

« لذلك أتشرف الأن وقد تماثلت صحة جلالتكم للشفاء بأن أرفع استقالتى إلى مقامكم السامى داعياً الله أن يسبغ على جلالتكم ثوب العافية ، شاكراً لذاتكم العلية ما حبوتمونى به من رعاية وعطف وتأييد .

« ولا زلت يامولاى لجلالتكم الخادم الوفى الأمين » .

وفى مساء هذا اليوم بعينه بعث الملك فؤاد ، رئيس الديوان الملكى أحمد زيور باشا إلى القاهرة ليعرض على نسيم باشا مهمة تأليف الوزارة الجديدة . على أن يقبل الدستور المعدل ، ذلك الدستور الذى جاهدا فى سبيله معا والذى استقال بسببه نسيم باشا يوم أريد له التعديل .

فذكر نسيم باشا أنه يقبل مغتبطاً أن يشكل الوزراة ، ولكنه يطلب أن تمنح له الحرية فيما يتصل بالدستور . فعاد زيور باشا إلى الإسكندرية يرفع لمولاه هذه الإجابة التى لا تبعث الغبطة .

فلم يستسغ الملك فؤاد موقف نسيم باشا ، وقد سبق لجلالته أن أبدى ارتياحه للنظام الجديد بالمرسوم الذى أصدره يفرض فيه على الوزراء عند تعيينهم أن يقسموا يميناً باحترامهم للدستور وإخلاصهم للملك .

وحز فى نفس فؤاد أن الأقدار قد ساقته إلى حيث يضطره البحث عن رئيس للوزارء إلى عرض المهمة على نسيم باشا ، ذلك لأنه كان مثلا بارزاً للسخط على قانون الأنتخاب المعدل والقوانين الأخرى . وقد سبق لنسيم باشا أن أوضح لمولاه يوم كان رئيساً للديوان الملكى ما قد ينتهى إليه ذلك السبيل الذى سلكه من عواقب . فلما لم يقبل فؤاد نصحه ، رفع نسيم باشا لجلالته استقالته من منصبه .

فلما عينه الملك بعد ذلك عضواً فى مجلس الشيوخ ، لم يقبل هذه العضوية حتى لا يقسم يمين الأحترام لدستور لا يقره ولا يرتضيه .

وكان نسيم باشا فى ذلك الحين قد بلغ الستين من عمره ، وقد شكل وزارتين قصيرتى العمر ، لم تفصل بينهما فترة طويلة ، فى تلك الأعوام التى تلت الحرب والتى كانت مصر تناضل خلالها سعياً وراء استقلالها ، فاكتسب لذلك ألواناً قوية من الحذق والبراعة والمقدرة السياسية .

لقيت إذن دعوة الملك فؤاد التى وجهها إلى نسيم باشا ليؤلف وزارته الثالثة عقدة مؤقتة . فقد عرض نسيم باشا فى شجاعة معروفة عنه شروطه التى يراها سبيلا لقبول ذلك المنصب ، ثم ذكر لرئيس الديوان الملكى ، الذى ظل حائراً

يسعى بين القاهرة والأسكندرية ، أنه يرى ألا يكلف بأداء يمين الأحترام للدستور ، وأن يعطل البرلمان القائم ، ذلك البرلمان الذى جرت انتخاباته وفق قانون الأنتخاب الجديد ، والذى قاطعتـه الأحزاب المعارضة فلم تشترك فى الأنتخابات التى جرت لتكوينه .

ثم بين أنه لا بد أن يراعى الفرق بين تعطيل البرلمان وحله . فحل البرلمان يستلزم حتما إجراء انتخابات عامة فى مدة لا تتجاوز الثلاثة شهور من تاريخ الحل ، بينما التعطيل قد يسرى لأجل غير مسمى . وكان نسيم باشا يعرف أن الأتهامات قد توجه لاقتراحه هذا على أنه غير دستورى ، ولـكنه كان يثق أن الوفد قد يقر مثل هذا الوضع ما رأى فيه سبيل الخلاص من وزارة القصر القائمة .

وكان نسيم باشا يرى أن يقطع كل صلة للماضى بالحاضر ، غير أنه كان فى حاجة إلى فسحة من الوقت يستطيع أن يوفق فيها بين التغييرات التى لا بد من وقوعها وتلك الشروط التى يفرضها لقبول مهة تشكيل الوزارة .

وتردد الملك فؤاد أياماً دون أن يجزم برأى ، وقد حاول جاهداً أن يكتشف الرجل الذى يستطيع أن يعهد إليه بالمنصب الذى عرضه على نسيم باشا ، ولـكنه لم يعثر على الشخصية التى تستطيع الاضطلاع بهذه المهمة ، فإذا كان الثانى عشر من نوفمبر سنة ١٩٣٤ عهد جلالته إلى نسيم باشا بمهمة تأليف الوزارة فأصدر إليه الأمر الملـكى التالى :

عزيزى محمد توفيق نسيم باشا .

« عهدناكم سديد الرأى صادق العزم . وخبرناكم واسع الحـكمة بصيراً فى تدبير الأمور فوق ما جبلتم عليه من الوفاء لنا والإخلاص للوطن فحزتم تمام ثقتنا فاقتضت إرادتنا إسناد رياسة مجلس وزرائنا إليكم ، وأصدرنا أمرنا هذا لدولتكم

للأخذ فى تأليف هذه الوزارة وعرض المشروع علينا لصدور مرسومنا .

والله نسأل أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير البلاد » .

فبذل نسيم باشا غاية جهده فى اختيار أعضاء وزارته ممن لمعت أسماؤهم بعيداً عن دائرة الأحزاب السياسية ، وقد وفق فيما سعى له فضمت وزارته شخصيات لها تاريخ ناصع فى الميادين العامة ، فلما وجه إليه النقد على هـذا النحو الذى سلكه فى تكوين وزارته ، والذى لم يسبقه إليه أحد ، أجاب بأنه سوف يدعو زعماء الأحزاب السياسية للاشتراك معه فى وزارته كوزراء بغير وزارة .

وفى ٣٠ نوفمبر ، وقع الملك مرسوماً يلغى به الدستور الذى سبق لجلالتـه أن عدّله ، وقد شمل المرسوم خمس مواد موجزة العبارة ، تصدرتها مقدمة قصيرة تشير إلى رغبة فؤاد فى أن يكون للبلاد دستور يتفق ورغباتها . وإليك نص الأمر الملكى :

« نحن فؤاد الأول ملك مصر .

بعد الأطلاع على أمرنا رقم ٧٠ لسنة ١٩٣٠ .

وبما أن الحال يقتضى إلغاء النظام المقرر بالأمر المشار إليه :

وبما أنه من أعز أمانينا أن تحيا البلاد حياة دستورية ترضاها .

ونظراً لأنه حتى يستبدل بالنظام المذكور نظام آخر ينبغى أن يحقق استمرار قيام نظام الدولة على المبادئ الأساسية التى لم يزل معمولا بها منذ إنشاء النظام الدستورى فى مصر .

أمرنا بما هو آت

مادة ١ — يبطل العمل بالنظام المقرر بالأمر الملكى رقم ٧٠ لسنة ١٩٣٠ ، ويحل المجلسان الحاليان .

مادة ٢ — يظل شكل الدولة ومميزاتها ومصدر السلطات وتوزعها وحقوق المصريين وواجباتهم كما هى منذ إدخال النظام الدستورى فى مصر .

كما يظل قائماً نظام وراثة العرش ، وحالة الخديو السابق ، كما قررها الأمر الملكى الصادر فى ١٣ ابريل سنة ١٩٢٢ والقانون رقم ٢٨ لسنة ١٩٢٢ .

مادة ٣ — إلى أن ينفذ الأمر الملكى بوضع النظام الدستورى الذى يحل محل النظام المشار إليه فى المادة الأولى نتولى نحن السلطة التشريعية والسلطات الأخرى التى خص بها البرلمان حتى الآن ، كما نتولى السلطة التنفيذية ، ونباشر هذه السلطات المختلفة بواسطة مجلس وزرائنا ووزرائنا ، وعلى مسئوليتهم طبقاً لمبادئ الحرية والمساواة التى كانت دائماً قوام النظام الدستورى فى مصر .

مادة ٤ — تعرض المراسيم بقوانين التى تصدر طبقاً لأمرنا هذا على البرلمان الجديد فى دور انعقاده الأول ، فإن لم تعرض بطل العمل بها فى المستقبل ، ولا يجوز أن تنسخ المراسيم بقوانين المعروضة ، أو أن تعدل إلا بقانون .

مادة ٥ — يبقى نافذاً كل ما قررته القوانين والمراسيم والأوامر واللوائح والقرارات من الأحكام وكل ما سن أو اتخذ من قبل من الأعمال والإجراءات طبقاً للأصول والأوضاع التى كانت متبعة فى حينها ، وكل ما أنفذه الأمر الملكى رقم ٧٠ لسنة ١٩٣٠ ، بشرط أن يكون نفاذها متفقاً مع ما سبقت الإشارة إليه من مبادئ الحرية والمساواة .

فبدا فى غير خفاء أن هـذا الوضع الجديد يضع السلطة كاملة مطلقة فى يد الملك ووزرائه لمدة غير محدودة .

وكان فى مقدور فؤاد أن يقرر صادقاً أنه خلص نفسه من هذه المشكلة بما يحفظ الشرف والـكرامة .

حقيقة أنه اضطر إلى هدم الصرح الدستورى الجديد والعودة إلى الدستور القديم ، وأنه اضطر إلى أن يودع الأبراشى باشا صفيه المخلص ، إلا أنه كانت لا تزال فى يدى جلالتـه ألوان من السلطة فى ميدان السياسة ، وكان مركزه ما يزال بعيداً كل البعد عن المركز الذى يشغله صاحب الجلالة ملك إيطاليا .

وقد ظل على الرغم من ضعف صحته مسيطراً على الميدان السياسى ، ولو أن الأمور قد سارت فى مجراها الطبيعى ، لألفى أن مركزه قد بات أكثر قوة مما كان فى الماضى .

الفصل العشرون

الطور الأخير

كان فى تأليف وزارة نسيم باشا إنتصار لرغبات الشعب ، وهو انتصار مهد لإدراكه موقف بريطانيا العظمى التى انتصرت لرأى الشعب وأيدته . فباتت لدى الأمة دوافع تبعث فى أعماقها الغبطة ، وكان فى حذق الملك فؤاد وبراعته ما بلغ بالبلاد إلى الموقف الذى وصلت إليه ، فلم تنحدر إلى أبعد من الحدود التى أدركتها .

فقد قضت البلاد أربعة أعوام تسيرها حكومة مطلقة السلطان ، رأسها أولا صدقى باشا ، ثم تلاه عبد الفتاح يحيى باشا . لذلك استثار النظام الجديد — ولو عند بدء قيامه — ألوانا من الغبطة ، وبعث حول أوضاعه صوراً من الأحترام ، فهو قد أريد به خير البلاد وصالحها على الرغم من تلك السلطة المطلقة التى جمعها داخل نطاقه .

على أنه مما يدعو إلى الحيرة والعجب أن ما رأت فيه مصر انتصاراً للحياة الدستورية كان ينطوى على حل البرلمان ، ووقف الدستور إلى أجل غير محدود .

وباتت البلاد تتوقع الكثير من وراء هذا النظام الجديد ، وقد كان نسيم باشا رجلا قوى الخلق واسع المقدرة . فلما شكل وزارته فجمع زملاءه فيها من عناصر بعيدة عن السياسة تعمل وفق ما تمليه طبيعة العمل دون أن يدفعها وحى حزب من الأحزاب السياسية ، ولما تردد بعد ذلك فى أن يضم إلى هيئة

الوزارة وزراء بلا وزارة ، زعموا أنه إنما يحاول أن ينفرد بالسلطة ، وأنه لا يميل إلى أن يجعل من نفسه « دكتاتوراً » سبيله الخير المحض .

وأيقن الشعب أنه ينوى أن يلغى الدستور المعدل ، وأن يضع بعد ذلك دستوراً آخر ، تجرى بعده الإنتخابات تمهيدا لعودة الوفديين . وليس هناك من يستطيع أن يشك فى فوز الوفد فى الأنتخابات التى تجرى طبقا للدستور الجديد إذا امتنعت الإدارة عن الضغط على الناخبين للتأثير عليهم لصالح بعض المرشحين ولابد أن نذكر أن « نسيم باشا » لم يكن عضواً فى الوفد ، وإنما كان يميل إليه ميلا ظاهراً ، وقد سبق له أن ولى شئون وزارة المالية فى وزارة سعد زغلول .

فلما باتت عودة الوفديين مرتقبه ، بدأ منظمو الوفد يبذلون غاية جهودهم لتقوية اللجان الفرعية فى الأقاليم ، فلم تكد تنقضى بضعة أسابيع حتى استردت هذه الهيئات قوتها والكثير من نفوذها القديم ، واستعاد الوفد مكانته وهو أقوى الهيئات السياسية فى البلاد .

وكان الملك يرقب الحوادث فى يقظة ، ويتتبع مجرى الأمور فى دقة وعناية .

وقد اضطر نسيم باشا إلى جانب امتناعه عن تشكيل وزارة سياسية ، إلى الامتناع عن إبداء أية إشارة تدل على أنه يعمل فى سرعة لتمهيد الطريق لعودة الوفديين . و بدا كأنما لا تدفعه العجلة إلى استحداث دستور جديد ، وكأنه يحاول أن يستغل تلك السلطة الواسعة التى منحت له لينفذ ألوانا من الأصطلاحات الإدارية ، وليدفع إلى البلاد روحا جديدة من العدالة .

فكان طبيعيا ألا يرتاح الوفديون لهذه السياسة ، فلم تكد تنقضى مدة ليست بالطويلة حتى أظهر زعماء الوفد قلقهم لرئيس الوزراء ، ثم ألحوا عليه فى طلب إعادة الموظفين الوفديين الذين فصلوا فى العهد السابق إلى الخدمة . وأعقبوا ذلك بطلبات أخرى تقوى بها أيديهم .

ولكن قلق الوفديين كان يتزايد حتى انتهوا إلى المطالبة بضرورة التعجيل بإجراء الإنتخابات . فإذا كان فبراير سنة ١٩٣٥ تحركت الفتنة فى صورة خطيرة انتهت إلى وقوع حوادث محزنة كثيرة تثير الأسى . وإزاء ذلك لم ير نسيم باشا والملك فؤاد بدا من إجراء إنتخابات جديدة . على أن الموقف فى نفس الوقت كان معقدا بعض التعقيد للشروع فى مفاوضات بين مصر و بريطانيا العظمى قصد الوصول إلى معاهدة تستقر عندها علاقة البلدين .

ونظرا للملابسات الدقيقة التى كانت تحوط الموقف ، دعا الملك فؤاد ، الوفد إلى الأشتراك فى تكوين وزارة إئتلافية ، غير أن جميع الجهود التى بذلت لإغراء الوفديين بإقرار هذه الخطة الجديدة وقبول تلك الدعوة ، ذهبت جميعها عبثاً .

واتصل على ماهر باشا رئيس الديوان الملكى تنفيذاً لرغبة الملك فؤاد بالنحاس باشا مرارا كثيرة متوالية ، غير أن الوفد أصر من جانبه أصراراً قاطعا على معارضة كل خطة تنتهى إلى عقد معاهدة مع بريطانيا العظمى ما لم تتسلم الحكم قبل الأنتخاب وزارة وفدية خالصة .

وأعلن الوفد أنه على استعداد لأن يضم إلى الهيئة التى يعهد إليها بمفاوضة الحكومة البريطانية ، أعضاء يمثلون الأحزب الأخرى ، ولكنه يشترط أن تكون فى يده مقاليد الحكم فى خلال فترة المفاوضات .

ولم يكن من العسير إدراك السبب فى صلابة الوفد فى موقفه . فهو إنما يقوم على فكرة واحدة هى المطالبة باستقلال مصر يستمد منها وجوده وحرارة حياته ، وهو اليوم يواجه معاهدة قد تربط بين مصر و بريطانيا العظمى ، فلو قدر لهذه المعاهدة أن تعقد وأتيح للعلاقات أن تستقر بها بين البلدين ، لفقد الوفد مصدر حياته وسر قوته ، ولفقد فى ذلك الكثير من نفوذه ومكانته فى نفوس الجماهير .

وقد كان الملك يود مخلصا أن تستقر العلاقات بين مصر و بريطانيا العظمى

ولـكن الوفد لم يكن يعرف مدى ما يعانيه فؤاد من مرضه ، ولم يكن يعرف أن الملك يود فى حرارة أن تنتهى هذه المشكلة الخطيرة ، وأن تعقد المعاهدة حتى تصبح قطعة من التاريخ قبل أن يضطر جلالته إلى تسليم أعباء الملك لابنه .

وإزاء التيار الجارف بات حتما أن تستقيل وزارة نسيم باشا ، فرفعت الأستقالة لمقام جلالة الملك حوالى آخر يناير سنة ١٩٣٦ .

فاستقبل الملك ، النحاس باشا ، فلما اجتمعا معا بين جلالته لزعيم الوفد مدى الضرورة الملحة التى تدعو إلى اتحاد الأحزاب جميعها لتقف صفا واحدا متكاتفة أمام ممثلى انجلترا للفوز بالمعاهدة المنشودة ، ثم طلب جلالته إلى النحاس أن يأخذ على عاتقه مهمة الائتلاف . فـكان جواب النحاس باشا أن التجارب الـكثيرة الماضية قد أثبتت أن كل ائتلاف مصيره الفشل السريع ، وأن أعضاء حزبه والأحزاب الأخرى المناصرة له التى كان يطلق عليها فى ذلك الحين « الجبهة الوطنية » قد اتفقوا على أن الحـكومة الجديدة يجب أن تكون من بين الأغلبية البرلمانية . ثم ذكر النحاس باشا لجلالة الملك فى هـذا الإجتماع أنه يرى أن الضرورة لا تدعو إلى إقامة وزارة انتقال ، مادامت الأنتخابات على وشك الوقوع .

ثم وعد النحاس باشا جلالة الملك أنه إذا فاز الوفد فى الأنتخابات — كما هو المنتظر — وقدر له أن يقوم بمفاوضة الحـكومة البريطانية ، فإن هيئة المفاوضة لا بد أن تشمل بعض أعضاء الجبهة الوطنية .

وبذل الملك فؤاد كامل جهوده لإقناع النحاس باشا بضرورة إعادة التفكير فى الموقف واستعراض جميع مناحيه .

وفى ١٣ فبراير سـنة ١٩٣٦ أصدر الملك فؤاد مرسوماً بتعيين ثلاثة عشر

عضواً مفاوضاً مصرياً للمفاوضة مع بريطانيا العظمى . فكان هـذا المرسوم بين آخر ما قام به جلالته مما يتصل ومهام منصبه السامى .

وهنا بدا لجلالته أنه بات حتما أن يعتكف عن الحياة العامة لعله يسترد بعض صحته التى كانت تزداد مع الأيام ضعفاً .

وقد تحدث الملك إلى على باشا ماهر رئيس الديوان الملـكى فأطال الحديث فلم يخف عليه إيمانه بأنه يقترب فى بطء من خاتمة حياته ، وأنه يحس الموت آتياً يخطو نحوه متثاقلا . وقد ود جلالته لو مد الله له فى حياته حتى تنتهى المفاوضات بين مصر و بريطانيا العظمى . وهى أمنية لم يقدر لها أن تتحقق .

وفى الحق ، لقد كان فؤاد أصدق نظراً من غيره فى مصر الحديثة . وربما كان فى الأسلوب الذى انتهجه ميل إلى الأوتوقراطية ، ولـكنه سلك السبيل التى رأى فيها الخير لبلاده ، وليس هناك من يستطيع أن ينكر جلال الخدمات التى أداها لمصر ، وقد أتيحت له استقامة النظر فاستطاع أن يدرك الأخطاء التى تنطوى عليها أساليب رجال شعبه ، لهذه النظرة الأوروبية التى كان يتطلع بها إلى بلاده . فهو قد كان يدرك أساليب الـكثيرين من هؤلاء الذين يتخذون من الـكلام عدتهم الأولى ، وكان شديد اليقظة لما كان يرتكبه غيره من الأخطاء ، وهو لم يتردد يوماً فى أن يعلن رأيه حتى يرد الأمور إلى أوضاعها الصادقة دون أن يدفعه فى هذا وهم أو خيال .

كان هذا سبيله فيما يتصل بالجيش ، فقد رأى إزاء الحالة العالمية المضطربة التى أعقبت الحرب أن تعتمد البلاد إلى حد ما على قوة الأمبراطورية البريطانية داخل نطاق يتفق وطبيعة الموقف ، وقد رضى لذلك أن يقدم لبلاد أجنبية مبلغاً سنوياً معقولا كان حتما أن يبذل لقوة مصرية . وقد أهمه موقف هؤلاء الذين لم يدركوا مدى الحقيقة فى رأيه فى هـذه الناحية ، واعتقد أنهم إنما وقفوا منه

هـذا الموقف بدافع من جهلهم ، ولفقرهم إلى الخبرة العسكرية التى تمكنهم من تقدير تكاليف القوى الحربية وأعبائها .

وقد قدر لأصراره ، إزاء أقوى معارضـة ، على الأعتماد على قوة بريطانيا العظمى ، أن يؤتى ثمره بعد حين . فلما سجى جثمانه يوم فقده ، كان هناك من آمنوا بأنه كان حتما على بريطانيا العظمى أن تحافظ على سلامة مواصلاتها ، فتحولت لذلك الرغبة العامة ولم تعد تصر على الجلاء الـكامل .

ولم يكن مرجع هذا التحول إلى رغبة القوات البريطانية عن القيام بهذه المهمة ، وإنما كان مرجعه إلى العوامل السياسية . لذلك فإنه على الرغم من أن الوفد والأحزاب الأخرى لا ترى فى الموقف العسكرى ما يبرر دوام احتلال القاهرة والأسكندرية ، فإن النحاس باشا قد وافق عام ١٩٣٠ ، وكان على استعداد لأن يوافق مرة أخرى ، على تأجيل انسحاب هذه القوات إلى منطقة القناة حتى تهيئها الحـكومة المصرية بالثـكنات الضرورية ، وتمدها بالمياه وتزودها بالمواصلات . وكذلك لم يلق وجود بعثة عسكرية بريطانية فى القاهرة ، وقيام وحدات الطيران البريطانية وقواتها الأخرى غرب الأسكندرية معارضة قوية .

وإذا كان الأتفاق قد تم يوماً ما بين مصر و بريطانيا العظمى حول هذه الناحية ، فإنه اتفاق انتهى بإبعاد القوات البريطانية عن القاهرة والأسكندرية . دون أن تتمكن الجبهة الوطنيـة من إدراك نفس الحـكمة التى كان فؤاد يراها داعية لبقاء هـذه القوات فى العاصمتين . فقد ذكروا — وكانوا على شىء من الحق فيما ذكروه — أن الأحتلال كتدبير مؤقت فى أثناء الأزمات ، أو فى الفترة التي تواجه البلاد فيها أخطار حرب ، إنما يكون أمراً فيه ما يستوجب التفكير ، ولـكن المصريين قد باتوا يرون فى منظر الجنود البريطانيين فى القاهرة والأسكندرية قوة أجنبية تذكرهم بما قيل يوماً من أنهم إنما يقومون على حماية

العرش والمحافظة على حقوقه ، وهى دعوى ليس هناك ما يسندها أو يبررها . فهم لذلك يثيرون فى ظهورهم فى طرقات العاصمتين مشاعر المصريين .

والواقع أن سكان القاهرة والأسكندرية كانوا يرون فى الفرق البريطانية قوة قد ترجح بها كفة ناحية سياسية فى الميدان السياسى ، فلا يكون للرأى العام المكان الأول فى هذا الميدان وهو أمر لا ترتاح إليه عواطفهم ، على الرغم من أن عدداً كبيراً من المصريين يحملون لهذه القوات لوناً من الأحترام الصادق .

وقد ذكر الملك فؤاد ، قبيل وفاته ، لزعماء الجبهة الوطنية فى كثير من الإخلاص ، أن أعز أمانى حياته أن يمتد به العمر حتى يتم توقيع المعاهدة المصرية البريطانية التى تستقر بها العلاقات بين الشعبين .

وقد أريد بالمحادثات التى بدأت فى القاهرة فى الثانى من مارس سنة ١٩٣٦ بين سير مايلز لامبسون المندوب السامى البريطانى فى مصر ، والهيئة الرسمية المصرية ، الوصول إلى الأسس التى تسوى عليها « التحفظات الأربعة » .

وهى التحفظات التى استبقتها انجلترا يوم إعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ حتى يحين الوقت لحلها وتتلخص فيما يأتى :

١ — حماية المواصلات الإمبراطورية فى مصر .

٢ — الدفاع عن مصر ضد كل اعتداء أجنبى .

٣ — حماية مصالح الأجانب والأقليات .

٤ — السودان .

وقد بذلت منذ ذلك التاريخ جهود هائلة للوصول إلى حل لتلك النقط ، ولكنها ذهبت جميعها عبثاً . وكان المصريون أنفسهم يودون مخلصين أن تستقر الأمور بين مصر و إنجلترا ، وأن يصل الطرفان إلى حل يرتضيانه لإيمانهم العميق بأنه متى تم توقيع المعاهدة بين الجهتين فسيمتنع عند ذلك تدخل بريطانيا

فى شئون مصر الداخليـة . وكانوا كذلك يؤمنون بأن استقلالهم إن هو إلا صورة لا روح فيها ولا حياة ، يحول بينهـا و بين حرارة الحياة هذا الأستقرار الذى ينشدونه فى صدق و إخلاص .

على أن الوضع الذى تتشكل فيه مثل هذه المعاهدة فى بلاد تفخر باستقلالها إلى أقصى حدود الفخر إنما يحتاج إلى براعة وحذق لما لا بد أن تصطدم به هذه المعاهدة من ألوان العسر والمشقة ، لأنه متى أريد تصوير المعاهدة فى عبارات لتسجيلها كتابة بدا كل ما يتفق وصالح بريطانيا ماساً بهذا الأستقلال .

ورأى الملك فؤاد قسوة هذا الموقف ، وأدرك ما ينطوى عليـه من ألوان المصاعب ، وهو يعرف مدى مطالب بلاده ، وكان يؤمن بأن بريطانيا إنما تبغى معاهدة تحالف تلزم مصر فى حالات النزاع الدولى بأن تضع فى خدمة الأمبراطورية دون تحوط جميع موانيها ، ومطاراتها ، وسككها الحديدية . فكان فى هذا الذى أدركه سر رغبته فى تكوين وزارة ائتلافية ، وفى أن تمثل الهيئة الرسمية للمفاوضات أوسع دائرة ممكنة . ولما كان جلالته يدرك أن المطالب البريطانية قد تكون بحيث لا يستسيغها الرأى العام المصرى كثيراً ، فقد أراد أن تمثل الأتجاهات السياسية جميعها فى هـذه الهيئة ، وعلى وجه خاص الاتجاه الوفدى ، حتى يكون فيما تصل إليه هـذه الهيئة من اتفاق ما يحمل الأحزاب المصرية جميعها على قبوله والتقيد به .

وكان جلالته على استعداد للمساومة ، فكان لذلك مستعداً إلى حد ما لأن يضغط مطالب مصر فى السودان ، على أن تقبل الجبهة وجهة نظره . فمصر التى تبغى أن تسيطر على مياه النيل ، قد أدركت غايتها إلى مدى بعيد فى اتفاقيـة سنة ١٩٢٩ التى قسمت المياه قسمة عادلة . وأما مطلبها الذى يدور حول الأشتراك فى إدارة السودان ، فقد أجيبت إليه إلى حد ما فى سنة ١٩٣٠ يوم قبل المستر

آرثر هندرسون أن يضم إلى مواد مشروع المعاهدة الذى وضع فى ذلك الحين مادتين تنصان على منع كل إجحاف بحقوق مصر ومصالحها المادية فى السودان ، والمساواة بين الرعايا البريطانيين والمصريين فيما يتصل بشئون التجارة والهجرة وحيازة الأملاك . ففى سنة ١٩٣٠ طلب النحاس باشا وزملاؤه إباحة الهجرة دون قيد ، ففشلت المفاوضات عند هذه النقطة .

ولكن حدث فى السنوات التالية ، ما أزال الخيال الذى كان يصور للمصريين ما قد يغمره بهم السودان من خير ، وتقلص الافتتان بهذا القطر إلى حد لا سبيل إلى مقارنته بما كانت عليه العواطف منذ أعوام كثيرة .

على أنه كانت لفؤاد فى السودان مآرب ، هى بعينها التى تتفق وحاجة مصر وتسير وطبيعة وجودها .

لقد ناضل فؤاد كثيراً فى سبيل بلاده ، وهو قد ألح على النحاس باشا طويلا للاشتراك فى حكومة ائتلافية يتخير هو أعضاءها ، وقد أتاحت له الأيام أن يوقع مرسوماً يجمع فى صلب مادته الوحيدة ثلاثة عشر إسماً تمثل مصر المتحدة المتآلفة ، مصر التى وقفت « بجبهتها الوطنية » تناضل فى سبيل حريتها واستقلالها . ولكنه قضى قبل أن يشهد ساعة الفوز الأخيرة فبكته الملايين .

الفصل الحادى والعشرون

مـــآثر

إذا كان قد قدر للملك فؤاد أن يواجه خلال نضاله فى سبيل بلاده ألواناً من العنت والإرهاق ، وإذا لم يكن قد استطاع أن يجمع حول شخصه إعجاب الجماهير ، فلا ريب فى أنه كان يحمل لمصر حبا عميقاً ، ويحفظ لشعبه إخلاصاً أكيداً .

وإذا كان المصريون قد انتقدوا يوماً ما أسلوبه فى الحكم ، وإذا كان قد آلمهم ميله إلى الأوتوقراطية ، فإنهم لا بد يعترفون فى غير التواء أنه كان عظيما ، وأنه كان لجهوده الشخصية أثر كبير فى كثير من الأعمال العامة الجليلة التى أتمتها مصر ، وأن مصر قد خطت فى عهده وبمعونة جهوده خطوات واسعة موفقة ثبتت قدميها فى سبيل النجاح .

كان فؤاد بعيد النظر ، واسع الخبرة ، موفور التجارب . يستطيع أن يدل على ما قد ينتهى إليه مشروع من المشروعات مهما جل خطره من أسباب الخير ، أو دواعى الفشل . وسيبقى اسمه حيا يرتبط ، وكثير من الأعمال الخالدة التى شهدتها مصر وتطلع إليها العالم بأوثق رباط .

وفى استطاعتنا أن نذكر على سبيل المثال أن نفقات وزارة الأشغال قدرت فى ميزانية ١٩٢٨ — ٢٩ بما يكاد يبلغ الثمانية ملايين جنيه ، وهو مبلغ ضخم بالقياس إلى بلاد فى مثل حجم مصر . فهناك مشروعات لها فى البلاد أكبر أهمية تم تنفيذها ، وهناك مشروعات أخرى لا تزال موضع الدرس والعناية .

على أن أهم حادث فى تلك السنة ، هو ما قام به الملك فؤاد بوضعه الحجر الأساسى فى قناطر نجع حمادى ، وقد نوه وزير الأشغال فى كثير من الأحترام فى خطابه الذى ألقاه فى حضرة صاحب الجلالة عند الأحتفال بوضع ذلك الحجر ، بالنصائح الغالية الحكيمة التى زود بها جلالته رجال حكومته فيما يتصل بالمشروعات العامة .

وليس من ريب فى أن قناطر نجع حمادى ، التى قدر لها أن تتم فى عهد الملك فؤاد ، كلفت مصر ملايين الجنيهات ، ولكنها مهدت لرى مساحات واسعة من الأرض بلغ مجموعها ٦٠٠ر٠٠٠ فدان ، طالما قاست مرارة الحرمان خلال الثلاثين سنة الأخيرة نتيجة الفيضانات المنخفضة . على أن هذا المشروع قد شمل إلى جانب تلك القناطر أعمالا أخرى لها أكبر صلة بتحسين وسائل الرى كالجسور ، وترعتين حملت الأولى اسم الملك فؤاد ، وحملت الثانية اسم الملك فاروق .

ولولا ما كان يبذله الملك فؤاد من رأى ، ولولا إصراره على أن يضمن للبلاد على الدوام زيادة فى دخلها على مصروفاتها ، لما تمت أكثر المشروعات العظيمة التى فازت بها مصر فى عهد جلالته . ولم يكن فؤاد ليتردد فى الإنفاق عن سخاء ، ولكنه كان ماليا حاذقاً بصيراً يعرف أين ومتى ينفق المال . وقد أتيح له أن يرى بلاده تكوّن لنفسها احتياطيا يبلغ الملايين من الجنيهات . ولقد ظل حتى آخر حياته يعمل جاهداً فى سبيل زيادة دخل الحكومة ما سمح بذلك الموقف السياسى ، بتوزيع النفقات حيث ينبغى لها أن توزع ، وحيث تزود البلاد بما هى فى حاجة إليه من المشروعات العامة التى يزداد معها الدخل ، وتنمو معها ثروة البلاد .

و بوحى الملك فؤاد أعيد النظر فى أمر التعريفة الجمركية ، وأدخلت ألوان جديدة من الضرائب ، وأنشئت خطوط جديدة للسكك الحديدية ، وخفضت

نفقات صيانة السكك الحديدية ، مما أدى إلى تخفيض أجور النقل . وكذلك أنشئت الطرقات فى الجهات التى كان النقل فيها بالعربات عسيراً أو مستحيلا . وفصل الموظفون الزائدون عن حاجة العمل فى مصالح الحكومة التى ظلت أعواما طويلة كأنها ملجأ موفور الخير كثير النعم .

كذلك أشار الملك فؤاد بإصلاح السوق المالية بحيث تتفق وصالح التجارة ، ونصح بتعيين لجنة مهمتها بحث نظام البورصة وإصلاحه .

وقد عنى جلالته كثيراً بشئون التجارة وما يتصل بها ، فأصدر عام ١٩٢٧ مرسوما رفع به نصيب المصريين فى إدارة الشركات المساهمة وفى أسهمها . كما اشترط أن يضم مجلس إدارة أية شركة من هذه الشركات مديرين مصريين ، وأن يكون ربع موظفى الشركة الذين ليسوا من طائفة العمال ، من المصريين . كما حتم فى حالة إصدار أسهم أو سندات أن يخصص ربعها لعرضه فى مصر ، وفرض أن يكتتب فى أربعة أخماس هذا الربع مصريون .

أما رعاية جلالته للجامعة فكانت ظاهرة ملموسة ، فقد أصدر فى اكتوبر سنة ١٩٢٧ قانونا لإعادة تنظيم الجامعة التى كانت مهمتها تشمل كل ما يتصل بألوان الثقافة العليا فى كليات الآداب ، والعلوم ، والطب ، والحقوق . على أن مهمة هذه الجامعة بوجه عام إنما تنحصر فى تشجيع البحث العلمى ، والعمل على نشر الآداب والعلوم . والجامعة من الوجهة القانونية مؤسسة مستقلة ، لها كامل الحق فى إدارة أملاكها وتوزيع الإعانة التى تقدمها لها الحكومة سنويا بما يتفق وحاجاتها .

وقد قدر لجهود الملك فؤاد الرائعة التى تتصل بالجامعة أن تبدو فى حفل رسمى اغتبط له جلالته واغتبطت له مصر بأسرها ، يوم تقدم فى السابع من فبراير سنة ١٩٢٨ ، يحوطه أمراء الأسرة المالكة والوزراء السابقون ، ورجال

الدين والوجهاء من المصريين والأجانب ، ووضع بيده الكريمة الحجر الأساسى فى المبنى الجديد للجامعة فى الجيزة ، حيث تقوم أمامها حدائق الأورمان الفسيحة الساحرة .

وفى الخطاب الذى ألقاه مدير الجامعة فى هذا الأحتفال ، نوه سعادته فى حرارة بالجهود المتواصلة الصادقة التى بذلها جلالته للجامعة التى تدين بوجودها لرعايته أميراً وعطفه ملكا . فهو قد احتضنها أميراً فبذل لها من جهده ، وأمدها بماله ، حتى تولت الحكومة رعايتها فى صورة رسمية ، فلم يحتجز دونها جلالة الملك فؤاد الأول خالص عطفه وصادق تشجيعه ، فباتت مبعث النور فى هذا القطر العزيز . يتهافت عليها الطلاب من مختلف أقطار الشرق دون استثناء .

وقد أهدى جلالته للجامعة مكتبة المغفور له الأمير إبراهيم حلمى الذى مات فى « سميز Cimiez » على مقربة من نيس ، ولما كان جلالته أخا للأمير الفقيد ووارثا له ، فقد تنازل عن نصيبه فى هذه المكتبة الغنية الرائعة للجامعة ، فجاراه فى هذا التنازل الورثة الأخرون . فأضافت هذه المكتبة إلى ذخيرة الجامعة عشرين ألف مجلد تبحث الكثرة الغالبة منها فيما يتصل بشئون مصر و بلاد الشرق . كذلك كانت رعاية الملك فؤاد للمدرسة الفاروقية البحرية بحيث تبدو للعيان ، وكان فيها من الحرارة ما حصلت معه المدرسة على عشرين ألف جنيه تقدمت إليها فى هبات لتمدها بحاجات ذلك المعهد الضرورية على أثر إعلان جلالته لرغبته فى تنفيذ مشروعها . وقدم عضوان من أفراد الأسرة المالكة « يختين » خاصين ، واشترك أصحاب السفن فى الأسكندرية فى تقديم سفينة شراعية .

ولما حضر إلى مصر لورد أنشكايپ رئيس شركة البنسيولار آند أورينت للملاحة البحرية ، طلب إليه صاحب الجلالة أن يزور المدرسة وأن يبدي لجلالته

بعد ذلك رأيه فيها . فقبل اللورد أنشكايب هذه الدعوة السامية ثم قدم تقريراً بين فيه أنها لا تقل بأى حال عن السفينة المدرسية « ورشستر » التى قضى أعضاء البعثة البحرية المصرية مدة تمرينهم على ظهرها فى المياه البريطانية .

وكان تقدم قوة الطيران المصرية أثراً من آثار جهود الملك فؤاد الحارة التى لا تنقطع ، فقد وضع هذه القوة تحت إشراف القائمقام تايت بك Tait Bey واليمباشى س . ن . و بستر S. N. Webster الذى فاز فى سباق كأس شنيدر Schneider Trophy عام ١٩٢٨ . كما ضمت القوة عدداً من أمهر الضباط البريطانيين ، وكذلك تلقى الطيارون المصريون دروسهم فى مدرسة الطيران البريطانية بأبى صوير .

وسرعان ما نجحت قوة الطيران المصرية التى شجع الملك على خلقها ، و بلغ الطيارون المصريون من البراعة حداً يستثيرون عنده الإعجاب . وقد عاونت هذه القوة معاونة جدية فى مقاومة تهريب المخدرات و يسرت على رجال البوليس مهمة القبض على المهربين واكتشافهم .

وكذلك عاونت قوة الطيران مصلحة الآثار وقدمت لها خدمات جليلة لما كانت تلتقطه لها من الصور الفنية الهامة ، فكان فى هذه الجهود ما أثار نحوها إعجاب الملك فؤاد الذى كان حبه لآثار بلاده رائعاً وعميقاً .

وهو الذى بدأت بفضل تشجيعه أعمال التنقيب فى منطقة الأهرام الخالدة فى الجيزة ، تلك المنطقة التى كان العالم يظن أنه لم يبق بها من آثار الفراعنة ما يمكن أن يكشف عنه مثل هذا البحث .

ولكن الدكتور سليم بك حسن ، الذى أصبح إسمه كعالم أثرى يرن فى أجواء العالم ، قد وفق فى فبراير سنة ١٩٣٢ ، إلى اكتشاف هرم رابع فى هذه المنطقة ، وهو هرم الملكة « كنت كاوس » التى كانت تحمل لقب « ملك مصر

العليا والسفلى » . على أنه يشك فيما إذا كانت هذه الملكة قد اعتلت عرش مصر وحملت تاجها فى صورة رسمية . ومهما يكن نصيب هذا الشك من الواقع فليس من ريب فى أنه كانت لهذه « الملكة » سلطة واسعة على البلاد ، ومن المحتمل أنها تولت الملك فى حداثة ابنها ، فهذا اللقب الذى حملته « ملك مصر العليا والسفلى » لم يطلق على أية ملكة فى المملكة القديمة .

ويقال أن هذا الهرم الرابع قد شيد أيام الأسرة الخامسة (٢٥٦٠—٢٤٢٠) قبل الميلاد . ويظن أن الملكة « كنت كاوس » هى بعينها السيدة التى تحمل نفس الإسم الذى عرف من أهرام أبو صير ، والتى تحمل لقب « أم الملك » .

وعلى مقربة من هذا الهرم الرابع اكتشف الدكتور سليم حسن فى منطقة الحفريات آثاراً أخرى رائعة ، فكشف عن مقابر تدل على أنها كانت مخازن للكنوز ، وهذه المقابر تضارع فى روعتها ومميزاتها تلك المكتشفات التى عثر عليها حديثاً فى وادى الملوك .

وإلى الملك فؤاد يرجع الفضل فى وضع نظام للتنقيب عن كنوز مصر العظيمة الخالدة . فلم يعد من الممكن أن يبدأ أى باحث فى التنقيب عن آثار الفراعنة التى خلفوها فى بطن الأرض ، والتى تحمل فى جميع دقائقها رمز العظمة والجمال دون أن تأذن له السلطات المسئولة بالعمل ، ودون أن تمنحه ترخيصاً بالبحث .

كان الملك فؤاد يحمل للماضى أصدق عواطف التقديس والأحترام ، وهو لم يكن يعارض فى التنقيب عن الآثار ، على أن يطلب الباحث لنفسه الترخيص الواجب ، بل كان يشجع مثل هذا البحث ، ولكنه فى نفس الوقت كان يقاوم هؤلاء الذين يعملون لأغراضهم الخاصة ، فى أسلوب لا يرضى الكرامة ولا الشرف . وهو الأسلوب الذى كان يرى فيه لوناً من ألوان البربرية التى لا تعرف للأمانة وجوداً .

كذلك كان شغف الملك فؤاد بالجمعية الجغرافية ورعايته لها بحيث تلمسهما الأيدى فى غير عسر أو تكلف . فكان فى كرم رعايته لها ما دفع بالجمعية إلى الصف الأول فى الطليعة بين أعظم الجمعيات العلمية شأناً فى البلاد . فلما مات فؤاد ، كان بين مجموعتها العلمية النادرة ، مؤلف المسيو دى لا رونسيير M. de la Ronciere فى أجزائه الثلاثة ، التى وضعها عن « كشف أفريقيا فى القرون الوسطى » . وهو ذلك المؤلف الرائع الذى يستمد روعته من ناحيتين : أناقة الطبع وجماله الفنى من ناحية ، وتلك الخرائط القديمة التى تضمنها من ناحية أخرى ، وهى الخرائط التى لم يعرفها أحد من قبل ، أو التى لم يسبق طبعها أو نشرها .

ولسنا ننسى للجمعية تلك الرسائل التى وضعت عن الصحراء الشرقية ، وعن الترع القديمة ، وعن ميناءى السويس والإسكندرية وموقعهما .

وإلى جانب هذه الجهود النبيلة ، أنشأت الجمعية تنفيذاً لرغبة الملك فؤاد الشخصية ، متحفاً إثنوجرافياً مصرياً . وهو المتحف الذى أريد له أن يجمع أمثلة لجميع الأدوات التى تستخدم فى مصر ، والتى توشك أن تختفى مع تعاقب الأيام ، نتيجة استعمال أدوات أخرى مشابهة لها ، تستوردها مصر من أوروبا ، لتفوقها فى المتانة ، ولانخفاض أسعارها .

وفى الحق لقد كانت صلة الملك فؤاد بالجمعية وثيقة إلى أبعد مدى ، صادقة إلى أبعد حدود الصدق والإخلاص ، فهى لم تكن علاقة ضرورة ألجأته إليها التقاليد الأجتماعية ، وإنما كان مبعثها هوى خالص يحمله لها فى نفسه ، لذلك كثيراً ما كان يتردد على إدارة الجمعية ، وكثيراً ما كان يساهم بنفسه فى أعمالها .

وقد قال فى إحدى زياراته لها :

« فى اللحظة التى يغذى الشعب فيها شعور الأحترام لأجداده ، وروح

التقديس لعظمة أبطاله ، يدرك سر مستقبله لأنه يكون فى هذه اللحظة بعينها ، قد بلغ ذروة المدنية » .

ثم قال فى مناسبة أخرى :

« ستكون مفاخر ماضينا وتراثنا الخالد خير عون لنا فى بعث وطننا من جديد ، وفى التقدم به نحو الكمال الإنسانى » .

كان فؤاد معنياً أشد العناية باستثارة الاحترام لذكريات الأجداد ، والتقديس لعظمة الماضى . حتى لقد بلغ من صادق عنايته بهذه الناحية أن أوفد إلى أوروبا من قاموا بالبحث فى دقة وعناية فى دور المحفوظات فى لندن وپاريس ، وناپلى ، وفلورنسا ، وليجهورن ، وڤينيس ، وڤينا . عن معلومات تتصل بعهد محمد على . وكثيراً ما طبعت المؤلفات عن هذا العهد تحت رعايته و بتشجيعه . ولعل بين أهم تلك المؤلفات مجموعتى رسائل قنصلى فرنسا فى مصر ، فى المدة من ١٨٠٢ لغاية ١٨٠٤ ، ومن ١٨٠٥ حتى ١٨٠٧ ، اللتين طبعتا فى ١٩٢٥ و ١٩٢٦ . ثم رسائل الچنرالين بلياردBelliard ، و بوير Boyer . التى طبعت تحت عنوان :

A French Military Mission to Mohamed Ali. The First Frigate of Mohamed Ali. Embassy of Elfi Bey in London. The State Coach of Ibrahim Bey in 1803.

وكذلك أودع الملك فؤاد مبلغ ٧ر٠٠٠ جنيه فى بنك فرنسا بپاريس لينفق منها فى وضع تاريخ كامل عن مصر منذ أقدم الأزمان حتى الوقت الحاضر . وهى المهمة التى عهد بها جلالة الملك إلى المسيو جبريل هانوتو M. Gabriel Hanotaux يعاونه جماعة من كبار المؤرخين . وليس من شك فى أن مثل هذا المؤلف العظيم سينشر من خلال سطوره على تارخ البشرية نوراً ساطعاً خلاباً .

وهناك إلى جانب كل هذا جمعية أخرى كان الملك فؤاد يمدها بواسع رعايته ، تلك هى « الجمعية الملكية للاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع » .

ففى ٥ يناير سنة ١٩٢٨ افتتح جلالته المركز الجديد لهذه الجمعية ، وهو المركز الذى يدين بوجوده لسخاء جلالته وكريم تشجيعه .

وقد شهد هذا الأحتفال أمراء الأسرة المالكة ، ورجال الهيئات السياسية ومندوبو الحكومات الأجنبية فى مؤتمر الإحصاء الذى عقد فى مصر ، والذى كان قد فرغ عند ذلك من مهمته .

فجاء فى خطاب رئيس الجمعية قوله :

« ليس بيننا من يستطيع أن ينسى أن الفضل فى قيام هذا البناء الذى ستجرى داخل جدرانه أبحاثنا ودراساتنا فى جو يغمره السلام وتشمله السكينة ، إنما تفضلت به علينا نفس اليد التى رعت هذه الجمعية منذ نشأتها والتى سجلت توقيعها فى أبريل سنة ١٩٠٩ فقرنته بجميع الأسس والتفاصيل التى قامت عليها الجمعية ، وهو التوقيع الذى قرأناه فى ذلك التاريخ « الأمير فؤاد » .

ثم قال الرئيس فى خطابه :

« قرأنا فى تاريخ بلد من بلاد أوروبا ، أن أحد الملوك الغابرين كان يرى أن الدقة فى ضبط الوقت والتحكم فيه فضيلة ملكية . فهنا فى هذه الجمعية تثبت لنا محفوظاتنا أن هذه الفضيلة هى حلية الأمراء فى أرض مصر . . .

فلدينا أعوام خمسة متواليه لا تكشف عن غير مناسبة واحدة رأى فيها رئيسنا صاحب الجلالة — الذى كان فى ذلك الحين صاحب السمو « الأمير فؤاد » — أن هناك واجباً أشد قسوة يضطره لأن يتخلف عن حضور اجتماع مجلسنا » .

ولا بد أن نذكر هنا « الجمعية الملكية المصرية للحشرات » ، وهى وليدة جهود الملك فؤاد التى افتتح دارها الجديدة رسمياً فى الثامن والعشرين من فبراير

سنة ١٩٢٨ ، وهى الدار القائمة فى شارع الملكة نازلى .

وقد نوه رئيس الجمعية فى خطاب الأفتتاح برعاية الملك فؤاد الصادقة لجميع ما يتصل بالبحث العلمى أو بالعلماء والباحثين . وقبل أن يغادر فؤاد هذه الدار تبرع للجمعية بألف جنيه من ماله الخاص تنفق فى شئون مكتبتها ومعملها .

ولما كان الملك فؤاد يدرك كل الإدراك ما أدت إليه الحركة التعاونية فى بريطانيا العظمى والهند ، فقد رغب أشد الرغبة أن تنتشر هذه الحركة بين فلاحى مصر ، ورأى فى التعاون وسيلة لتخليصهم من ثقل الأعباء التى تحملها الكثرة الغالبة منهم فوق أكتافها وسبيلا لإنقاذهم من تعنت المرابين وقسوتهم .

فصدر فى سنة ١٩٢٣ قانون ينظم جمعيات التعاون الزراعية ، غير أنه اتضح فيما بعد أن هذا التشريع فى حاجة إلى الإصلاح والتنقيح . فأشار جلالة الملك بتكوين لجنة فى وزارة الزراعة لبحث هذا الموضوع ، وهى اللجنة التى مهدت لتنسيق جمعيات التعاون المصرية ، التى باتت تسير وفق القانون الصادر فى سنة ١٩٢٧ . فلم تعد مهمة هذه الجمعيات قاصرة على العمليات الزراعية البسيطة التى كان ينظمها قانون ١٩٢٣ ، ولكنها أصبحت جمعيات تعاونية تعمل على تحسين حالة المشتركين المادية فيما يتصل بالمحاصيل ، وبالبيع والشراء ، وعقد السلفيات ، والتأمين ، وإصلاح الأراضى ، والرى والصرف ، وتخفيض تكاليف البناء ، وما يتصل بهذه الشئون بسبب .

ورغبة فى تشجيع الروح التعاونية ، ونشرها بين طبقات الفلاحين ضمن القانون لجمعيات التعاون امتيازات واسعة تسهل مهمتها ، وتخفف عليها أعباء وظيفتها ، وتيسر على الفلاحين سبل الاتصال بها والاستفادة مما خلقت له ، وما أريد لها أن تقوم به .

الفصل الثانى والعشرون

جهود دينية

كان الملك فؤاد يدرك إلى أبعد حدود الإدراك السليم مكانه من العالم الإسلامى فكان لذلك يناضل جاهداً ما قد يبدو فى مصر مشابها لنظام « الشبان الأتراك » . وقد ظل أمداً طويلا يتطلع فى حذر إلى هذه الجمعيات التى ظهرت فى بلاده فى السنوات الأخيرة والتى أطلق عليها اسم « جمعية الشبان المسلمين »

وكان فى إسناد رياسة هذه الجمعية إلى أحد الوطنيين المتطرفين الملتهبين ، ما أثار الريبة فى نفس جلالته نحو أغراض هذه الجمعية . فلما أفصحت الأيام عن أعمال الجمعية والغرض من وجودها ، بذل لها الملك أصدق ألوان المعونة .

وقد بدا من فؤاد ما يدل دلالة قاطعة على مبلغ احترام جلالته وتقديره للخلافة التى رأى أنها قد تؤول إليه .

ففى نوفمبر سنة ١٩٢٢ أقر المجلس الوطنى الكبير فى الجمهورية التركية الجديدة قانونا يلغى به السلطنة . وفى نفس الوقت نصب عبد المجيد بن السلطان المخلوع خليفة دون أن تكون له السلطة الزمنية . وعلى الرغم من أن الإسلام يشترط للخليفة الجمع بين السلطتين الروحية والدينية ، فقد قبل عبد المجيد منصب الخلافة فى صورته الجديدة المختصرة . على أن المنصب فى هذه الصورة الجديدة لم يخرج عن أن يكون أداة أريد لها أن تحجب عن عيون الشعوب الإسلامية حقيقة الموقف ، إذ لم تكد تنقضى على هذا الوضع سنة واحدة حتى قرر المجلس الوطنى الكبير فى أغلبية مطلقة ، إلغاء الخلافة العثمانية فى صورة نهائية .

فتطلع العالم الإسلامى للموقف فى شبه ذهول . هذا الخليفة قد حرم أولا من السلطة الزمنية ، ثم لم تلبث الأمور قليلا على هذا الوضع حتى محيت الخلافة محوا ، فلم يعد للمسلمين الذين يعمرون بقاع العالم زعيم روحى يتوجهون إليه ، فساد بينهم القلق .

وكان طبيعيا بعد ذلك أن تبذل الجهود لاختيار خليفة جديد ، وكان طبيعيا أن يتطلع فؤاد إلى هذا المركز ، وأن يرى أنه أجدر الناس به ، وهو الذى يرعى المعاهد الدينية المصرية فى صدق ويحوطها بعطفه فى إخلاص . ولكن حدث فى سنة ١٩٢٤ أن زار الملك حسين شريف مكة ، بلاد شرق الأردن فمُنحت له الخلافة فقبلها ، ولكن المعروف أنه لم يتمتع بهذا المنصب طويلا ، إذ لم تكد تنقضى ستة شهور حتى هزمه الملك بن سعود فضاعت مكة من يده . ثم مات فى عمان سنة ١٩٣١ .

ولم يكن قد أقسم للخليفة الحسين يمين الولاء سوى بعض أهالى فلسطين ، وشرق الأردن وسوريا . لذلك لم تكن هذه المحاولة عملية بأية حال من الأحوال .

فلما اختفى الحسين بعيداً عن مكة ، فكر علماء الأزهر فى عقد مؤتمر إسلامى عام لبحث مسألة الخلافة والفصل فيها برأى . فنالت آفة التأجيل هذه الفكرة ، حتى إذا كان عام ١٩٢٦ ، عقد فى القاهرة مؤتمر ، ولكن الحضور لم يكونوا بحيث يمثلون العالم الإسلامى تمثيلا صحيحاً ، فلم يستطع المؤتمر سوى أن يقرر أن مسألة اختيار خليفة ، لا بد أن تنظر فى اجتماع يشهده ممثلون عن جميع البلاد الإسلامية .

وقد كان من المحتمل أن يقع الأختيار على الملك فؤاد ليكون خليفة المسلمين ، وكان من المحتمل أن يرضى المسلمون فى مختلف أنحاء العالم عن هذا الأختيار وهذا الأزهر له نفوذه الواسع بين الشعوب الإسلامية من اليسير استخدامه .

فى الأزهر حوالى ١٢٫٠٠٠ طالب ، كثيرون منهم قد وفدوا إليه من أبعد الأقطار الإسلامية ، ومن الجائز أن يقال إن هؤلاء الطلاب يمثلون العالم الإسلامى .

غير أنه اتفق بينما كان المؤتمر منعقداً ، أن بدت رغبة الملك الحارة فى إدخال بعض الإصلاحات على نظام الأزهر ، فلما بلغت هذه الرغبة دوائر الأزهر زعم لها بعض المتعصبين ما جعلهم يتطلعون إليها فى غير اطمئنان ، وكان لهم من جمودهم ما حملهم على النظر إليها فى هذه الصورة .

على أن الواقع أن العلوم التى كانت تلقنها الجامعة الأزهرية وفروعها لطلابها كانت على صورة لا تتفق ومقتضيات العصر الحديث ، مما حمل الكثيرين من المصلحين على التفكير فى إصلاحها بإدخال بعض مبادئ العلوم الحديثة ضمن برامجها . فلقيت هذه الرغبات صعوبات قاسية عنيفة ، يرجع بعضها إلى ظروف مادية ، بينما يرجع البعض الآخر إلى تمسك علماء الأزهر المحافظين بتقاليد معهدهم .

ولكن الملك فؤاداً لم يتردد فى أن يسلك سبيله فى هذه الناحية ، فقد خطا حيث فشل الآخرون ، فبدأ يعمل جاهداً لتنفيذ ما رآه خيراً خالصاً محضاً ، ولكنه حسب لكل خطوة حسابها ودبر لكل قدم موضعها فسار متمهلا يحدوه الحذر فلم يندفع .

فبدأ بإصلاح مجلس الأزهر الأعلى . وقد كان فى النظم البالية والقواعد العتيقة ما جعل مركز كل عضو فى المجلس مبهماً غير ثابت ، وخلق مختلف ألوان المصاعب والعقد فى سبيل كل إصلاح تدعو إليه الضرورة .

فأصدر جلالته ما دعت إليه الحاجة من المراسيم ، والقوانين ، والتعليمات ، وأدخل ألواناً من الإصلاح ملموسة .

لقد ظل الجامع الأزهر هو المعهد الدينى الوحيد الذى تلقن فيه تعاليم الإسلام . ولكن كان حتما مع تعاقب الأيام وازدياد عدد الطلاب زيادة كبيرة جارفة من إنشاء معاهد أخرى .

فإذا كان عام ١٩٢٣ بلغ عدد هذه المعاهد سبعاً ، على أنها جميعها لم تبلغ مكانة الجامعة الأزهرية ، ولا مكانة المعهد الأحمدى بطنطا . فقد كان الطلاب يتقاطرون إلى هذين المعهدين دون غيرهما فى كثرة مرهقة .

ورغبة فى أن يخفف قليلا من هذه المركزية ، وأن يستغل فى اللامركزية جميع ألوان الخير التى تنطوى عليها والتى تعود على الطلاب دون غيرهم أمر بإنشاء معهدين جديدين . الأول فى الزقازيق والثانى فى أسيوط . فقامت وزارة الأوقاف تلبية لأمر جلالته بتشييد بناء فخم رائع فى الزقازيق ، وضعته على أحدث طراز عصرى يجمع بين أسباب الصحة والروعة والفخامة ، بحيث يتسع لألف طالب ، وقد كلف هذا البناء ما يزيد على الأربعين ألف جنيه .

وقد كان الملك فؤاد شديد الرغبة فى أن يرى فى كل إقليم معهداً دينيا من هذا الطراز .

وقد كان بين أهم مميزات الجامعة الأزهرية أنها انفردت بجمعها بين مراحل التعليم الثلاث : الابتدائى ، والثانوى ، والعالى . بينما كانت المعاهد الأخرى قاصرة على المرحلتين : الأبتدائية ، والثانوية .

ولكن صدر فى سنة ١٩١١ قانون يخول المعاهد الأخرى ، حق تدريس مقرو المرحلة العليا ، ولكنه اشترط أن يعقد الأمتحان لنيل شهادة العالمية فى القاهرة . غير أنه سرعان ما اتضح أن هذا التغيير الجديد قد لقى صعوبة عنيفة فى ضعف مستوى طلاب المعاهد الفرعية ضعفاً بيناً .

فطلب جلالة الملك فؤاد إلى مجلس الأزهر الأعلى أن يدرس الأمر ويبدى

فيه رأياً ، فاستقر الرأى فى سبتمبر سنة ١٩٢١ على تركيز مرحلة الدراسة العليا فى الجامعة الأزهرية فى القاهرة .

ثم صدرت بعد ذلك فى السنوات ١٩٢٣ و ١٩٢٤ و ١٩٢٥ بعض القوانين الأخرى التى قضت بضم عدد كبير من المدارس الخاصة إلى الجامعة الأزهرية ، كان فى طليعتها مدرسة القضاء الشرعى ، ومدارس المعلمين الأولية .

وليس من شك فى أن الملك فؤاداً كان لا يزال يفكر فى مسألة الخلافة يوم أظهر ولعه الشديد بالفن والأدب . فقد بدأت دار الكتب الملكية تنفيذاً لرغبة جلالته فى ضبط و إخراج المخطوطات العربية القديمة ، وفى إعادة طبع أشهر الكتب العربية التى تعد بحق بين روائع الأدب العربى وذخائره ، وهو جهد لا تزال دار الكتب تبذله حتى اليوم .

تخول التقاليد الإسلامية وشريعتُها ، الملكَ حق الولاية العليا على شئون الأوقاف . وقد ظلت هذه السلطة من حق الملك بعد صدور الدستور ، فلجلالته الحق فى إدارة أملاك وزارة الأوقاف . لذلك كانت ميزانية الأوقاف مستقلة . وقد ظلت على هذا الوضع حتى اليوم ، فهى على الرغم من عرضها على البرلمان لإقرارها ، ليست مندمجة مع الميزانية العامة .

وقد أدرك الملك فؤاد أن النقص يعتور إدارة الأوقاف فى كثير من الجهات فثمة الأساليب الملتوية ، والإهمال فى العمل ، والخلل فى الإدارة ، والصعوبة المضنية فى حصر الأطيان والعقارات الكثيرة المبعثرة فى مختلف أنحاء القطر و بلاده ، والعجز عن استغلالها على أحسن وجه . فكان فى كل هذا ما عقد واجب الملك يوم هم بالإصلاح ينشد من ورائه الخير العام .

وكان مما زاد فى الأساءة إلى هذه الوزارة ، أن انحرف كبار الرؤساء فيها عن أن يضربوا لمرؤوسيهم خير الأمثال فى الأمانة ، وحسن الرعاية لواجبات

المنفعة العامة . ولقد قيل إن بعض أصحاب الشخصيات العالية ، قبل الحرب ، كانوا يرون أنه مما لا يتفق وهيبتهم ألّا ينحرفوا بامتيازاتهم عن الطريق السوى ، ليُحوّلوا بذلك دخل المنشآت الخيرية عن سبلها المرسومة لها .

فأمر جلالة الملك فؤاد بإدخال نظام المراجعة الحسابية على أعمال الوزارة ، فبات بمثابة رابط قوى يقى الحسابات شر العبث بها ، فبدأت العيوب التى وقف عليها جلالته يوم بدأ بإصلاحاته تسير فى سبيل الزوال لتكون جزءاً من الماضى الغابر ، وأخذ التحسن يدب فى أوصال الوزارة جادا مسرعاً مما كان حتما أن ينتهى بزيادة الدخل الذى تحصل عليه الوزارة من أملاكها .

وكان من أثر جهود الملك فؤاد و إصلاحاته التى خص بها هذه الوزارة أن بدأ النظام ينشر حولها لمحة من نور ، وقد اختار جلالته لإداراتها المختلفة رؤساء توفرت فيهم المقدرة والبراعة والاستقامة ، وكذلك فُصِل العاجزون من الموظفين الذين تعوزهم الكفاية والمقدرة ، ووضعت لأعمال الوزارة النظم الجديدة التى تضمن لها سيراً دقيقاً منتظما .

ليس من الممكن أن يقال إن الملك فؤاداً قد بلغ بجهوده الغاية التى يرجوها للوزارة من الكمال ، ولكنه على أى حال قد استطاع أن يهيىء لها سبيل ذلك الكمال ، وأن يبلغ بها حدا يقف بها بعيداً عما عرف عنها فى الماضى .

فقبل أن يعنى فؤاد بشئون وزارة الأوقاف كان فى ميزانيتها عجز ملموس ، على أنها لم تلبث إلا قليلا بعد أن بذل حولها رعايته حتى زال هذا العجز ، واستطاعت الوزارة أن توازن ميزانيتها ، بل استطاعت أن تجد لنفسها دخلا موفوراً ، وقد حول الملك فؤاد جميع تلك الأموال التى عُدل بها عن السبل غير المشروعة إلى أبواب البر العامة ، وجهات الدين .

وقد نهضت الوزارة تنفيذاً لرغبة جلالته نهضة زراعية إصلاحية ، فأصلحت

مساحات واسعة من الأطيان البور ، حتى باتت صالحة للزراعة ، كما أنشأت مؤسسات دينية جديدة ، وعمارات للسكن ، ومساجد ومدارس حديثة . وكذلك شيدت للفلاحين مساكن صحيـة وسط الأطيان التى تم إصلاحها . كما زودت الأراضى الزراعية بوسائل الصرف الضرورية . وشقت بينهـا الترع والقنوات لريها وتحسين حالتها الزراعية حتى تزداد غلتها .

ونظراً لما أسبغه الملك فؤاد على وزارة الأوقاف من واسع الرعاية التى زكت معها شهرتها ، عُهد إليها فى إدارة تفتيش الوادى الذى كانت تديره الحكومة . وهو تفتيش عظيم واسع المساحة ، وقد بلغ دخله السنوى قبيل وفاة الملك ٦٦ر٧٢٧ جنيهاً .

وفى عام ١٩١٧ ، بلغ دخل الأوقاف الأهلية ٥٢٢ر١٢٥ جنيهاً ، وقد قدر لفؤاد أن يعيش حتى يرى هذا الدخل يزداد حتى يبلغ ضعف هـذا الرقم . وقد ازداد عدد الأوقاف الأهليـة التى تديرها الوزارة حتى أصبح فى سنة ١٩٢٤ ، ٧٤٢ وقفاً بعـد أن كان عددها فى سنة ١٩١٧ ، ٦٤٨ وقفاً . بينما ازداد عدد المستحقين حتى أصبح فى سنة ١٩٢٤ ، ٧٥٤٠ مستحقاً ، بعـد إذ كان فى سنة ١٩٢٠ ، ٤٤٣٦ مستحقاً .

وعلى الرغم من تعدد هـذه الأوقاف وتفرقها وكثرة عدد المستحقين كثرة مرهقة ، وضآلة أنصبة الكثيرين منهم فى غلات أوقافهم مما يخلق الكثير من العقد ، فقد كان فيما أشار جلالته بإدخاله من وسائل الإصلاح ما انتظمت معه حسابات هذه الأوقاف حتى بلغت درجة من الدقة تدعو إلى الإعجاب .

وقد كثر عدد المستحقين الذين بذلوا غاية جهودهم ، قبل أن يرعى جلالة الملك فؤاد شئون الوزارة بعنايته ، لإخراج أوقافهم من نظر الوزارة لسوء إدارتها فى ذلك العهد وكثرة ما كان يعتور أنظمتها من النقص . فلما نفذت إصلاحات

فؤاد إلى كيان هـذه الوزارة فحوّرت أنظمتها ، أتاحت الأيام لجلالته أن يشهد الطلبات تنهال عليها من أصحاب الأوقاف يرجون أن تتولى الوزارة إدارة أوقافهم ، حتى باتت الوزارة عاجزة عن تلبية الكثير من هذه الرغبات.

وقد رأى جلالته أن يزود الوزارة بهيئة من المفتشين الممتازين ليكون فى حسن قيامهم على العمل ورقابتهم المستمرة لجميع فروعه ، ضمان لكمال سيره .

و بلغ عدد المساجد والملاجىء والتكايا التى كانت تديرها وزارة الأوقاف فى كنف رعاية الملك فؤاد لها ١٣٠٠ مسجد وملجأ .

كذلك أدخلت على المساجد القائمة إصلاحات كثيرة وفرت لها الشروط الصحية التى تتفق وطبيعة هذه الأبنية المقدسة ووظيفتها .

كما أدخلت الكهرباء إلى كثير من المساجد ، و بينها بطبيعة الحال أشهر المساجد وأبرزها . و إلى جانب هـذا العدد الكبير الذى زودته الوزارة بالتيار الكهربائى على نفقتها ، قام الكثيرون من ذوى المروءة بإضاءة عدد كبير من المساجد بالكهرباء على نفقاتهم الخاصة .

ولا بد أن نذكر فى هـذا الموضع ذلك المشروع الذى وضع تنفيذاً لرغبة جلالته الخاصة ، لإصلاح جامع عمرو الأثرى المشهور وتجديده .

فقد عقدت وزارة الأوقاف لهذا الغرض مسابقة عالمية بين المهندسين المعماريين ، اشترطت فيها أن يوضع المشروع بحيث يشمل ذلك الجزء من المدينة الذى كان يحوط مسجد عمرو فى عهد الدولة الأخشيدية (٣٢٤ — ٩٣٦ بعد الهجرة) قبل عهد الفاطميين مباشرة . ورسماً كاملا عن المسجد مع بيان مواد البناء ومستلزماته ، ونبذة تاريخية عن المسجد إبان أزهى عهوده . على أن تؤيد هذه الرسوم والبيانات جميعها بالأسانيد العلمية والرسوم القديمة ، وأن يشفع المشروع بالمصادر التى رجع إليها صاحبه والأسانيد التى اعتمد عليها .

كذلك نفذت إصلاحات الملك فؤاد إلى الناحية الطبية فى وزارة الأوقاف ، فأنشأت الوزارة تنفيذاً لرغبة جلالته عيادة داخلية فى مستشفى الملك ، كما عنى القسم الطبى بالوزارة بتهيئة مصحة فؤاد الأول بحلوان ، بأحدث ما وصلت إليه أرقى المصحات المماثلة فى أوروبا من الأدوات والمعدات .

ولما كانت محفوظات الوزارة ومستنداتها من الأهمية بحيث يجب أن تبذل فى المحافظة عليها أصدق ألوان العناية ، فقد أمر جلالته أن تنظم هذه المحفوظات تنظيما شاملا ، فنفذت الوزارة هـذه الرغبة الـكريمة ، فدرست آلاف الملفات وأعيد ترتيبها حتى بات من السهل الرجوع إليها .

فلو أن جلالة الملك فؤاداً كان مدفوعاً فيما جاهد فى سبيله فى هذه النواحى الدينية والخيرية بالرغبة فى أن يخلق لنفسه فى قلوب المسلمين مكاناً يصعد منه إلى منصب الخلافة لما كان هناك ريب فى أنه فائز برغبته .

لم تكن المناداة بالملك حسين خليفة عام ١٩٢٤ ، بالعمل الموفق ، وقد دلت على أنه ليس من الممكن أن يعرض موضوع الخلافة ، دون أن يثير ألواناً من النزاع وسط العالم الإسلامى ، بينما كان شعور المسلمين المنتشرين فى جميع بقاع العالم منذ سنة ١٩٢٤ ، يميل أشد الميل إلى الأبتعاد عن كل ما من شأنه أن يثير خلافاً أو يبعث على خصومة .

وقد كان الـكثيرون من أمثال « شوكت على » فى الهند يرغبون رغبـة حارة فى تنصيب خليفة للمسلمين ، غير أن الملك فؤاداً رأى من الخير ألّا يوقظ الأمر من سباته .

وفى سنة ١٩٣١ نشرت مجلة نور الإسلام التى تصدرها الجامعة الأزهرية ، بياناً عارضت فيـه ما بدا من الرغبة فى عرض مسألة الخلافة على المؤتمر الذى

كان مزمعاً عقده إذ ذاك فى القدس . وأعلنت أن الوقت لم يحن بعد لبحث مثل هذه المسألة .

على أن كل هذا لا يعنى أن مسألة الخلافة قد ماتت ، وكان فؤاد يعرف أنها لم تمت ، ويعرف كذلك أن حق مصر قوى من الوجهة الجغرافية ، وأن حق ملكها ثابت لقوته قوة تشبه تماما حقوق الملك ابن سعود .

والواقع أن فؤاداً كان يتفق وابن سعود فى نواحى ، ويختلف عنه فى نواحى أخرى .

فقد كان ابن السعود فى مكة يجمع بين السلطتين الدينية والمدنية ، وكان يعمل جاهداً لتخليص الدين مما علق به فى تعاقب القرون مما ليس منه ، وليعود به إلى أصوله الصادقة وبساطته القديمة . بينما كان يعمل فى نفس الوقت على إدخال ألوان العلوم الغربية إلى بلاد العرب دون أن يسمح لما قد يمس بساطة الإسلام ومثله العليا بالاقتراب من بلاده .

وبين هذا الأسلوب وأسلوب فؤاد تفاوت هين يسير . على أن فؤاداً قد رعى فى مصر وزارة الأوقاف بكامل عنايته فأنتجت على النحو الذى رأينا ، ولم يدخر وسعاً فى التوفيق بين المثل الإسلامية والعربية العليا ، وبين مقتضيات العصر الحديث ، مما يستقيم معه الخلق ، وتعذب عنده الحياة .

ولما زايلته شكوكه نحو جمعية الشبان المسلمين بذل لها صادق معونته ، وأحاطها بواسع عطفه . وقد وُضع نظام هذه الجمعية فى القاهرة سنة ١٩٢٧ ، واشترط هذا النظام فى الأعضاء العاملين أن يكونوا مسلمين ، ذوى خلق كريم وسمعة محمودة ، وألاّ تكون لهم ميول تتعارض مع قواعد الدين الإسلامى .

وتنحصر أغراض هذه الجمعية فى ما يلى :

نشر آداب الإسلام ومثله .

محاولة تنوير الأذهان بالمعلومات فى أسلوب يتفق وطابع العصر الحديث .

العمل دون استثارة أسباب النزاع بين الأحزاب والجماعات الإسلامية .

تناول أروع ما فى الثقافتين الشرقية والغربية ، والتغاضى عن كل ما دون ذلك .

وقد تطلع الملك فؤاد لهذه الجمعية أول نشأتها فى كثير من الريبة ، لهذا المظهر المضطرم الذى بدا عليها فى ذلك الحين . وقد أريد لها أول الأمر أن يكون اسمها « جمعية الشبان المصريين » غير أن الرأى استقر فى النهاية على هذا الأسم الذى تحمله اليوم .

على أن الجمعية خطت بعد ذلك خطوات واسعة إلى الأمام يحدوها عطف فؤاد و يستحثها تأييده ، وهى لا تزال حتى اليوم فى سبيلها مصعدة نحو الذروة ، وهى كلما أوغلت فى السير ارتفع فى نفوس سكان العالم العربى مكانها ، وهى تستمد حيويتها من طبيعة وجودها ، وتأخذ حرارتها من سمو الغرض الذى تجاهد من أجله .

ولما كانت هذه الجمعية بعيدة عن السياسة غاية البعد ؛ فقد أمدها الملك فؤاد بكامل معونته ، كما أغرى أميراً من أقرب أمراء أسرته إليه بأن يظل على صلة وثيقة بها . على أنه كان من العسير الشاق أن تظل الجمعية بعيدة عن السياسة كل البعد فلا تميل إليها من طرف من أطرافها ، وهذه أغراضها تفرض عليها شعوراً بعينه قد يحمل لونا من ألوان السياسة . فيوم انتشرت هذه الحركة وامتد نطاقها إلى العراق ، وفلسطين ، وسوريا ، كان من المستحيل ألّا يهتز شعور الجمعية إزاء بعض الحوادث التى يضطرم بها الشرق . كذلك سرعان ما ألفت الجمعية نفسها وسط أشواك من العسير عليها الخروج منها . فبينما هى لا تعترض على الجمعيات المسيحية فى سعيها لنشر محاسن دينها ، رأت أنه ليس من

العدل فى شىء أن تهاجم هذه الجمعياتُ الإسلامَ . ولما كان جانب من الشعب المصرى يدين بالديانة المسيحية فقد بات من العسير عليها أن تتبين موضع خطاها . لهذا كان حتما أن يستغل الملك فؤاد أبرع ألوان ذكائه فى اختيار الأسلوب الذى يغمر به هذه الجمعية بعطفه .

وقد اضطرت الجمعية إلى مقاومة بعض البعثات التبشيرية فى صورة اضطرت معها الوزارة الى العناية بأمر هذه البعثات ودراسة موقفها .

ولما كانت مصر وفلسطين تتشابهان تشابها كبيراً ، وكان فى وحدة اللغة ما يجمع بينهما فيقوى بينهما الرباط ، فقد كان طبيعياً أن تعنى جمعية الشبان المسلمين بموقف فلسطين ، وأن تهتم بما يبديه الصهيونيون نحوها . فلما حدثت الاضطرابات فى القدس سنة ١٩٢٩ حول موضوع « مبكى اليهود » الذى يكوّن لسوء الحظ جزءاً من الحرم الشريف ، بعثت الجمعية برقياتها إلى عصبة الأمم ، وإلى وزارة الخارجية الأنجليزية ، وإلى المندوب السامى فى القدس ، تستنكر الاعتداء على حقوق المسلمين ، وتبين قداسة هذا الحائط الذى يدعيه اليهود لأنفسهم ، ثم قالت إن : « كل مسلم فى أية بقعة من بقاع العالم لعلى استعداد لأن يناضل إلى جانب فلسطين دفاعا عن هذا التراث المقدس ، ولن يسمح المسلمون للصهيونيين بأن يتخذوا من هذا الموضع المقدس وسيلة للدعاية القومية ما دام على وجه الأرض مسلم واحد يجرى فى عروقه دم » ، وربما بدت للغربيين فى هذه اللهجة بعض المبالغة ، ولكن الحوادث التى أعقبت ذلك أثبتت أنها إنما كانت تعبر عن الواقع .

ومهما يكن مدى مشاطرة الملك فؤاد للجمعية فى مخاوفها تجاه الأماكن الأسلامية فى فلسطين ، فقد كان حتما أن يتدبر جلالته خطوه فى كثير من الحذر إذ لم يكن من اليسير أن يزج بنفسه وسط مشكلة لها مثل تلك الأهمية العالمية ،

وهى لا بد تثير الصهيونيين الذين لم يكن ثمة ما يحمل جلالته على استثارتهم . على أن جلالته قد أبدى كثيرا من الحذق يوم أعلن أن أمر الفصل فى هـذا الموضوع يرجع إلى الحـكومة البريطانية .

على أن رغبة فؤاد فى ألّا يقوى موقف جمعية الشبان المسلمين فى صراحة ملموسة ، لم تنل ما هى حقيقة به من كمال الإدراك فقد دفعت بعض المتصلين بالحركة إلى أن ينسبوا لجلالته تجاه هذا الموقف بعض الفتور .

غير أن فؤاداً كان حكيما صادق الحـكمة فى وقوفه حيث اختار لنفسـه ، وحسبه أنه رأى حكام البلاد العربية يتبعونه فى السبيل التى اختطها ، وكثيرن منهم كانوا ولا يزالون حتى اليوم بين الطامعين فى منصب الخلافة .

وأدرك فؤاد فى ذلك الحين ميل البلاد العربية الإسلامية إلى توثيق الروابط التى تجمعها ، وتوطيد الصلات التى تربطها ، وشهد الاتجاه الجديد إلى هدم الفوارق الجنسية ، وقد أدرك خلال سنوات حكمه الـكثير من ألوان الروابط تجمع بين شعوب مصر ، والعراق ، وفلسطين ، وسوريا ، وشرق الأردن . وكان جلالته يدرك كل الإدراك ما ينطوى عليه مثل هذا الاتحاد الروحى من المزايا ، وما يعتوره من المساوىء ، وقد أيقن أن قيام خليفة قوى بارع يجمع فى يديه السلطتين الزمنية والروحية ، لا بد ينعش الإسلام ويخلصه من هذه المنازعات التى دفعته إليها تركيا الفتاة فى هدمها للخلافة .

كذلك كان فؤاد يؤمن أنه هو الرجل الذى تهيئه مكانته لتولى منصب الخلافة ، وكان فى استطاعته أن يشير فى هـذه المناسبة فخوراً إلى موقفه من الأوقاف ، ومدى ما أصابته من الإصلاح والتقدم فى كنفه وتحت رعايته وإرشاده .

على أن القاهرة كانت تزداد مع الأيام مكانة وسط العالم الإسلامى حتى

باتت هى مركزه الفكرى والجغرافى ، وليس من ريب فى أن شيئا من هذا يعود لجهود جمعية الشبان المسلمين فى العاصمة المصرية . وقد رغب جلالته لهذه الجمعيه ألّا تقتصر جهودها على الناحية الأسلامية المحضة على الرغم من أنه كان يعمل على التأليف بين البقاع الأسلامية ، وقد كان فى الحوادث العالمية ما أيده فى رغبته واتجاهه .

فإغلاق المساجد فى تركيا ، وموقف روسيا السوفيتية من الدين ، ومركز فلسطين ، كل هذا كان يدعو إلى تقوية الروابط بين الوحدات الأسلامية فى جميع بقاع العالم .

ومما يحسن ذكره أن رغبة الملك فؤاد فى الوقوف بعيداً عن معترك السياسة الدولية قد خلفت أثرها ، إذ عرض لها بالبحث مؤتمر رؤساء جمعيات الشبان المسلمين الذى عقد فى يوليه سنة ١٩٣٠ . فطلب الرئيس إلى المؤتمرين أن يتجنبوا الزج بالجمعية فى ميدان السياسة ، ثم ذكر أن ما تبذله الجمعيـة من الجهود فى دفاعها عن الأماكن المقدسة ، وهو ما يدخل ضمن نطاق أغراض الجمعية ، عمل إسلامى خالص مرجعه النزعة الدينية ، دون أن يكون له بالسياسة صلة أو رابطة .

و بعد مناقشات طويلة وافق المؤتمر على وجوب البعد بالجمعية عن شئون السياسة ، وقصر جهودها على تقوية المثل الأسلامية الروحية .

والواقع أن الـكثير من الشئون الأسلامية تقترب من السياسة حتى يمسى من المتعذر التميز بين الأساس الذى بنيت عليه ، هل هو الدين أم السياسة . وليس من ريب فى أن حركة العرب الفلسطينيين تلقى معونة روحية من الشبان المسلمين فى مصر ، وسوريا ، وشرق الأردن ، والعراق ، والحجاز . وعلى الرغم من أن هذه المعونة تقوم على أساس دينى خالص فإن لها وجها سياسياً ليس من اليسير تجاهله .

غير أن فؤاداً كان حريصاً فى توجيه جهوده ، فهو قد عرف كيف يختار لنفسه المكان الذى يرضى ميوله ، وهو المكان الذى استطاع فيه أن يتغلب على كثير من العقد فى مختلف الميادين التى نزل إليها ، والذى دل اختياره له على حذق جلالته واستقامة نظره .

ومن المحتمل أن تؤدى حوادث فلسطين إلى تقوية الشعور بضرورة التوحيد بين البلاد العربية ، و إلى العودة لبحث مسألة اختيار خليفة من جديد .

وربما كان من المحتمل لو قدر للملك فؤاد أن يمتد به العمر ، أن تتحقق أمنيته ، وأن ينصب قائداً روحياً للعالم الأسلامى .

وهو كابن لأسماعيل ، كان يجمع كل المؤهلات التى تهيئه عن جدارة لمثل هذا المنصب . فهو لا يعوزه الميل إلى الأوتوقراطية ولا الحذق والبراعة السياسية وهى الصفات التى يتطلبها منصب الزعامة الدينية .

وقد كان فى تعاقب الأعوام ما قوى مركزه وثبت كفايته ، ذلك لأن روح الإسلام فى مصر قوية ، والشعور الدينى فيها ظاهر ملموس .

وسيكون فى توالى الأيام ما يجعل من مصر قلب العالم الإسلامى المرهف ، إليه تتطلع الأعين وتتجه القلوب .

* * *

بعد حياة امتدت ثمانية وستين عاماً حافلة بألوان الجهاد وصنوف المتاعب ، أذعن فؤاد عاهل مصر العظيم للآية الكريمة « إنا لله و إنا إليه راجعون » .

ففى الرابع والعشرين من ابريل سنة ١٩٣٦ بدأت الأشاعات تملأ جو القاهرة حول صحة صاحب الجلالة ، غير أنها وقد تلت تلك الأخبار الكثيرة التى عرفها الشعب عن اضطراب صحة مليكه ، لم تثر لدى الجمهور بادىء الأمر

شعوراً قويا ، فلما صدرت فى اليوم التالى نشرة طبية تشير إلى حدوث « نزيف له خطورته » إهتزت مصر بأكملها وأخذت العالم الدهشة لهذا النبأ .

قاوم الملك المرض فى شجاعة رائعة ، ولكنه اضطر فى النهاية إلى الإذعان فبدأ يخطو نحو الخاتمة ، وقد أنهكت الأمراض السابقة قواه ، فلم يعد فى طوقه أن يكافح طويلا .

فإذا كان الثامن والعشرون من ابريل مات الرجل العظيم .

وطويت بموت فؤاد صحيفة رائعة ، فيها الجهاد الطويل العنيف ، وفيها البراعة والذكاء والتجربة ، وفيها الرجولة القوية والبطولة الكريمة .

مات عاهل مصر فسجى جثمانه ، ونشر فوق نعشه العلم المصرى . وشيعت مصر مليكها دامعة العين ، حزينة القلب .

وقد تراصت الجماهير على طول الطريق تودع الفقيد الكريم ، وتلقى على جثمانه النظرة الأخيرة ، وهى تهتف من أعماق قلبها « إلى جنات الخلد يا فؤاد » .

محمد عبد الحميد

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٩

i 14288527
B 12767232

- JAN 1986